المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى

باشراف الدكتور مصطفى زيور

الأنا وميكانيزمات الدفاع

تأليف

أنّا فرويد

ترجمة

صلاح مخيمر

عبده ميخائيل رزق

تقديم

مصطفى زيور



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الأنا وميكانيزمات الدفاع

تأليف

أنّا فرويد

ترجمة

صلاح مخيمر | عبده ميخائيل رزق

تقديم

مصطفى زيور

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

التصدير

بقلم

د. مصطفى زيور

يعتبر كتاب أنّا فرويد « الأنا وميكانيزمات الدفاع » الذى نقدم ترجمته إلى القارىء العربى من المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى. ذلك لأنه نشر فى وقت (منتصف الثلاثينات من هذا القرن) كانت دراسات والدها سجموند فرويد قد بلغت ذروتها فيما يطلق عليه « سيكولوجية الأنا » التى تخلقت بذورها فى مقاله المشهور « فى النرجسية » عام ١٩١٤ ثم نماها ودعمها فى رسالته « مافوق مبدأ اللذة » عام ١٩٢٠ و « سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا » عام ١٩٢١ و « الأنا والهو » عام ١٩٢٣ و « الكف والعرض والحصر » عام ١٩٢٥ ، فضلا عن عدة مقالات تنحو هذا النحو نذكر منها « الإنكار » عام ١٩٢٥ الذى يعالج تخلق الفكر والمعرفة، و « انشطار الأنا أثناء عمليات الدفاع » و « التحليل النفسى مكتملا وغير مكتمل » ١٩٣٧ وغيرها .

والمأثور أن دراسات فرويد فى سيكولوجية الأنا توجت دراساته السابقة التى انفق فيها زهاء ربع قرن ، انشغل أثناءها بارتياد الجوانب المترامية من الحياة النفسية اللاشعورية التى لم يرتدها أحد من قبله ، والتى تزخر بالدفعات الغريزية وتحولاتها ومايدور بينها وبين جوانب نفسية أخرى من صراعات يشقى بها الإنسان دون أن يعلم مصدر شقائه ، وتبرز من بينها دفعات ذات طابع شبقى لا تقتصر فى فحواها على مفهوم الجنس بالمعنى المألوف ، من حيث أن لها تاريخا أركيولوجيا أثناء الطفولة ووظائف بناءة لحياة الإنسان بما هو إنسان . وقد أطلق فرويد على الطاقة

المحركة لهذه الدفعات لفظ « الليبيدو » ، وسجل هذه الاكتشافات فى كتابه « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » عام ١٩٠٥ ، وذلك بعد أن أتيح له أن يفتح باب عالم اللاشعور على مصراعيه من خلال أعظم اكتشافاته التى سجلها فى كتابة « تفسير الأحلام » عام ١٩٠٠ ، اكتشافات أوضحت « طبيعة العمليات » التى تأسس بنيان الحلم وهذيان المجنون والحياة النفسية فى الطفولة جميعاً .

وعندما فرغ فرويد من ارتياده لهذه المنطقة من الحياة النفسية التى تبهر وتروع من يفحصها لغرابة مكوناتها واختلافها اختلافا شديداً عما نألفه فى حياتنا الشعورية ، واجهته مشكلة مصير الليبيدو فى الأمراض العقليه ، فانتهى إلى أن الليبيدو الذى يقوم بدور الرباط الذى يوثق العلاقات الإنسانية يرتد فى حالات الأمراض العقلية من موضوعاته إلى الأنا ، ومن ثم لم يعد الأمر صراعا بين « غرائز الأنا » وغريزة الجنس . واتضح أن الأنا مصدر الليبيدو يضفى على الغير فيكون ليبيدو الموضوعات ، وعندما يرتد إلى الأنا يتسم بنرجسية ينوء بحملها الأنا وينقطع الرباط بين الذات والغير .

عند ذلك لم يكن مناص من أن يوجه فرويد حدسه النفاذ إلى دراسة الأنا وأحوالها فى الصحة والمرض جميعاً فكانت الحقبـــة التى جرى العرف فى التحليل النفسى على أن يطلق عليها « دراسات سيكولوجية الأنا » .

على أن فرويد وهو يسجل مشاهداته ونتائج خبراته وصياغاتها النظرية فى رسائله ومقالاتها آنفه الذكر ، لم يكن فى وسعه أن يفعل ذلك على نحو مدرسى فى عرض مرتب ترتيبا يخدم هدف التعليم . وهذا هو ما آلت أنّا فرويد على نفسها أن تنجزه فى هذا الكتاب .

غير أننا نبخسها فضلها إذا لم نذكر أنها سجلت فى كتابها هذا فضلا عما سبق كشوفا لم يسبقها إليها أحد تعتبر اسهامات أساسية فى التحليل النفسى تتسم بالأصالة الحقه أتاحها لها تخصصها فى التحليل النفسى للأطفال .

من أجل ذلك كله فالرأى عندى أن هذا الكتاب ينبغى أن يكون بين أول مايقرأ كل من يعنى بدراسة التحليل النفسى .

مصطفى زيور

١. نظرية ميكانيزمات الدفاع

الفصل الأول

الأنا من حيث هي مركز الملاحظة

تعريف التحليل النفسى :

مرت فترات فى تطور علم التحليل النفسى كانت فيها الدراسة النظرية للأنا الفردية أمر منفر نفوراً . وعلى نحو أو آخر ، تأدى كثير من المحللين إلى أن قيمة مايتم من عمل علمى وعلاجى فى التحليل يتناسب طرديا مع عمق الطبقات النفسية التى انصب عليها الأنتباه . فكلما كان يتحول الإهتمام عن الطبقة النفسية الاعمق إلى الأكثر سطحية — أى كلما كان يتحول البحث عن الهو إلى الأنا — كان يغلب الشعور بأن تلك بداية الردة عن التحليل النفسى ككل . كان الرأى السائد هو أن مصطلح التحليل النفسى ينبغى احتجازه للكشوف الجديدة المتعلقه بالحياة النفسية اللاشعورية ، أى بدراسة الحفزات الغريزية والوجدانات والاخاييل المكبوتة . أما المشكلات من قبيل تكيف الاطفال أو الراشدين مع العالم الخارجى ، وأما تصورات القيمة من قبيل الصحة والمرض ، والفضيلة والرذيلة ، فلم تكن بمعنى الكلمة من اختصاص التحليل النفسى . كان يتحتم على التحليل أن يقصر كل بحوثه على الاخاييل الطفلية التى استمرت فى الحياة الراشدة وعلى الإشباعات الخيالية ، وعلى العقوبات المرهوبة جزاء على هذه الإشباعات .

مثل هذا التعريف للتحليل النفسى لم يكن من غير المألوف ان نلتقى به فى كتابات التحليل النفسى ؛ وربما كان يدعمه ذلك الإستخدام الشائع الذى

كان ينظر دائماً إلى التحليل النفسى وعلم نفس الأعماق بحسبانهما لفظين مترادفين . هذا إلى أنه كان هناك بعض مايبرر ذلك فى الماضى ؛ إذ يمكن القول بأنه منذ أبكر سنوات التحليل كانت نظريته ، التى قامت على أساس تجريبى هى بالدرجة الأولى علم نفس اللاشعور ، أو كما يمكن أن نقول اليوم علم نفس للهو[1] ولكن هذا التعريف لا يلبث أن يسقط عنه كل مايدعيه من دقة عند تطبيقه على علاج التحليل النفسى . فمنذ البداية كان التحليل بوصفه طريقة فى العلاج ، معنيا بالأنا وانحرافاتها . كان التقصى للهو ولأسلوبه فى العمل هو دائماً مجرد وسيلة إلى غاية . وكانت الغاية هى دائما نفس الغاية : تصحيح تلك الشذوذات وإعادة الأنا إلى سلامتها . .

وعندما اتخذت كتابات فرويد ، ابتداء من « سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا » و « ماوراء مبدأ اللذة » ، وجهة جديدة لم تعد وصمة الخروج على السنة التحليلية تلحق بدراسة الأنا ، فانصب الاهتمام بشكل حاسم على منظمات الأنا .

ومنذ ذلك الوقت لم يعد بالتأكيد مصطلح « علم نفس الأعماق » يغطى كل حقل البحث التحليلى . ففى الوقت الحاضر ربما نستطيع تعريف مهمة التحليل النفسى كما يلى : أن نحصل على أكمل معرفة ممكنة بكل المنظمات الثلاث التى نعتقد أن الشخصية النفسية تتألف منها وأن نتبين ماعليه علاقاتها مع بعضها البعض ومع العالم الخارجى . ومعنى ذلك : فيما يتصل بالأنا ، أن نتقصى مضموناتها ، وحدودها ، ووظائفها ، وأن نتبين تلك التأثيرات ، من جانب العالم الخارجى والهو والأنا العليا ،

---

(١) راجع لشرح هذا المصطلح وغيره من المصطلحات التى ستأتى فى الصفحات التالية كتابى فرويد : « حياتى والتحليل النفسى » و « الموجز فى التحليل النفسى » بمطبعة المعارف بمصر [مجموعة المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى] .

التى اضطلعت بتشكيل الأنا؛ وفيما يتصل بالهو ، أن نقدم وصفا للغرائز أى المضمونات الهو ، وأن نتتبعها فى تحوراتها التى تطرأ عليها .

الهو والأنا والأنا العليا فى إدراك الذات :

كلنا نعرف أن المنظمات النفسية الثلاث تتباين كثيراً من حيث إنفتاحها للملاحظة . فمعرفتنا عن الهو — هذا الذى كان يسمى من قبل جهاز اللاشعور (ل)[1] — لا يمكن البلوغ إليه إلا عن طريق المشتقات التى تشق طريقها إلى داخل جهازى قبل الشعور (ق) والشعور (ش). فإذا ماسادت داخل الهو حالة من الهدوء والإشباع ، بحيث لا تكون هناك فرصة لأية حفزة غريزية أن تغزو الأنا سعياً إلى الإشباع حيث تولد فيها مشاعر من التوتر و « الألم »[2] ، فلن نستطيع أن نعرف شيئاً مضمونات الهو . ويترتب على ذلك ، من الناحية النظرية على الأقل ، أن الهو ليس فى كل الظروف ، منفتحا الملاحظة .

ويختلف الأمر بالطبع فى حالة الأنا العليا . فمضموناتها فى معظمها شعورية ، ومن ثم يمكن البلوغ إليها مباشرة بإدراك نفسى داخلى . ومع ذلك فإن تصورنا عن الأنا العليا ينزع إلى أن يكون غير واضح عندما تكون العلاقات متناغمة بينها وبين الأنا . فعندئذ نقول إنهما يتحدان ، بمعنى أن الأنا العليا لا تكون فى مثل هذه اللحظات متاحة للادراك كمنظمة قائمة برأسها ، سيان بالنسبة إلى الشخص نفسه أو إلى شخص يضطلع بالملاحظة من خارج . فحدودها لا تتضح إلا عندما تتجابه مع الأنا بالعدائية ، أو على الأقل بالنقد . فالأنا العليا ، شأنها شأن الهو ،

---

(١) [ل = لاشعور Ucs ؛ ق = قبلشعور Pcs ، ش = شعور Cs — هامش الترجمة العربية .]

(٢) [كلمة « الألم » pain هنا هى ترجمة الكلمة الألمانية Unlust التى تشير إلى النقيض « اللذة » Lust . — هامش الترجمة الانجليزية] .

تصبح منفتحة للادراك من خلال تلك الحالة التى تولدها داخل الأنا : من قبيل ذلك عندما تستثير بنقدها حالة من شعور الإثم .

الأنا من حيث هي قائمة بالملاحظة :

وإذن فمعنى ذلك أن حقل ملاحظتنا بمعنى الكلمة هو دائما أبداً الأنا فهى ، إن جاز التعبير ، الوسيط الذى من خلاله نحاول أن نبلغ إلى تصور عن المنظمتين الآخريين .

فعندما تكون العلاقات بين القوتين المتجاورتين — الأنا والهو — علاقات سلمية ، فإن الأنا تضطلع ، بشكل يدعو إلى الإعجاب ، بدورها فى ملاحظتها للهو . فثمة حفزات غريزية مختلفة تجاهد دائما كيما تشق طريقها من الهو إلى داخل الأنا ، حيث تبلغ هناك إلى الجهاز الحركى ، فتصل عن طريقه إلى الإشباع . وفى الحالات المواتية لا تعترض الأنا سبيل الدخيل ، بل تضع كل طاقاتها تحت تصرفه ، قانعة بالإدراك ، فهى تلاحظ انبثاق الحفزة الغريزية ، وتصاعد التوتر ، وما يصاحبه من مشاعر « الألم » ، وأخيراً التخفف من التوتر عندما يعاش الإشباع . وملاحظة هذه العملية كلها تزودنا بصورة واضحة وغير محرفة عن الحفزة الغريزية المعنية ، وكمية الليبيدو المشحونة بها ، والهدف الذى تتجه إليه . فالأنا متى ارتضت الحفزة ، لا تدخل ضمن الصورة على الإطلاق .

ولكن لسوء الحظ فإن إنتقال الحفزات الغريزية من منظمة إلى الأخرى يمكن أن يكون إشـــارة تنذر بكل أشكال الصراعات ، مع ما يتمخض عنه ذلك بالضرورة من تعطل الأنا عن ملاحظة الهو . فحفزات الهو فى طريقها إلى الإشباع يتحتم عليها أن تمر فى أرض الأنا

حيث تكون فى مناخ غريب . وفى الهو تهيمن العملية المسماة « العملية الأولية » ، فليس هنالك ائتلاف بين الأفكار ، والوجدانات متاحة النقل ، والمتناقضات لا يستبعد بعضها بعضاً بل يمكن حتى أن تتحد ويحدث التكثيف بطبيعة الحال والمبدأ المهيمن الذى يحكم العمليات النفسية هنا هو مبدأ الحصول على اللذة . أما فى الأنا ، على العكس ، فان ترابط الأفكار يخضع لشروط صارمة نطلق عليها ذلك المصطلح الشامل « العملية الثانوية » ؛ فالحفزات الغريزية لم يعد بوسعها أن تسعى إلى الإشباع بغير ضجيج — فهى مطالبة بأن تحترم مطالب الواقع ، وأكثر من ذلك بأن تلتزم بقوانين الاخلاق المتعارف عليها ، هذه التى تسعى الأنا العليا عن طريقها إلى ضبط سلوك الأنا . ومن ثم فإن هذه الحفزات تخاطر بتوليد الكدر فى المنظمتين الأخريين اللتين هما بصفة أساسية غريبتين عنها . فهذه الحفزات تتعرض للنقد والرفض ، ويتحتم عليها أن تكابد كل أشكال التعديل . فالعلاقات السلمية بين المنظمات المتجاورة قد انتهت . فالحفزات الغريزية تستمر تواصل السعى إلى أهدافها بما يطبعها من عناد وحيوية ، وتقوم بغزوات عدائية داخل الأنا ، بأمل أن تدحرها بهجمة مفاجئة . والأنا من جانبها تصبح مرتابة ، فتشرع فى هجوم مضاد وفى غزو أرض الهو . وهدف الأنا من ذلك هو أن تعطل الغرائز بصفة دائمة عن الفعل وذلك عن طريق إجراءات دفاعية ملائمة ، محسوبة بحيث تؤمن لها حدودها .

والصورة التى تصلنا عن هـــذه العمليات من خلال قدرة الأنا على الملاحظة هى أكثر غموضاً ، ولكنها فى نفس الوقت أعظم بكثير فى قيمتها فهى ترينا منظمتين نفسيتين وهما تعملان فى لحظة واحدة وبعينها . لم نعد نرى حفزة « الهو » غير محرفة ، بل حفزة الهو وقد تحرفت بفعل إجراء

دفاعى من جانب الأنا . ومهمة المحلل القائم بالملاحظة هى أن يشطر الصورة ، التى تمثل فى الواقع مصالحة بين منظمات منفصلة ، إلى عناصرها المكونة : الهو والأنا وربما الأنا العليا .

غزوات الهو والأنا من حيث هى مادة للملاحظة :

فى كل ذلك يستلفت انتباهنا أن الغزوات من جانب أو من الآخر ليست بحال متساوية القيمة من زاوية الملاحظة . فكل إجراءات الأنا الدفاعية ضد الهو تتم فى صمت وخفية . وأقصى ما يمكن أن نفعله هو أن نعيد بناءها بطريقة رجوعية : فنحن فى الواقع لا نستطيع قط أن نشهدها وهى تعمل . وهذه العبارة تصدق مثلا على الكبت الناجح . فالأنا لا تعرف شيئاً عن هذا الكبت الناجح . ونحن لا نتبينه إلا فيما بعد ، عندما يغدو من الواضح أن شيئا ما يتغيب . وإنى أعنى بذلك أننا عندما نحاول تكوين حكم موضوعى عن شخص بعينه ، فإننا نتبين أن حفزات بعينها من الهو متغيبة ، وكنا نتوقع أن تظهر فى الأنا حيث تواصل سعيها إلى الإشباع . فإذا لم تنبثق هذه الحفزات على الإطلاق ؛ فكل ما نستطيعه هو أن نفترض أن دخولها إلى الأنا يعانى الرفض بصفة دائمة بمعنى أنها وقعت تحت الكبت . ولكن هذا لا يزودنا بأى معرفة عن عملية الكبت ذاتها .

ويصدق نفس الأمر على التكوين المضاد الناجح ؛ الذى هو واحد من أهم الإجراءات الدفاعية التى تتبناها الأنا حماية دائمة ضد الهو . مثل هذه التكوينات غالبا ما تظهر — أثناء نمو الطفل — دون إعلان فى الأنا وليس بوسعنا دائما أن نقول أن انتباه الأنا كان قد سبق له أن تركز على الحفزة الغريزية المضادة بالذات ؛ والتى يحل محلها التكوين المضاد . فكقاعدة

عامة ؛ لا تعرف الأنا شيئا عن رفض الحفزة أو عن الصراع برمته الذى تمخض عن إنزراع الخاصية الجديدة . وكان يمكن للمحللين أثناء الملاحظة أن ينساقوا فى يسر إلى اعتبار هذه الخاصية نمواً تلقائيا للانا ؛ لو لم تكن تلك العلامات القاطعة على المغالاة القهرية ؛والتى توحى بأن هذه الخاصية هى من طبيعة رد الفعل ، وبأنها تخفى وراءها صراعا طويل الأمد . وهنا أيضاً ، فإن ملاحظة الأسلوب الدفاعى المعنى لا تكشف بحال عن شىء من العملية التى نشأ عنها .

ونلاحظ أن كل معرفة هامة حصلنا عليها إنما كان بلوغنا إليها بدراستنا للغزوات من الجانب المضاد . وعلى التحديد من الهو إلى الأنا . وغموض الكبت الناجح لا تعدله إلا شفافية العملية الكابتة عندما تنعكس الحركة أى عندما تعود المادة المكبوتة ، على نحو ما يمكن ملاحظته فى العصاب فنى هذه الحاله يكون بوسعنا أن نتقصى كل مرحلة فى الصراع بين الحفزة الغريزية ودفاع الأنا . وبالمثل فان التكوين المضاد يمكن دراسته على خير نحو عندما تكون مثل هذه التكوينات بسبيل التفكك . فى مثل هذه الحالة تتخذ غزوة الهو شكل تعزيز للشحنة الليبيدية الخاصة بالحفزة الغريزية الأصلية ، هذه التى يحجبها التكوين المضاد . ففى ذلك ما يكن الحفزة من أن تشق طريقها إلى الشعور ، وعندئذ فان الحفزة الغريزية والتكوين المضاد يكونان ، لفترة ما ، متاحين كليهما للملاحظة جنبا إلى إلى جنب داخل الانا .

وبالنظر إلى وظيفة أخرى للانا — وهى نزعتها إلى إقامة ائتلافات — فان هذا الوضع للامور ، والذى يعد مواتيا بصفة خاصة للملاحظة التحليلية لا يدوم فى المرة الواحدة إلا لحظات قصيرة . ثم ينشأ صراع جديد

بين مشتق الهو ونشاط الانا ، وهو صراع من شأنه أن يبت أى الاثنين تكون له اليد العليا ، أو أية مصالحة ينتهيان إليها . فاذا استطاع الدفاع الذى أقامته الانا ، من خلال تعزيز لشحنة نشاطه ، أن ينجح ، فان القوة الغازيه للهو تنهزم ، ويسود السلام من جديد داخل النفس — وهو موقف أعظم مايكون عدم ملاءمة لملاحظتنا .

الفصل الثانى

تطبيق فنيات التحليل فى دراسة المنظمات النفسية

قدمت فى الفصل الأول وصفاً للشروط التى كان يتحتم بوجبها أن تسير الملاحظة التحليلية للعمليات النفسية . وأنتوى فى هذا الفصل أن أقدم وصفا للطريقة التى تلاءمت بها مع هذه الشروط فنياتنا فى التحليل على نحو ما صارت إليه .

فنية التنويم المغناطيسى فى فترة ما قبل التحليل :

فى فنية التنويم المغناطيسى فى فترة ماقبل التحليل كان دور الأنا ما يزال سالبا تماما . كان هدف المنوم هو أن يبلغ إلى مضمونات اللاشعور وكان ينظر إلى الأنا على أنها فحسب عامل إزعاج لعمله . كان من المعروف بالفعل عندئذ أنه من الممكن بواسطة التنويم إستبعاد أنا المريض أو على أى حال التغلب عليها . كانت السمة الجديدة للفنيـة التى جاء وصفها فى كتاب « دراسات فى الهستيريا » هى كما يلى : إن الطبيب يستفيد من استبعاد الأنا كيما يبلغ إلى لا شعور المريض — وهو ما يعرف الآن بالهو — الذى كان الطريق إليه حتى ذلك الحين تغلقه الأنا . وهكذا كان الهدف المنشود هو الكشف عن اللاشعور ، كانت الأنا عامل إزعاج وكان التنويم وسيلة للتخلص منها مؤقتا .

وعندما كانت تخرج إلى الضوء فى التنويم قطعـــة من المادة اللاشعورية[1] ، كان الطبيب يقدمها إلى الأنا ، وكانت نتيجة إكراهها

---

(١) [فى الترجمة الأنجليزية : « قطعة من المادة الشعورية » . ولكن يتضح من السياق أن المعنى لا يستقيم إلا إذا كان التعبير « قطعة من المادة اللاشعورية » — هامش الترجمة العربية] .

على الدخول إلى الشعور على هذا النحو هى إزالة العرض . ولكن الأنا لم تكن تضطلع بأى دور فى العملية العلاجية . كانت الأنا تتسامح مع الدخيل فقط طالما ظلت هى نفسها تحت تأثير الطبيب الذى تأدى بها إلى التنويم . وبعدئذ كانت تتمرد وتشرع فى نضال جديد لتدافع عن نفسها ضد هذا الدخيل من الهو الذى أقحم عليها ، وبذلك فإن النجاح العلاجى الذى كان مضنيا فى إنجازه ، يذهب هباء . وهكذا فإن أعظم انتصار لفنية التنويم المغناطيسى — هو الإستبعاد التام للأنا أثناء فترة التقصى — قد تكشف ضارا بالنسبة إلى النتائج الدائمة ، وبدأ يتبدد الوهم فيما لفنية التنويم من قيمة .

التداعى الطليق :

وحتى فى التداعى الطليق — وهو الطريقة التى حلت منذ ذلك الحين محل التنويم كوسيلة تعين على التقصى — فإن دور الأنا يظل فى البداية دوراً سالباً . صحيح أن أنا المريض لم تعد تعانى الاستبعاد على الرغم منها . ولكنها ، بدلا من ذلك ، يطلب منها أن تستبعد نفسها ، أن تحجم عن النظرة النقدية فى التداعيات ، وأن تتغاضى عن مقتضيات الترابط المنطقى ، هذه التى تعتبر مشروعة فى أوقات أخرى . فما يطلب من الأنا هو فى الواقع أن تصمت ، بينما يدعى الهى إلى أن تتحدث ويوعد بأن مشتقاتها سوف لا تصطدم بالعقبات المألوفة إن هى انبثقت فى داخل الشعور . وبطبيعة الحال فإن الهى لا توعد أبداً بأن مشتقاتها ، حين تنبثق فى الأنا ، سوف تبلغ إلى هدفها الغريزى ، كائنا ما كان هذا الهدف . فالوعد لا يصدق إلا على أن ترجمتها إلى أفكار فى كلمات : فهو لا يخول لها أن تهيمن على الجهاز الحركى ، الذى هو الهدف الحقيقى من انبثاقها فالواقع هو أن هذا الجهاز الحركى يوضع مقدما خارج نطاق الفعل بالقواعد الصارمة لفنية التحليل . وهكذا يكون علينا أن نقوم بلعبة

مزدوجة مع الحفزات الغريزية للمريض،فمن ناحية نشجعها على أن تفصح عن نفسها ، ومن ناحية أخرى نرفض بشكل قاطع إشباعها — ومن جراء ذلك فإن هذا الاجراء يتمخض عن إحدى الصعوبات العديدة فى المضى بفنية التحليل .

وحتى فى أيامنا هذه ، فإن كثرة من المحللين المبتدئين يعتقدون بأنه من الأساسى أن ينجحوا فى حمل مرضاهم ، فى الواقع ودائماً أبداً ، على أن يقدموا كل تداعياتهم دون ما تعديل أو كف، بمعنى أن يطيعوا دون تردد القاعدة الأساسية للتحليل . ولكن حتى لو تحقق هذا المثل الأعلى فلن يمثل ذلك تقدما ، إذ يكون معنى ذلك ببساطة فى نهاية الأمر العودة من جديد إلى ذلك الموقف الذى غدا الآن مهجوراً ، موقف التنويم ، بما ينطوى عليه من تركيز وحدانى الجانب من الطبيب على الهو . ومن حسن حظ التحليل أن مثل هذه السهولة فى الإنقياد من جانب المريض مستحيلة فى فى الواقع العملى . فالقاعدة الأساسية لا يمكن بحال اتباعها فيما وراء نقطة بعينها . تظل الأنا صامتة فترة من الوقت ،وتستفيد مشتقات الهو من هذا الصمت كيما تشق طريقها داخل الشعور . ويسارع المحلل إلى الإمساك بما تنطق به هذه المشتقات. عندئذ تتحرك الأنا من جديد ، رافضة إتجاهها المتسامح السلبى الذى كانت مرغمة على إتخاذه ،فتتدخل ، عن طريق واحد أو آخر من ميكانيزمات دفاعها المألوفة ، فى سيل التداعيات . وهكذا ينتهك المريض القاعدة الأساسية للتحليل، أو، كما نقول،يقيم «المقاومات» ومعنى هذا أن غزوة الهو فى داخل الأنا قد أدت إلى هجمة مضادة من جانب الأنا ضد الهو. وعندئذ يتحول الملاحظ بانتباهه من التداعيات إلى المقاومات ، أى من مضمون الهو إلى نشاط الأنا .وتتاح للمحلل الفرصة تتاح لأن يشهد ، فى التو ، نشاط الأنا هذا وهو يسلط ضد الهو واحداً من تلك الإجراءات الدفاعية ، التى سبق لى وصفها،والتى هى شديدة الغموض

وهو ما يقتضيه الآن أن يتخذ منه موضوعاً للتقصى . وعندئذ يلاحظ المحلل أنه مع هذا التغير فى موضوع التقصى قد تغير الموقف فى التحليل فجأة . فهو فى تحليله للهو تعينه مشتقات الهو ، بنزعتها التلقائيـــة إلى أن تصعد إلى السطح : فجهده وجهاد المشتقات ؛ التى يحاول تحليلها ، يعملان فى نفس الإتجاه . أما فى تحليله للعمليات الدفاعية من جانب الأنا فليس هناك بالطبع مثل هذا الإتفاق فى الهدف . فالعناصر اللاشعورية فى الأنا لا تنزع إلى أن تصبح شعورية، ولا تحقق لنفسها من ذلك أية ميزة لو أنها فعلته . ومن هنا فإن أى جزء من تحليل الأنا يكون أقل مدعاة للرضا بكثير من تحليل الهو . فتحليل الأنا يتحتم عليه أن يجتاز طرقا ملتوية ، فليس بوسعه أن يتبع بشكل مباشر نشاط الأنا ، والإمكانية الوحيدة هى إعادة بناء هذا النشاط إبتداء من تأثيره على تداعيات المريض . فابتداء من طبيعة الأثر الناتج -- سيان كان حذفا،أو قلبا للضد ، أو نقلا للمعنى الخ — تأمل فى الكشف عن نوع الدفاع الذى استخدمته الأنا فى تدخلها ومن هنا فإن مهمـــة المحلل هى قبل كل شىء أن يتعرف على الميكانيزم الدفاعى . فإذا ما فعل ذلك يكون قد أنجز جزءاً من تحليل الأنا . أما مهمته التالية فهى أن يلغى ما أحدثه الدفاع ، بمعنى أن يعثر على ما انحذف بتأثير الكبت فيعيده إلى مكانه ، وأن يصحح النقل ، وأن يعيد من جديد ما كان قد انعزل إلى سياقه الحقيقى ومتى أقام من جديد هذه الارتباطات المنفصمة ، فإنه يتحول بانتباهه من تحليل الأنا عائداً مرة أخرى إلى تحليل الهو .

ومن ذلك نتبين أن ما يعنينا لا ينحصر ببساطة فى الإلزام بالقاعدة الأساسية للتحليل كهدف لذاته بل فى هذا الصراع الذى يتولد عن هذه القاعدة . فعندما تتركز الملاحظة حينا على الهو وحينا على الأنا ، وعندما تكون وجهة الاهتمام مزدوجة، تتجه إلى كلا الجانبين من الكائن البشرى

الماثل أمامنا ، فعندئذ فقط يكون بوسعنا أن نتحدث عن « التحليل النفسي » من حيث هو فنية متميزة عن طريقة التنويم الوحدانية الجانب .

أما الوسائل الأخرى العديدة التي تستخدم في فنية التحليل فيمكن الآن تصنيفها في غير عناء ، تبعاً لما يكون عليه اتجاه الانتباه عند الملاحظ إلى هذا الجانب أو ذاك .

تفسير الأحلام :

إن الموقف عندما نقوم بتفسير أحلام مريضنا هو نفس الموقف عندما ننصت إلى تداعياته الطليقة . فالحالة النفسية للحالم لا تختلف إلا قليلا عن الحالة النفسية للمريض في جلسة التحليل . فالمريض عندما يطيع القاعدة الأساسية للتحليل يعطل طواعية وظيفة الأنا ، أما عند الحالم فهذا التعطيل يتحقق آلياً تحت تأثير النوم . فنحن نجعل المريض يرقد على أريكة التحليل ، حتى لا تكون له أية فرصة لإشباع رغباته الغريزية عندما تنشط ، وبالمثل في النوم فإن الجهاز الحركي يكون في حالة سكون . وتأثير الرقابة ، بمعنى ترجمة أفكار الحلم الكامنة إلى المضمون الظاهر للحلم ، بما ينطوي عليه ذلك من تحريفات وتكثيفات ونقل وقلبات للضد وحذفات ، إنما يناظر التحريفات التي تحدث في التداعيات تحت تأثير بعض المقاومات . ومن هنا فإن تفسير الأحلام يعيننا في تقصينا للهو ، بقدر ما ينجح هذا التفسير في أن يخرج إلى الضوء الأفكار الكامنة للحلم (مضمون الهو) ، كما يعيننا في تقصينا لمنظمات الأنا وعملياتها الدفاعية بقدر ما يمكننا هذا التفسير من إعادة بناء الإجراءات التي اتخذتها الرقابة ابتداء من تأثيرها على أفكار الحلم .

تفسير الرموز :

وثمة نتاج جانبي لتفسير الأحلام، هو على التحديد فهم رموز الأحلام يسهم بشكل كبير فى نجاح دراستنا للهو . فالرموز هى علاقات ثابتة وصادقة دائماً فى كل مكان وزمان بين مضمونات بعينها للهو وأفكار نوعية عن الكلمات أو الأشياء . ومعرفة هذه العلاقات تمكننا من أن نستخلص بشكل يمكن التحويل عليه ، إبتداء من المظاهر الشعورية ، تلك المادة اللاشعورية المتحجبة وراءها، دون أن يكون علينا أن نتجشم أولا العناء فى أن نقلب إلى الضد إجراء تكون الأنا قد اتخذته فى الدفاع . ففنية ترجمة الرموز هى طريق قصيرة إلى الفهم ، أو بعبارة أصح ، هى وسيلة نغوص بها من أعلى طبقات الشعور إلى أعمق طبقات اللاشعور دون أن نتوقف عند الطبقات الوسيطة من الأنشطة السابقة للأنا ، والتى يمكن أن تكون فى وقت مضى قد أرغمت مضمونا بعينه للهو على أن يتخذ شكلا معينا خاصاً بالأنا . إن معرفة لغة الرموز تنطوى فى فهمنا للهو على نفس ذلك النوع من القيمة الذى تنطوى عليه الصيغ الرياضية فى حل المسائل النمطية فمثل هذه الصيغ يمكن إستخدامها بشكل مفيد. وليس مما يهم أن يجهل المرء الطريقة التى تحقق بها فى الأصل البلوغ الى هذه الصيغ . ولكنها وان أعانتنا على حل المسائل الا أنها لا تعيننا على فهم الرياضيات . وبنفس الطريقة يمكننا ، بترجمة الرموز ، أن نكشف عن مضمونات الهو دون أن نبلغ فى واقع الأمر الى فهم سيكولوجى أعمق للفرد الذى نتناوله .

الهفوات[1] .

بين حين وحين تتاح لنا أيضاً وبشكل آخر نظرات خاطفة عن

(١) [Parapraxes ، اسم جنس لأخطاء صغرى فى السلوك من قبيل زلات اللسان وأخطاء القلم واخطاء الذاكرة والأفعال الخاطئة والحوادث الهينة الخ — هامش الترجمة العربية]

اللاشعور ، فى طفحات الهو ، هذه التى تعرف باسم الهفوات . وهذه الطفحات ، كما نعلم ، لا تقتصر على الموقف التحليلى. فمن الممكن أن تحدث هذه الطفحات فى أى وقت عندما يتراخى أو يتشتت ، فى ظروف بعينها تيقظ الأنا ، وتتعزز فجأة (فى ظروف بعينها أيضاً) حفزة لا شعورية . مثل هذه الهفوات ، وخاصة فى صورة زلات اللسان والنسيانات ، يمكن بطبيعة الحال أن تحدث فى التحليل ، وعندئذ تنير ، كما لو كان ببرق خاطف جزءاً من اللاشعور ربما كنا نجاهد منذ وقت طويل لتفسيره بالتحليل . وفى الأيام الباكرة من فنية التحليل كانت سواقط الريح من هذا القبيل موضع الترحيب لما تتيحه من دليل مباشر ولا يمكن دحضه على وجود اللاشعور بالنسبة إلى المرضى الذين كان يغلب عليهم الامتنـــاع على الاستبصار التحليلى . فعندئذ كان يغتبط المحللون لاقتدارهم على التدليل بأمثلة يسهل فهمها ، على مختلف الميكانيزمات، من قبيل ميكانيزمات النقل والتكثيف والحذف . ولكن ، وبصورة عامة، فإن أهمية طفحات الصدفة هذه ، بالنسبة إلى فنية التحليل ، تتضاءل بالقياس إلى تلك الطفحات من الهو ، هذه التى نستجلبها عن قصد لتعين عملنا التحليلى .

التحويل :

إن نفس التمييز النظرى ، بين ملاحظتنا للهو من ناحية وملاحظتنا للأنا من ناحية أخرى ، يمكن إقامته فى حالة ذلك الذى يعد أقوى أداة فى يد المحلل : تفسير التحويل . ونعنى بالتحويل كل تلك الحفزات التى يعيشها المريض فى علاقته بالمحلل والتى لم يستحدثها الموقف التحليلى الموضوعى ، ولكنها ترجع بأصلها إلى علاقات بالموضوع[1] باكرة — هى فى الواقع أبكرها على الإطلاق — ، ويقتصر الأمر على إبتعاثها الآن تحت تأثير قهر التكرار . ونظراً لأن تلك الحفزات هى تكرارات وليست

(١) [العلاقات الموضوعاتية تقابلها العلاقات النرجسية . راجع : فينخل ، نظرية التحليل النفسى فى العصاب — مترجم — الأنجلو — هامش الترجمة العربية .]

استحداثات جديدة فإنها تنطوى على قيمة لا تقدر كسبيل للمعلومات عن التجارب الوجدانية الماضية للمريض . وسوف نرى أن بوسعنا أن نميز طرزاً مختلفة من ظواهر التحويل تبعاً لدرجة تعقدها .

(ا) تحويل الحفزات الليبيدية : أول طرز التحويل هو غاية فى البساطة . فالمريض يجد نفسه مضطربا فى علاقته بالمحلل بسبب انفعالات عاصفه ، من قبيل الحب والكراهية والغيرة والحصر[١] ،وهى إنفعالات لا يبدو أن هناك ما يبررها من وقائع الموقف الفعلى . والمريض نفسه يقاوم هذه الإنفعالات ، ويستشعر الخزى والمذلة وما إلى ذلك عندما تترجم هذه الإنفعالات عن نفسها على الرغم من إرادته . وغالبا مايكون إلحاحنا على القاعدة الأساسية للتحليل هو وحده الذى يمكننا من أن ننجح فى أن نشق لها طريقاً إلى التعبير الشعورى . ويكشف المزيد من التقصى عن الطابع الحقيق لهذه الوجدانات — فهى طفحات للهو . وهى ترجع بأصلها إلى كوكبة وجدانية قديمة،من قبيل عقدة أوديب وعقدة الخصاء وهى تصبح متاحة للفهم ومعقولة فى الواقع عندما نفصلها عن الموقف التحليلى وندمجها ضمن موقف وجدانى طفلى بعينه . وعندما توضع على هذا النحو فى مكانها الصحيح فإنها تعيننا على أن نسد ثغرة نسيانية فى ماضى المريض وتزودنا بمعلومات جديدةعن حياته الطفلية الغريزية والوجدانية وبصورة عامة يكون المريض على أتم إستعداد لموازرتنا فى هذا التفسير ، لأنه هو نفسه يشعر بأن الحفزة الوجدانية المحولة هى جسم غريب دخيل وبوضعنا لهذه الحفزة فى مكانها من ماضى المريض فإننا نحرره من حفزة فى الحاضر غريبة على الأنا عنده ، ومن ثم نمكنه من المضى فى العمل

---

(١) [جرى بعض الكتاب فى مصر على ترجمة ضمة Augst الألمانية Auxiety بالأنجليزية وهى ترجمة غير دقيقة — بكلمة قلق : ولكن الترجمة الحرفيه لكلمة Augst وأصلحها اللاتيق Augustia (ومعناها الضيق)هى كلمة حصر ـ هامش الترجمة العربية]

التحليلى . وينبغى أن نتنبه إلى أن تفسير هذا الطراز الأول من التحويل يعيننا فقط فى ملاحظتنا للهو .

(ب) تحويل الدفاع : ويختلف الأمر عندما نبلغ إلى الطراز الثانى من التحويل . فقهر التكرار ، الذى يهيمن على المريض فى الموقف التحليلى يمتد ليس فقط إلى الحفزات السالفة للهو ، بل يمتد أيضاً وبنفس الدرجة إلى الإجراءات الدفاعية السالفة ضد الغرائز . وهكذا فإن المريض يحول ليس فقط حفزات طفلية وغير محرفة للهو ، وهى حفزات تعانى الرقابة من جانب أنا الراشد من بعد ، وليس قبل أن تشق طريقها إلى التعبير الشعورى ؛ بل يحول أيضاً حفزات للهو بكل تلك الأشكال من التحريف التى تخلقت حين كان ما يزال طفلا . ومن الممكن فى الحالات القصوى أن لا تدخل قط الحفزة الغريزية فى التحويل على الإطلاق ، بل يدخل فحسب الدفاع النوعى الذى كانت الأنا قد اتخذته ضد اتجاه موجب أو سالب لليبيدو ، وذلك من قبيل استجابة الهروب من تثبيت عشق موجب فى الجنسية المثلية الأنثوية الكامنة ، أو من قبيل الاتجاه المازوشى الأنثوى الإذعانى ، هذا الذى نبه ولهلم رايخ إلى وجوده عند المرضى من الذكور الذين كانت علاقاتهم بآبائهم تتميز ذات يوم بالعدوانية . وفى رأيى أننا نظلم مرضانا أشد الظلم إن نحن وصفنا هذه الاستجابات الدفاعية المطروحة بأنها « تمويه » ، أو قلنا بأن المرضى يسخرون من المحلل — ، أو بأنهم يخدعونه عن قصد بطريقة ما . وسوف نجد فى الواقع أنه من العسير علينا أن نتأدى بهم ، بإصرارنا فى صلابة على القاعدة الأساسية ، أى بالضغط عليهم كيما يكونوا صرحاء سليمى الطوية ، بحيث يكشفوا عن حفزة الهو التى تكمن خبيئة وراء الدفاع على نحو ما يتبدى فى التحويل فالمريض هو فى واقع الأمر صريح سليم الطوية حينما يترجم الحفزة أو الوجدان بالطريقة الوحيدة التى ما تزال مفتوحة أمامه ، أى على التحديد بالإجراء الدفاعى

المحرف . وإنى اعتقد أنه لا يجوز للمحلل فى مثل هذه الحالات أن يحذف كل المراحل الوسيطة التى اجتازتها الغريزة فى تحورها ، أو أن يجاهد بكل ثمن للبلوغ مباشرة إلى الحفزة الغريزية الأولية — هـــذه التى ضدها أقامت الأنا دفاعها — حتى يدخلها إلى شعور المريض. فالطريقة الأصح هى أن نغير بؤرة الانتباه فى التحليل ، فنقلها أولا من الغريزة إلى الميكانيزم النوعى الدفاعى ، أى ننقلها من الهو إلى الأنا . فإذا ما نجحنا فى اقتفاء الطريق الذى سلكته الغريزة فى تحوراتها المختلفة ، يكون الكسب الذى نحرزه فى التحليل مزدوجا . فظاهرة التحويل التى قمنا بتفسيرها تشتمل على جانبين ، يرجع كل منهما فى أصله إلى الماضى : فمن ناحية عنصر ليبيدى أو عدوانى ينتمى إلى الهو ، ومن ناحية أخرى ميكانيزم دفاعى يتحتم أن ننسبه إلى الأنا ، وفى أكثر الحالات تنويراً ، إلى الأنا الخاصة بنفس المرحلة الطفلية التى بزغت فيها لأول مرة حفزة الهو . فنحن لا نقتصر عندئذ على سد ثغرة فى ذاكرة المريض عن حياته الغريزية ، على نحو ما يمكن أيضاً أن نفعل عند تفسيرنا للطراز الأول البسيط من التحويل ، بل نحصل على معلومات نكمل بها ونسد الثغرات فى تاريخ تطور الأنا عند المريض أو بتعبير آخر ، فى تاريخ التحورات التى عانتها غرائزه .

إن تفسير الطراز الثانى من الطرح يزيد فى فائدته على تفسير الطراز الأول ، ولكنه يعد مسئولا عن معظم الصعوبات الفنية التى تنشأ بين المحلل والمريض . فالمريض لا يستشعر الطراز الثانى من استجابة التحويل جسما غريباً ، وليس فى هذا ما يبعث على الدهشة عندما نتأمل عظم الدور الذى تلعبه الأنا — حتى إن كانت أنا السنوات الباكرة — فى إنتاج هذه الإستجابة التحويلية . فليس من اليسير إقناع المريض بالطابع التكرارى لهذا النوع من الظواهر . ذلك أن الصورة التى تنبثق عليهـــا فى شعوره « متناغمة مع الأنا » . فالتحريفات التى تقتضيها الرقابة قد تمت منذ وقت طويل ، ولا تجد أنا الراشد أى سبب يحملها على أن تتخذ موقف الحذر

ضد ظهورها فى تداعياته الطليقة . والمريض عن طريق التعقيل يغمض عينيه ببساطة عن التناقضات بين السبب والنتيجة ، وهى تناقضات جد لافتة للملاحظ ، وتجعل من الواضح أن ليس للتحويل موضوعيا ما يبرره وعندما تتخذ إستجابات التحويل هذا الشكل ، فإنه لا يكون بوسعنا أن نعول على إستعداد المريض للتعاون ، بمثل ما نستطيع عندما تكون الإستجابات من الطراز الأول الذى وصفناه . ففى لمس التفسير العناصر المجهولة فى الأنا، وأنشطتها فى الماضى، فإن هذه الأنا تقف بكليتها معارضة للعمل التحليلى . هنا نجدنا بشكل واضح فى الموقف الذى عادة ما نصفه بهذا المصطلح الذى لا يعد جد موفق وهو « تحليل الخلق »[١] .

ومن الزاوية النظرية، تنقسم الظواهر التى يكشف عنها تفسير التحويل إلى فئتين : مضمونات الهو وأنشطة الأنا ، وهى ظواهر استجلبناها فى الحالتين إلى الشعور . وبالمثل يمكننا تصنيف نتائج التفسير أثناء التداعى الطليق عند المريض : فالتيار الذى لا يتوقف للتداعيات يلقى ضوءاً على مضمونات الهو ، بينما حدوث مقاومة يلقى ضوءا على الميكانيزمات الدفاعية التى تستخدمها الأنا . والاختلاف الوحيد هو أن تفسيرات التحويل لا تنصب إلا على الماضى ، وربما تضىء فى لحظة واحدة فترات بأكملها من حياة المريض الماضية ، فى حين أن مضمونات الهو التى يكشف عنها التداعى الطليق لا ترتبط بأية فترة بعينها ، كما أن عمليات الأنا الدفاعية التى تتبدى أثناء الجلسة التحليلية فى شكل مقاومة للتداعى الطليق ، يمكن أن تنتمى إلى حياته الحالية أيضا .

---

(١) [character—analysis ، وربما يكون من الأفضل استخدام مصطلح « تحليل الشخصية » بدلا من « تحليل الخلق » الذى هو الآن مصطلح مهجور . — هامش الترجمة العربية] .

(ح) المخرجة[1] فى التحويل : وما يزال هناك إسهام هام آخر فى معرفتنا بالمريض يضطلع به شكل ثالث من التحويل . ففى تفسير الأحلام والتداعى الطليق ، وتفسير المقاومة ، وفى شكلى الطرح اللذين وصفناهما حتى الآن ، فان المريض كما نراه يكون دائماً داخل الموقف التحليلى ، أى يكون فى حالة نفسية غير عادية. فالعلاقة بين المنظمتين فيما يتصل بالقوة قد انقلبت رأسا على عقب : فكفة الميزان ترجح لصالح الهو ؛ فى حالة من خلال تأثير النوم ؛ وفى الحالة الأخرى من خلال اتباع القاعدة الأساسية للتحليل . فقوة عوامل الأنا عندما نلتقى بهذه العوامل - سيان فى صورة الرقابة فى الحلم أو فى صورة المقاومة للتداعى الطليق - كانت دائما معطلة ؛ وضئيلة التأثير ؛ وغالباً ما يكون جد عسير علينا أن نتصورها فى أبعادها وفعاليتها الطبيعية . وكلنا نألف ذلك الإتهام الذى لا يندر توجيهه إلى المحللين من أنهم ربما يحصلون على معرفة جيدة عن لا شعور المريض ولكنهم لا يحسنون الحكم على أناه . وربما يكون هناك قدر من الصحة فى هذا النقد ؛ لان المحلل تعوزه فرص ملاحظة أنا المريض بكليتها وهى تعمل .

ولكن من الممكن أن تحدث زيادة فى شدة التحويل ، يتوقف المريض خلالها وإلى حين عن اتباع القواعد الصارمة للعلاج التحليلى ، ويشرع يمخرج ، فى سلوك حياته اليومية ، الحفزات الغريزية والإستجابات الدفاعية على السواء ، وهى التى تتجسد فى وجداناته المحولة . ذلك ما يعرف بالمخرجه فى التحويل — وهى عملية ، إذا شئنا الدقة ، تكون فيها حدود التحليل قد تم بالفعل تخطيها . إنها عملية من زاوية المحلل تتيح له أن

(١) acting والمقصود كما يتضح من السياق acting-out بمعنى « المخرجة » وهى تعنى أساسا « التحويل الى الخارج فى صورة أفعال » بحيث يخرج السلوك الخاص بموقف قديم وذلك استجابة لموقف حالى يشبه فى دلالته الرمزية الموقف الأول . — هامش الترجمة العربية] .

يستنير ، من حيث أن البنية النفسية للمريض تتكشف من خلالها بصورة آلية فى أبعادها الطبيعية . ومتى نجحنا فى تفسير هذه « المخرجة » يكون بوسعنا أن نقسم أنشطة التحويل إلى عناصرها المكونة ، ومن ثم نتبين الكمية الفعلية للطاقة التى تقـــدمها ، فى تلك اللحظة بالذات ، المنظمات المختلفة . وفى تعارض مع الملاحظات التى نقوم بها أثناء التداعيات الطليقة للمريض ، فإن هذا الموقف يكشف لنا عن كمية الطاقة المطلقة والنسبية التى تسهم بشكل طبيعى كل منظمة .

وعلى الرغم من أن تفسير هذه المخرجة فى التحويل يزودنا فى مثل هذه الحالة باستبصار لا يخلو من قيمة ، فإن الكسب العلاجى عادة مايكون ضئيلا . فاستجلاب اللاشعورى إلى الشعور ، وممارسة تأثير علاجى على العلاقات بين الهو والأنا العليا كلاهما يتوقفان بشكل واضح على الموقف التحليلى ، هذا الذى يتم استحداثه بطريقة مصطنعة،ومايزال يشبه التنويم المغناطيسى من حيث أن نشاط منظمات الأنا يتقلص . وطالما استمرت الأنا تمارس وظائفها فى حرية ، أو طالما كانت الأنا تتحالف مع الهو وتنفذ ببساطة أوامرها ، فليست هناك إلا فرصة ضئيلة للنقل داخل النفس وللتأدى بالأنا إلى الانفتاح للتأثير من الخارج ومن هنا فإن هذا الطراز الثالث من الطرح ، والذى نسميه « المخرجة » ، يعد بالحرى أكثر عسراً على التناول من جانب المحلل حتى بالقياس إلى طراز التحويل الخاص بالأساليب المختلفة للدفاع . ومن الطبيعى أن يحاول المحلل تقييده ماأمكن عن طريق التفسيرات التحليلية التى يقدمها والتحريمات غير التحليلية التى يفرضها .

العلاقة بين تحليل الهو وتحليل الأنا :

شرحت فى كثير من التفصيل كيف أن ظواهر التحويل تتدرج

تحت ثلاثة أصناف: تحويل النزعات الليبيدية ، وتحويل الإتجاهات الدفاعية والمخرجة فى التحويل وكان هدفى من ذلك أن أبين أن الصعوبات الفنية فى التحليل تكون أقل نسبيا عندما يتصل الأمر باستجلاب مشتقات الهو إلى الشعور ، وأن هذه الصعوبات تبلغ ذروتها عندما يكون علينا أن نصارع العناصر اللاشعورية للأنا . ويمكن التعبير عن ذلك بشكل أفضل كما يلى : إن الصعوبة لا تكمن فى فنية التحليل من حيث هى كذلك فهذه الفنية ليست أقل صلاحية لاستجلاب الجانب اللاشعورى من الأنا إلى الشعور منها لاستجلاب الجانب اللاشعورى من الهو أو من الأنا العليا إلى الشعور . كل ماهناك أننا نحن المحللين أقل ألفة بصعوبات تحليل الأنا بالقياس إلى ألفتنا بصعوبات تحليل الهو . فنظرية التحليل النفسى قد أقلعت عن القول بمطابقة تصور الأنا لجهاز الشعور الإدراكى ، بمعنى أننا قد تبينا الآن أن أجزاء كبيرة من منظمات الأنا هى نفسها لاشعورية ، وتتطلب معونة التحليل كيما تصبح شعورية . ونتيجة ذلك هو أن تحليل الأنا قد اكتسب فى نظرنا أهمية أكبر بكثير . فكل شىء يأتى من جانب الأنا هو مادة لا تقل فى أهميتها عن مشتق الهو . وليس من حقنا أن نعتبره مجرد إزعاج لتحليل الهو . ولكن أى شىء يأتى من جانب الأنا هو أيضاً بطبيعة الحال مقاومة بكل معنى الكلمة : إنه قوة تتجه ضد انبثاق اللاشعورى ومن ثم ضد عمل المحلل . ومانطمح إليه هو أن نتعلم كيف نتناول تحليل أنا المريض ، حتى على الرغم من أن هذا التحليل يتحتم عليه أن يمضى ضد إرادة الأنا ، وذلك على الاقل بخطى لا تقل ثباتا عن تحليلنا للهو عنده .

وحدانية الجانب فى فنية التحليل والصعوبات التى تؤدى إليها :

نتبين مما سبق أننا إذا كرسنا انتباهنا للتداعيات الطليقة لمرضانا ، وللافكار الكامنة لأحلامهم ، والترجمة الرموز ومضمونات التحويل ،

سيان فى صور أخاييل أو مخرجات ، فسوف نحرز تقدما فى تقصينا للهو ، ولكن التحليل يكون وحدانى الجانب . ومن ناحية أخرى فان دراستنا للمقاومات ، ولعمل رقابة الحلم ، ومختلف الاساليب المحولة من الدفاع ضد الحفزات الغريزية والاخاييل ، سوف تعيننا فى تقصينا للأنشطة المجهولة للأنا والأنا العليا ؛ ولكن هذه الطريقة هى الاخرى وحدانية الجانب . وإذا كان صحيحا أن ائتلافا من هذين الاسلوبين المتقصى ، دون ماانحياز لأى الاتجاهين ، هو وحده الذى يستطيع أن يزودنا بصورة مكتملة عن الموقف الداخلى عند المريض ، فعندئذ يتحتم أيضاً ، إذا ماأعطينا تفضيلا لطريقة بعينها فى التقصى التحليلى على حساب كل ماعداها ، أن تكون النتيجة المحتومة هى صورة محرفة أو على الاقل ناقصة للشخصية النفسية — صورة زائفة للواقع .

وعلى سبيل المثال فان فنية تكرس نفسها ، بطريقة مانعة فى إسراف لما عداها ، لترجمة الرموز تكون معرضة لخطر أن تخرج إلى الضوء مادة تتألف ، على نحو مانع أيضاً فى إسراف لما عداه ، من مضمونات الهو . وأى شخص يستخدم مثل هذه الفنية يكون بطبيعة الحال ميالا إلى أن يهمل ، أو على الاقل إلى أن يقلل من قيمة ، تلك العناصر اللاشعورية فى منظمات الانا ، والتى لايمكن استجلابها إلى الشعور إلا باحدى الطرائق الاخرى المتاحة لنا فى التحليل . وربمايحاول البعض تبرير مثل هذه الفنية بقولهم بأن ليست هناك فى الواقع من حاجة بالتحليل إلى أن يسلك هذا الطريق الملتف ماراً بالأنا ، مادام بوسع هذا التحليل أن يبلغ مباشرة إلى الحياة الغريزية المكبوتة . إن تحليـــل العمليات الدفاعية اللاشعورية للأنا هو وحده الذى يمكننا من إعادة بناء التحورات التى عانتها الغرائز . فبغير معرفة بهذه التحورات قد يكون بوسعنا فى الواقع ان نستكشف الكثير عن مضمونات الاخاييـــل والرغبات الغريزية

المكبوتة ، ولكننا لن نعرف إلا القليل ، أو لن نعرف شيئاً على الإطلاق عن التحورات التى مرت بها هذه الاخاييل والرغبات ، وعن الطرائق المختلفة التى تدخل بها فى بنية الشخصية .

كذلك فإن فنية تميل على نحو مسرف فى الاتجاه الآخر ، بحيث تقتصر الصدارة فيها ، بشكل مانع لما عداه ،على تحليل مقاومات المريض تظل هى الأخرى قاصرة فى نتائجها، وإن كان قصورها فى الجانب الآخر فهذه الطريقة سوف تزودنا بصورة عن البنية الكلية لأنا المريض،ولكن عمق واكتمال تحليل الهو عنده تتم التضحية بهما عندئذ .

وكذلك فان نتائج فنية تسرف فى التركيز على التحويل تكون مماثلة. وليس من شك فى أن المرضى ، عندما يكونون فى مثل هذه الحالة من اشتداد التحويل ، والتى تغذيها مثل هذه الطريقة ، يقدمون مادة وفيرة من أعمق طبقات الهو . ولكنهم إذ يفعلون ذلك يتخطون حدود الموقف التحليلى .

فالأنا لم تعد خارج الموقف ؛ فطاقاتها تضاءلت ، وقواها ضعفت ، واتجاهها الخاص بالملاحظة الموضوعية لم يعد له دور إيجابى فيما يجرى فالأنا ممسوكة ، مغلوبة ، مجروفة فى المخرجة . وحتى على الرغم من أنها ، تحت هيمنة قهر التكرار ، تتصرف بكليتها كأنا طفلية ، فان ذلك لا يغير من حقيقة كونها تمخرج بدلا من أن تحلل . ولكن معنى ذلك أن مثل هذه الفنية ، التى نمارسها بآمال عريضة فى البلوغ إلى معرفة أعمق بمرضانا يمكن أن تنتهى ، من الناحية العلاجية ، إلى كل تلك الخيبات فى الأمل ، والتى ينبغى ، من الناحية النظرية ، أن نتوقع حدوثها بطبيعة الحال نتيجة المخرجة فى التحويل .

وكذلك فان فنية تحليل الأطفال ، والتى قمت أنا نفسى بالمنافحة عنها هى مثل طيب على أخطار وحدانية الجانب . فاذا كان يتحتم علينا أن

نتخلى عن التداعى الطليق ، وأن لا نضطلع إلا باستخدام ضئيل لتفسير الرموز ، وأن لا نشرع فى تفسير التحويل إلا فى مرحلة متقــدمة من العلاج ، فان ثلاثة سبل هامة للكشف عن مضمونات الهو وأنشطة الأنا تكون قد انسدت بذلك أمامنا . وعندئذ يبرز هذا السؤال ، الذى انتوى الإجابة عليه فى الفصل التالى : كيف يمكننا أن نعوض عن هذه الأضربة من القصور وأن نتخطى ، على الرغم من كل شىء الطبقات السطحية من الحياة النفسية .

الفصل الثالث

العمليات الدفاعية للأنا باعتبارها موضوعا للتحليل

علاقة الأنا بطريقة التحليل :

إن المناقشات النظرية التفصيلية والمضنية التى أوردتها فى الفصل السابق يمكن ، لأغراض عملية ، إيجازها فى بضع عبارات سهلة .إن مهمة المحلل هى أن يستجلب إلى الشعور ماهو لاشعورى ، بصرف النظر عن المنظمة النفسية التى ينتمى اليها العنصر اللاشعورى . فهو يوجه انتباهه فى مساواة وموضوعية إلى العناصر اللاشعورية فى المنظمات الثلاث جميعها وبعبارة أخرى ، فان المحلل عندما يشرع فى عملية التنوير يتخذ مكانه على التنور مسافة متساوية من الهو والأنا والأنا العليا .

ولكن الوضوح الموضوعى لهذه العلاقة تغيمه — لسوء الحظ ظروف مختلفة . فانعدام الإنحياز عند المحلل لا يجد ما يناظره ، فالمنظمات المختلفة تستجيب لجهوده بطرائق مختلفة . فنحن نعرف أن حفزات الهو ليس لديها فى ذاتها من ميل إلى أن تبقى لاشعورية . فهى بطبيعتها تنزع إلى أن تصعد إلى السطح ، وهى تناضل دائماً كيما تشق طريقها إلى الشعور ، وبذلك تحقق إشباعا او تبعث على الأقل بمشتقات إلى اعلى ، إلى سطح الشعور. وكما سبق ان أوضحت فان عمل المحلل يمضى فى نفس ذلك الاتجاه الصاعد ويدعمه .ومن ثم فان المحلل يتبدى ، بالنسبة إلى العناصر المكبوتة فى الهو فى صورة معين ومحرر .

أما بالنسبة إلى الأنا والأنا العليا فالوضع مختلف . فبقدر ماتجاهد

منظمات الأنا ، بوسائلها الخاصة ، لكبح حفزات الهو ، يتبدى المحلل فى موقفه كمعكر للسلام . فالمحلل أثناء عمله يزيل عمليات الكبت ، هذه التى كان قد تم إنجازها بجهد جهيد ، ويقضى على التكوينات ـ المصالحات[1] ، هذه التى كانت تأثيراتها فى الواقع باثولوجية ولكنهـــا كانت فى شكلها « متناغمة مع الأنا » تماما . فما يستهدفه المحلل من استجلاب اللاشعورى إلى الشعور ، وما تبذله منظمات الأنا من جهود لكبح الحياة الغريزية ، هما أمران متعارضان . ومن ثم ، فيما عدا ذلك القدر الذى يؤدى به إستبصار المريض إلى تحديد الأمور على نحو آخر ، فإن منظمات الأنا تنظر إلى ما يستهدفه المحلل على أنه تهديد لها .

وبحسب الإتجاهات التى أوردناها فى الفصل السابق ، سوف نعتبر علاقة الأنا بالعمل التحليلى ثلاثية الجنبات . فالأنا ، فى اضطلاعها بوظيفة الملاحظة الذاتية ، هذه التى عرضت لها بعض الشىء ، تتحالف مع المحلل ، فهى تضع قدراتها فى هذا الإتجاه تحت تصرفه ، وتنقل إليـه صورة عن المنظمتين الأخريين ترسمها مشتقات هاتين المنظمتين وهى تشق طريقهـا داخل أرض الأنا . والأنا معادية للتحليل من حيث أنها لا يمكن التعويل عليها ، وتنحاز فى ملاحظتها الذاتية ، فهى بينما تسجل وتفضى فى أمانة ببعض الوقائع ، تزيف وترفض وقائع أخرى وتمنعها من أن تخرج إلى الضوء — وهو إجراء يتعارض تماما مع طرائق البحث التحليلى . هذه التى تصر على رؤية كل ما ينبثق دون مفاضلة . وأخيراً فإن الأنا ذاتها هى موضوع للتحليل ، من حيث أن العمليات الدفاعية التى تقوم بهـا الأنا على الدوام يتم بها لا شعوريا ، ولا يمكن استجلابها إلى الشعور إلا بانفاق كبير

---

(١) يقصد بالتكوينات المصالحات Compromise formation ضربا من التسوية بين الرغبة والدفاع كما يحدث ذلك فى أعراض العصاب . هامش الترجمة العربية .

فى الجهد ، على نحو شبيه بما يحدث بصدد النشاط اللاشعورى لأية حفزة غريزية محرمة .

الدفاع ضد الغريزة يكشف عن نفسه كمقاومة :

فى الفصل السابق ، ومن أجل أغراض الدراسة ليس غير ، حاولت أن أقيم تمييزاً نظريا بين تحليل الهو وتحليل الأنا ،هذين اللذين يترابطان بلا انفصام فى ممارساتنا العملية . وما تتمخض عنه هذه المحاولة هو ببساطة تأكيد، من جديد لتلك النتيجة التى تأدينا إليها من ممارساتنا التحليلية ، والتى مؤداها أن كل المعطيات التى تعيننا على تحليل الأنا إنما تظهر فى شكل مقاومة ضد تحليل الهو والوقائع هى من الوضوح بذاتها بحيث يكاد يبدو الشرح ولا داعى له . فالأنا تغدو إيجابية فى التحليل كلما رغبت عن طريق فعل مضاد فى أن تكبح غزوة من جانب الهو . وحيث أن الطريقة التحليلية تستهدف تمكين « الأفكار الممثلة » للغرائز المكبوتة من الدخول إلى الشعور ، أى تستهدف تشجيع تلك الغزوات من جانب الهو ، فإن عمليات الأنا الدفاعية ضدمثل هذه « الأفكار الممثلة » تتخذ بشكل آلى طابع المقاومة الإيجابية ضد التحليل . وما دام المحلل بالإضافة إلى ذلك يستخدم تأثيره الشخصى لضمان اتباع القاعدة الأساسية التى تمكن مثل هذه « الأفكار الممثلة » من أن تنبثق فى تداعيات المريض الطليقة ، فإن الدفاع الذى تقيمه الأنا ضد الغرائز يتخذ شكل المعارضة المباشرة ضد المحلل ذاته . ومن ثم فإن العدائية ضد المحلل وتشديد الإجراءات التى تستهدف منع حفزات الهو من الإنبثاق كلاهما يتحدان بصورة آلية . وعندما ، فى لحظات بعينها من التحليل ، ينسحب الدفاع وتستطيع « الأفكار الممثلة » للغرائز أن تظهر — دون أن يعوقها شىء — فى صورة تداعيات طليقة ، فإن علاقة الأنا بالمحلل يزول عنها الازعاج الذى يأتيها من هذه الناحية .

والإضافة الى هذا الطراز الخاص من المقاومة ، يوجد بالطبع عديد من الأشكال الأخرى الممكنة من المقاومة . فكما توجد المقاومات المعروفة بمقاومات الأنا توجد ، كما نعلم ، مقاومات التحويل التى هى متباينة فى تكوينها ، وكذلك توجد أيضاً تلك القوى المعارضة ، التى من العسير جداً التغلب عليها فى التحليل ، والتى ترجع بأصلها إلى قهر التكرار . وهكذا لا نستطيع القول بأن كل مقاومة هى نتيجة إجراء دفاعى من جانب الأنا ولكن كل إجراء دفاعى من هذا القبيل ضد الهو ، إذا ما برز أثناء التحليل لا يمكن الكشف عنه إلا فى صورة مقاومة ضد عمل المحلل . فتحليل دفاعات الأنا يتيح لنا فرصة طيبة كيما نلاحظ ، وكيما نستجلب إلى الشعور تلك العمليات الدفاعية اللاشعورية للأنا وهى فى خضم عملها .

الدفاع ضد الوجدانات :

وبالإضافة إلى تلك الفرص التى تتيحها لنا الصدامات بين الأنا والغريزة ، ثمة فرص أخرى تتيح لنا أن نلاحظ عن كثب أنشطة الأنا فالأنا ليست فى صراع فقط مع تلك المشتقات للهو التى تجاهد لتشق طريقها داخل أرض الأنا ، كيما تغنم البلوغ إلى الشعور وتحصل على الإشباع . بل إن الأنا تدافع عن نفسها أيضاً ، بما لا يقل حيوية وإيجابية ضد الوجدانات المرتبطة بتلك الحفزات الغريزية . فالمهمة الأولى للأنا عند رفضها مطالب الغريزة ، يتحتم دائماً أن تكون تصفية الموقف مع هذه الوجدانات . فالحب ، والصبابة ، والغيرة ، والهوان ، والألم ، والحداد ، تصاحب الرغبات الجنسية ، والكراهية والغضب ، والحنق ، تصاحب الحفزات العدوانية . فإذا كانت المطالب الغريزية التى ترتبط هذه الوجدانات بها يتحتم أن تطرد ، فإن هذه الوجدانات يتحتم عليها هى الأخرى أن تكابد كل الإجراءات المختلفة التى تلجأ إليها الأنا فى جهودها للسيطرة عليها ، أى

يتحتم عليها أن تكابد التحور . وفى كل مرة يتغير فيها شكل الوجدان ، سيان كان ذلك داخل التحليل أو خارجه ، فمعنى ذلك أن الأنا كانت تعمل ومن ثم تتاح لنا الفرصة لدراسة عمليات الأنا . ونحن نعرف أن مصير الوجدان المرتبط بمطلب غريزى لا يكون ببساطة هـو نفس مصير « الفكرة الممثلة » لهذا المطلب الغريزى . ولكن من الواضح مع ذلك أن أنا واحدة وبعينها لا يمكن أن يكون تحت تصرفها إلا عدد محدود من وسائل الدفاع . ففى فترات بعينها من العمر ، وتبعاً لما تكون عليه بنيتها النوعية ، فإن أنا الفرد تنتقى حينا وسيلة دفاعية ، وحينا وسيلة أخرى — ربما تكون الكبت ، أو النقل ، أو « القلب للضد » الخ — وهذه الوسائل يكون بوسع الأنا أن تستخدمها على السواء فى صراعها مع الغرائز وفى دفاعها ضد إنطلاق الوجدان. فإذا ماعرفنا كيف يحاول مريض بعينه أن يدافع عن نفسه ضد إنبثاق حفزاته الغريزية ، أى إذا ما عرفنا طبيعة الدفاعات المألوفة لأناه ، فإننا نستطيع أن نكون فكرة عن إتجاهه المحتمل من وجداناته المستهجنة . وإذا ما تجلت بوضوح ، عند مريض آخر ، أشكال بعينها من تحور الوجدان من قبيل الكبح التـام للانفعال ، والإنكار ، الخ ، فلن يدهشنا أن يتبنى نفس هذه الوسائل الدفاعية ضد حفزاته الغريزية وضد تداعياته الطليقة . إنها نفس الأنا ، وهى فى كل صراعاتها تنعم بدرجة أو أخرى من ثبات الإتجـاه فى إستخدامها كل وسيلة تجدها تحت تصرفها .

ظواهر الدفاع الدائمة :

وثمة مجال آخر يمكننا فيه أن ندرس عمليات الأنا الدفاعية ، وهو مجال تلك الظواهر التى يشير إليها فلهلم رايخ فى ملاحظاته عن « التحليل

المتساوق للمقاومة »[1] . فالأوضاع البدنية من قبيل التصلب والجمود ، والغرائب الشخصية من قبيل الإبتسامة الثابتة ، والسلوك الأزدرائى أو الساخر أو المتعجرف — كل هذه متخلفات لعمليات دفاعية جد قوية فى الماضى ، انسلخت عن مواقفها الأصلية (صراعات ضد الغرائز أو ضد الوجدانات) وتطورت إلى سمات ثابتة فى الشخصية ، إلى « درع واقية للشخصية » كما يسميها رايخ (Charakterpanzerung) . وعندما تنجح أثناء التحليل فى إرجاع هذه المتخلفات إلى أصلها التاريخى ، فإنها تستعيد حركيتها وتتوقف عن أن تسد علينا بجمودها السبيل إلى العمليات الدفاعية التى تنهمك فيها الأنا فى تلك اللحظة بشكل إيجابى . وحيث أن هذه الأساليب الدفاعية قد أصبحت دائمة ، فإننا لا نستطيع الآن أن نربط انبثاقها واختفاءها بإنبثاق واختفاء مطالب غريزية ووجدانات من الداخل لا ولا بظهور أو تلاشى مواقف غواية ومثيرات وجدانية من الخارج . ومن ثم فإن تحليلها هو عملية مضنية بشكل خاص . وإنى على ثقة من أننا حين نضعها فى الصدارة لا نكون على حق إلا عندما يستحيل علينا أن نتبين أى أثر على الإطلاق لصراع حالى بين أنا وغريزة ووجدان . وكذلك فإننى على ثقة . وبنفس الدرجة ، من أنه ليس هناك ما يبرر قصر مصطلح « وتحليل المقاومة » على تحليل هذه الظواهر الغريبه ، إذ ينبغى أن يصدق على تحليل كل المقاومات .

---

(1) 'Kosquente Widerstandsaanlyes'(consistent analysis of resistance) W. Reich, Characteranalyse, Technik und Grundlangen fur studierende und praktizierende Analytiker, Wien, 1935

وقد ترجم هذا الكتاب الى الإنجليزية بعنوان Character—Analysis مطبعة Orgone Institvte Press New York. 1945.

تكوين الأعراض :

إن تحليل مقاومات الأنا ، تحليل إجراءاتها الدفاعية ضد الغرائز وتحليل التحورات التى تعانيها الوجدانات،يكشف ويستجاب إلى الشعور فى تدفق حى نفس أساليب الدفاع التى نراها فى حالة تحجر عندما نقوم بتحليل « الدرع الواقية الدائمة للشخصية » . فنحن نلتقى بهذه الأساليب الدفاعية على مقاس أكبر ، وأيضاً فى حالة جمود ، عندما نقوم بدراسة تكوين الأعراض العصابية . ذلك أن الدور الذى تلعبه الأنا فى تكوين تلك المصالحات التى نسميها الأعراض ينحصر فى إستخدامها الذى لا يتغير لأسلوب بعينه من الدفاع عندما تجابه مطلبا غريزياً معيناً ،وفى تكرارها لنفس هذا الأسلوب بالضغط فى كل مرة يعود فيها المطلب الغريزى إلى الظهور فى صورته النمطية . ونحن نعرف أن ثمة إرتباطا دائماً بين أعصبة معينة وأساليب معينة من الدفاع ، ومثال ذلك الإرتباط بين الهستيريا والكبت ، والارتباط بين العصاب القهرى وعمليتى العزل والالغاء . ونحن نلتقى بنفس هذا الإرتباط الدائم بين العصاب والميكانيزم الدفاعى عندما نقوم بدراسة أساليب الدفاع التى يستخدمها المريض ضد وجداناته وشكل المقاومة الذى تتخذه أناه . والإتجاه الذى يتخذه فرد بعينه من تداعياته الطليقة أثناء التحليل ، والطريقة التى يسيطر بها — عندما يترك وشأنه — على مطالبه الغريزية . والتى يطرد بها وجداناته المستهجنة ، يمكناننا من أن نستنبط بطريقة قبلية طبيعة تكوين الأعراض عنده . ومن ناحية أخرى فإن دراستنا لتكوين الأعراض عنده تمكننا من أن نستنبط بطريقة بعدية بنية مقاوماته وبنية دفاعه ضد وجداناته وغرائزه . ونحن أكثر ما نكون ألفة بهذه الموازاة فى حالتى الهستيريا والعصاب القهرى ، حيث يتجلى تلك الموازاة بشكل خاص بين تكوين الأعراض عند المريض والأسلوب الذى تتخذه مقاوماته . فتكوين الأغراض عند المرضى الهستيريين فى

صراعهم مع غرائزهم يستند بصفة أساسية إلى الكبت : فهم يستبعدون من الشعور « الأفكار الممثلة » لحفزاتهم الجنسية . وأسلوب مقاومتهم للتداعى الطليق مماثل لذلك. فالمستدعيات التى تصنع الأنا فى موضع الدفاع تطرد ببساطة وكل ما يشعر به المريض هو فجوة فى الشعور . فالمريض ينتابه الصمت ، إذ يحدث فى سيل تداعياته نفس ذلك الإنقطاع الذى حدث فى عملياته الغريزية أثناء تكوين أغراضه . ومن ناحية أخرى فنحن نعرف أن أسلوب الدفاع الذى تتخذه الأنا فى تكوين الأعراض عند العصابى القهرى هو العزل. فهذا الأسلوب ينزع، ببساطة ، الحفزات الغريزية من سياقها ، بينما يستبقى هذه الحفزات فى الشعور . وتبعا لذلك فإن مقاومة مثل هذا المريض تتخذ أسلوبا مباينا . إن المريض القهرى لا ينتابه الصمت ، فهو يتكلم حتى حين يكون فى حالة مقاومة . ولكنه يقطع الوصلات بين تداعياته ، ويعزل الأفكار عن وجداناتها وهو يتكلم . بحيث تبدو تداعياته عديمة المعنى « على مقياس صغير » بقدر ما تبدو أعراضة القهرية عديمة المعنى على « مقاس كبير » .

فنية التحليل والدفاع ضد الغرائز والوجدانات :

فتاة يافعة جاءت إلىّ كيما أحللها بالنظر إلى ما كان يعتريها من حالات قلق حاد كانت تعكر عليها حياتها اليومية وتحول بينها وبين أن تنتظم فى الذهاب إلى المدرسة . وعلى الرغم من أنها جاءت إلىّ لأن أمها استحثتها على ذلك ، إلا أنها لم تكشف عن أى تردد فى أن تتحدث إلىّ عن حياتها سيان فى الماضى أو الحاضر .كان اتجاهها منى وديا وصريحا ؛ ولكنى لاحظت فى كل إدلاءاتها أنها كانت تحرص على أن تتجنب أية إشارة إلى عرضها المرضى . فلم تتحدث قط عن نوبات القلق التى كانت تعتريها فى الفترات الفاصلة بين الجلسات العلاجية . فإذا ما رأت منى إصراراً على استدراج

عرضها المرضى إلى التحليل ، أو رأتنى أقدم تفسيرات لقلقها تستند إلى علامات أكيـــدة فى تداعياتها ، فإن اتجاهها الودى كان يتغير . فى كل مناسبة من هذا القبيل كانت النتيجة هى أن تنهال على بوابل من ملاحظات ملؤها الازدراء والسخرية . وقد فشلت تماما محاولتى للعثور على ارتباط بين اتجاه المريضة منى وعلاقة المريضة بأمها . كانت تلك العلاقة ، فى الشعور وفى اللاشعور كليهما ، مباينة تماما . وأمام هذه التفجرات المتكررة من الازدراء والسخرية وجدت المحللة نفسها ضائعة ، وظلت المريضة فى ذلك الوقت غير متاحة لمزيد من التحليل . ولكن عندما مضى التحليل عميقاً ، تبينا أن هذه الوجدانات لا تمثل استجابة تحويلية بالمعنى الحقيقى للكلمة ، كما لم تكن ترتبط بالموقف التحليلى على الإطلاق . وكانت هذه الوجدانات تمثل الاتجاه العادى للمريضة من نفسها كلما أوشكت أن تنبثق ، فى حياتها الانفعالية ، مشاعر الحنان أو الصبابة أو القلق . وبقدر ما كان يشتد الوجدان فارضا نفسه عليها ، كانت سخريتها من نفسها تزداد عنفا ومرارة . وقد اجتذبت المحللة إلى نفسها هذه الاستجابات الدفاعية بشكل ثانوى ليس غير ، وذلك لأنها كانت تستحث مطالب القلق عند المريضة على أن تكون موضع تناول فى الشعور . وتفسير مضمون القلق ، حتى حين يكون من الممكن استنباط هذا المضمون على نحو صحيح ابتداء من إدلاءات أخرى ، لم يكن بوسعه أن يتمخض عن شىء ، طالما أن كل اقتراب من الوجـــدان لم يكن من شأنه إلا أن يزيد من شدة استجابتها الدفاعية . كان من المستحيل أن نجعل هذا المضمون شعوريا إلا بعد أن نستجلب إلى الشعور — ومن ثم نعطل عن العمل أسلوب المريضة فى الدفاع عن نفسها ضد وجداناتها بازدراء تحقيرى — تلك العملية التى غدت آلية فى كل جانب من حياتها . فمن الناحية التاريخية كان هذا الأسلوب الدفاعى بالسخرية والتأنيب يجد ما يفسره فى مطابقتها مع أبيها الميت ، هذا

الذى كان من عادته أن يدرب البنت الصغيرة على ضبط النفس عن طريق ملاحظاته الساخرة عندما كانت تستسلم لتفجر انفعالى . وقد أصبح هذا الأسلوب نمطيا عندها من خلال ذكراها عن أبيها ، هذا الذى كانت تحبه فى إعزاز. كانت الفنية الضرورية لفهم هذه الحالة تنحصر فى البدء بتحليل دفاع المريضة ضد وجداناتها ،ثم المضى إلى استجلاء مقاومتها فى التحويل. عندئذ ، وعندئذ فقط ، يغـــدو من الممكن الشروع فى تحليل قلقها ذاته والأسباب التى أدت إليه .

ومن زاوية فنية التحليل ، تعتبر هذه الموازاة بين دفاع المريض ضد غرائزه وضد وجداناته من ناحية ، وبين تكوين أعراضه ومقاومته من ناحية أخرى ، ذات أهمية بالغة ، وخاصة فى تحليل الأطفال . فأبرز النقائص فى فنيتنا عند تحليل الأطفال ينحصر فى تغيب التداعى الطليق. فالعمل فى غيبة هذا التداعى الطليق أمر جد عسير ، وذلك ليس فقط لأننا نعتمد أعظم مانعتمد على تلك « الأفكار الممثلة » لغرائز المريض، والتى تنبثق فى التداعيات الطليقة ، فى فهمنا للهو عنده ففى نهاية الأمر ، ثمة وسائل أخرى للحصول على معلومات عن حفزات الهو . فالأحلام ، وأحلام اليقظة عند الأطفال ، ونشاط خيالهم فى اللعب ، ورسومهم ، وما إلى ذلك ، كلها تكشف عن نزعات الهو عندهم على نحو أكثر شفافية ويسرا فى الوصول إليه ، بالقياس إلى ماعليـــه الأمر عادة فى حالة الراشدين ، وكلها غالبا ما يمكن أن تنوب عن ذلك الانبثاق لمشتقات الهو فى التداعى الطليق . ولكننا عندما نستغنى عن القـــاعدة الأساسية فى التحليل ، فإن الصراع الخاص باتباع هذه القاعدة يختفى هو الآخر ، وهو الصراع الذى نستمد منه معارفنا عن مقاومات الأنا عند تحليلنا للراشدين- أى معارفنا عن عمليات الأنا الدفاعية ضد مشتقات الهو . ومن هنا فثمة

خطر فى أن يزودنا تحليل الأطفال بمعلومات ثرية عن الهو ولكن بمعلومات هزيلة عن الأنا الطفلية .

وفى فنية اللعب التى تنافح عنها المدرسة الانجليزية لتحليل صغار الأطفال[١] ، فإن تغيب التداعى الطليق يتم التعويض عنه بطريقة مباشرة إلى أقصى حد . فالمحللون من أصحاب هذه المدرسة يذهبون إلى أن لعب الطفل يكافىء تداعيات الراشد ، وهم يفيدون من ألعـــابه لأغراض التفسير بنفس الطريقة تماما . إن السيل المتدفق من التداعيات يناظر المضى فى غير توقف للألعاب ؛ وإن التوقفات والكفوف فى اللعب تكافىء الانقطاعات فى التداعى الطليق . ويترتب على ذلك أننا إذا ما حللنا توقفات اللعب فإننا نكشف عن أنها تمثل إجراءات دفاعية من جانب الأنا ، شبيهة بالمقاومة فى التداعى الطليق .

فإذا ما كنا لاعتبارات نظرية ، من قبل أن نستشعر شيئاً من التردد فى أن نعتصر تفسير الرموز إلى أقصى حد ، لا نستطيع تقبل هذا التكافؤ التام بين التداعى الطليق واللعب ، فإنه يتحتم علينا أن نفتش عن طرائق فنية جديدة بديلة فى تحليل الأطفال كيما تعيننا فى تقصينا للأنا . وإنى لاعتقد بأن تحليل التحورات التى تعانيها وجدانات الطفل يمكن أن يسد الثغرة . فالحياة الوجدانية للأطفال هى أقل تعقداً وأكثر شفافية من الحياة الوجدانية للراشدين ؛ فبوسعنا أن نتبين هذا الذى يثير الوجدانات عند الأطفال ، سيان فى داخل الموقف التحليلى أو خارجه . فالطفل يتنبه إلى العناية التى تبذل لآخر بأكثر مما تبذل له ؛ عندئذ نقول بأنه لا مفر

---

(١) المقصود بالمدرسة الإنجليزية هو المحللة ميلانى كلين وأتباعها . هامش الترجمة العربية .

من أنه سوف يستشعر الغيرة والهوان . ورغبة طال تمنيها لديه تتحقق؛ فنقول بأن لابد وأن يكون تحققها قد أحدث عنده بهجة . وهو يتوقع أن يعاقب ؛ فنقول بأنه لابد يستشعر القلق . ولذة كان يتوقعها أو أخذ وعداً بها تتعرض فجأة للتأجيل أو الرفض ؛ فنقول بأن لابد وأن تكون النتيجة أن يشعر بخيبة الأمل ، وهكذا . ونحن نتوقع من الأطفال فى العادة أن يستجيبوا لمثل هذه الوقائع بهذه الوجدانات النوعية . ولكن على عكس ما نتوقع يمكن للملاحظة أن تكشف لنا عن صورة مغايرة تماما . من قبيل ذلك أن الطفل يمكن أن يكشف عن اللامبالاة حيث كنا نتوقع منه أن يشعر بخيبة الأمل، وعن الابتهاج المسرف بدلا من الإحساس بالهوان، وعن الحنان المسرف بدلا من الغيرة . فى كل هذه الحالات لابد وأن شيئاً قد حدث فغير من العملية العادية ؛ لقد تدخلت الأنا وفرضت على الوجدان أن يتحور . إن تحليل هذا الأسلوب النوعى من الدفاع ضد الوجدان واستجلابه إلى الشعور — سيان كان هذا الأسلوب «قلبا للضد» أو نقلا ، أو كبتاً تاماً — من شأنه أن يعلمنا شيئا عن الأسلوب الخاص الذى تتخذه أنا الطفل المعنى ، وأن يمكننا — تماما كتحليل المقاومة — من أن نستنبط اتجاهه من غرائزه وطبيعة تكوين أعراضه . وعليه ، فمن الحقائق التى تنطوى على أهمية خاصة فى تحليل الأطفال أننا فى ملاحظتنا للعمليات الوجدانية ، نكون إلى حد كبير فى غير تبعية للتعاون الإرادى من جانب الطفل ولصدقه أو عدم صدقه فيما يدلى به إلينا . فوجداناته تفضح نفسها على الرغم من إرادته .

وما يلى يوضح ما فرغت الآن من قوله . صبى صغير كان من عادته أن تعتريه نوبات من الحماسة العسكرية كلما سنحت أية فرصة لقلق خصاء كان يرتدى زيا عسكريا ويتسلح بسيف لعبة وأسلحة أخرى . وبعـــد

ملاحظته فى عدة مناسبات من هذا القبيل تبينت أنه كان « يقلب ، قلقه « إلى ضده » ،وعلى التحديد إلى عدوانية. ومنذ ذلك الحين لم أجد صعوبة فى التأدى إلى أن قلق الخصاء يكمن وراء كل نوبات السلوك العدوانى عنده ، هذا إلى أننى لم يدهشنى أن اتبين أنه كان عصابياً قهرياً ، بمعنى أنه كانت لديه فى حياته الفريزية نزعة إلى « قلب » الحفزات المستهجنة « إلى ضدها » . وبنت صغيرة ظهر منها أنها لا تستجيب على الإطلاق لمواقف خيبة الأمل . كل ما كان يمكن ملاحظته ارتعاشة ركن من فمها . وقد كشفت بذلك عن قدرة أناها على أن تتخلص من العمليات النفسية الكريهة ، وعلى أن تضع فى مكانها عمليات بدنية. فى هذه الحالة لا ينبغى أن نندهش حين نتبين أن المريضة كانت تنزع إلى أن تستجيب بشكل هستيرى فى صراعها مع حياتها الغريزية . وبنت أخرى، ما تزال فى مرحلة الكمون ، نجحت فى أن تكبت حسدها لقضيب أخيها الصغير — وهو وجدان كان يحكم كل حياتها — كبتاً كان الاكتمال بحيث كان من العسير جداً « حتى فى التحليل ، أن نتبين أى أثر لهذا الحسد . كل ما كان يستطيع المحلل أن يلاحظه هو أنه كلما سنحت لها فرصة حسد لأخيها أو غيرة منه كانت تشرع فى لعبة خيالية غريبة،حيث كانت هى نفسها تمثل دور ساحرة تملك بإيماءاتها القدرة على تغيير العالم كله ، ومن ثم على التأثير فيه بشكل غير مألوف . كانت هذه البنت « تقلب « الحسد « إلى ضده » ، إلى توكيد زائد لقدراتها السحرية ، الأمر الذى كان يمكنها من أن تتجنب الاستبصار الأليم بما كانت تتوهمه من دونية بدنية عندها. لقد استخدمت أناها ذلك الميكانيزم الدفاعى ، « القلب للضد » ، الذى هـو نوع من التكوين المضاد ضدالوجدان ،كاشفة فى الوقت نفسه عن اتجاهها القهرى من الغريزة . وما أن اتضح ذلك حتى أصبح من اليسير على المحللة أن تتأدى إلى وجود حسد القضيب فى كل مرة تعود فيها إلى الظهور لعبة

الساحرة . ومن ثم نتبين أن ما نبلغ إليه بتطبيق هذا المبدأ ينحصر ببساطة فى فنية تترجم بها المنطوقات الدفاعية للانا ، وهذه الفنية تكاد تناظر تماما تصفية مقاومات الأنا كلما ظهرت فى التداعى الطليق . فهدفنا هو نفس هدفنا من تحليل المقاومات . فبقدر ما يكتمل نجاحنا فى استجلاب المقاومة والدفاع ضد الوجدانات كليهما إلى الشعور ، ومن ثم نجعلهما عاطلين عن العمل ، تزداد سرعة تقدمنا إلى فهم الهو .

الفصل الرابع

ميكانيزمات الدفاع

نظرية التحليل النفسى وميكانيزمات الدفاع :

إن مصطلح « الدفاع » الذى استخدمته بغير تحديد فى الفصول الثلاثة السابقة ، هو أبكر ممثل لوجهة النظر الدينامية فى نظرية التحليل النفسى . وقد ظهر المصطلح لأول مرة فى عام ١٨٩٤ فى دراسة فرويد « الاعصبة والأذهنة كدفاع »[1] ؛ فقد استخدمه فى دراسته هذه ، وفى عديد من مؤلفاته اللاحقة (« الأسباب المولدة للهستيريا »[2] و « ملاحظات أخرى عن الأعصبة والأذهنة كدفاع »[3]) ليصف نضال الأنا ضد الأفكار أو الوجدانات الأليمة أو غير المحتملة . ثم هجر هذا المصطلح فيما بعد ، وحل محله مع الوقت مصطلح « الكبت » . ولكن العلاقة بين هذين المفهومين ظلت غير محددة . وفى ملحق كتابه « الكفوف والأعراض والقلق » (١٩٢٦) عاد فرويد إلى المصطلح القديم « الدفاع » ، وقرر أن العودة إلى استخدامه ، فيما يعتقد ، ستكون ولاشك مفيدة ، « شريطة

---

(1) The Cefence Neuro-Psychoses Stauderd Edition of the Complete Psychological Works of S. Freud. vol. III. London.
(2) The A Etiology ol Hysteria. idem.
(3) Further Remarks on the Defence Neuro—Psychoses,idem

أو نستخدمه صراحة كلافتة عامة لكل الأساليب التى تستخدمها الأنا فى الصراعات التى يمكن أن تؤدى إلى عصاب ، بينما نحتجز مصلح الكبت ، لذلك الأسلوب الخاص من الدفاع والذى تأدت بنا الطريقة التى اتبعناها فى تقصياتنا إلى أن نتبينه للوهلة الأولى بشكل أفضل » .[1] هنا نجدنا أمام دحض صريح للتصور الذى مؤداه أن الكبت يحتل مكانا فريداً بين العمليات النفسية ، مما يفسح المجـال فى نظرية التحليل النفسى لعمليات نفسية أخرى تخدم نفس الغرض ، وهو على التحديد « حماية الأنا ضد المطالب الغريزية » . فدلالة الكبت تتقاص بذلك بحيث تصبح « أسلوبا خاصاً من الدفاع » .

وهذا التصور الجديد لدور الكبت يبعثنا على أو نتقصى الأساليب النوعية الأخرى من الدفاع ، وعلى أن نقارن ما بين تلك الأســاليب الدفاعية التى تم حتى الآن كشفها ووضعها على يد الباحثين من المحللين النفسيين .

وفى نفس الملحق من كتاب فرويد « الكفوف والأعراض والقلق » نلتقى بذلك الافتراض الذى ألمحت إليه فى الفصل السابق ، وهو على التديد : إن مزيداً من التقصيات يمكن أن يكشف عن وجود علاقة وثيقة بين أساليب نوعية من الدفاع وأعصبة بعينها ، من قبيل العلاقة بين الكبت والهستيريا » . بينما النكوص ، والتغير الضدى للأنا (التكوين المضاد) ، والعزل ، إلغاء ما تم فعله ، كلها ترد كأساليب دفاعية تستخدم فى العصاب القهرى .

---

(1) Inhibitions, Symptoms and Anxiety, pp. 154-5. London 1936

(أقارن الترجمة العربية : « القلق » للدكتور عثمان نجاتى ، ص ١٨٢ . هامش الترجمة العربية)

أما وقد قدمنا بذلك هذه الطليعة ، فلن يكون من العسير علينا أن نكمل تعديد أساليب الأنا الدفاعية على نحو ما ورد وصفها فى كتابات فرويد الأخرى ففى « الغيرة والبرانويا والجنسية المثلية » مثلا يرد ذكر الاستدماج أو التوحد والإسقاط[1] بوضعهما أسلوبين دفاعيين هامين تستخدمهما الأنا فى المشاعر المرضية من هذا الطراز ، كما يرد تخصيصهما على أنهما « ميكانيزمان عصابيان ».وفى مقاله عن نظرية الغريزة[2] يصف فرويد عمليات « الارتداد ضد الذات » و « القلب للضد » ، ويخصص هذه العمليات على أنها « تحورات الغريزة ». هذا الميكانيزمان الأخيران ينبغى ، من زاوية الأنا ، أن نضعهما أيضا فى باب أساليب الدفاع ، لأن تحور يمكن للغرائز أن تعانيه يرجع بأصله الى نشاط ما للأنا. فلو لم يكن ذلك التدخل من جانب الأنا ، أو من جانب تلك القوة الخارجية التى تمثلها الأنا ، لما كان لأية غريزة أن تعرف إلا مصيراً واحداً — هو الإشباع . وإلى هذه الأساليب الدفاعية التسعة ، التى هى حد مألوفة فى الممارسة ، والتى خطيت ، الكتابات النظرية للتحليل النفسى ، بوصف شامل كامل (النكوص ، الكبت ، التكوين المضاد ، العمل ، الإلغاء ، الإسقاط ، الاستدماج ، الانتداد ضد الذات ، القلب للضد) ، ينبغى أن نضيف أسلوباً دفاعياً عاشراً ينتمى بالحرى إلى دراسة السوية بأكثر مما

---

(1) 'Certain Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Hamosexuality', Collected Papers vol. II, p. 232. London.
(بعض الميكانيزمات العصابية فى الغيرة والبرانويا والجنسية المثلية ، المقالات المجموعة ، المجلد الثانى ص ٢٣٢).

(2) "Imstincts and their Vicissitudes", Callected Papers, vol. IV, p. 69.
(الغرائز وتحوراتها ، المقالات المجموعة ، المجلد الرابع ص ٦٩) .

ينتمي إلى دراسة العصاب : ألا وهو الإعلاء ، أى نقل الأهداف الغريزية .

وفى حدود ما نعرفه حتى اليوم ، تملك الأنا تحت تصرفها هـذه الأساليب العشرة المتباينة ، وذلك فى صراعاتها ضد « ممثلات » الغرائز وضد الوجدانات وإنها لمهمة المحلل الممارس أن يتبين إلى أى حد تتكشف هذه الأساليب فعالة فى عمليات المقاومة من جانب الأنا وتكوين الأعراض ، هذه التى تتاح له فرصة ملاحظتها عند الأفراد .

مقارنة النتائج التى تنجزها الميكانزمات المختلفة فى الحالات الفردية:

سوف أتخذ كمثال توضيحى حالة امرأة شابة تعمل فى مؤسسة للاطفال . كانت الطفل الوسيط بين عدد من الإخوة والأخوات .كانت طوال طفولتها تعانى من حسد عاصف للقضيب يتعلق بأخيها الأكبر وأخيها الأصغر ، ومن غيرة تكررت إثارتها بسبب الحمل المتتابع عند أمها . وفى النهاية ائتلف الحسد والغيرة فى كراهية شرسة ضد أمها . ولكن بالنظر إلى أن تثبيت الحب عند الطفلة لم يكن يقل قوة عن الكراهية عندها ، فإن صراعاً دفاعياً عنيفاً ، ضد حفزاتها السالبة هذه ، ظهر فى أعقاب فترة أولى من التمرد والشرانية غير المكفوفين . كانت ترتعب من أن إظهارها لكراهيتها يمكن أن يؤدى بها إلى أن تفقد حب أمها ، وهو الحب الذى لم تكن لتحتمل الحرمان منه . وكانت ترتعب أيضاً من أن أمها يمكن أن تعاقبها ، وكانت تنتقد نفسها بأقصى ما يمكن على تحرقها غير المشروع للانتقام . وعندما دخلت فى مرحلة الكمون ، فإن موقف القلق وصراع الضمير هذين أصبحا أكثر فأكثر حدة ؛ وحاولت الأنا عندها أن تسيطر على حفزاتها بطرائق مختلفة . وكيما تفض مشكلة ثنائية الوجدان نقلت إلى الخارج واحداً من جانبى شعور ثنائية الوجدان . استمرت أمها موضوع حب عندها ، ولكن منذ ذلك الوقت فصاعداً كانت هناك

دائما فى حياتها شخصية ثانية هامة من الجنس الأنثوى ، تكرهها الطفلة بشكل عنيف . كان فى ذلك مايسر الأمور : فكراهيتها لذلك الموضوع الثانى الأكثر بعداً لم يكن ينتابها شعور الإثم بنفس تلك الدرجة من القسوية ككراهيتها لأمها . ولكن حتى تلك الكراهية المنقولة كانت مصدراً للكثير من المعاناة . فمع مضى الوقت أصبح من الواضح أن هذا النقل الأولى كان قاصرا كوسيلة للسيطرة على الموقف .

عندئذ لجأت الأنا عند البنت الصغيرة إلى ميكانيزم ثان . « أدارت إل الداخل » الكراهية ، هذه كانت حتى الآن تتجه إلى الآخرين .راحت الطفلة تعذب نفسها باتهامات ضد ذاتها وبمشاعر الدونية ؛ وطوال صباها ومراهقتها وفى حياتها الراشدة فعلت كل ما كان بوسعها أن تفعله لتضع نفسها فى الجانب الخاسر ولتضر بمصالحها ، متنازلة دائماً عن رغباتها أمام مايطلبه الآخرون منها . وفى كل مظهر خارجى لها غدت مازوشية منذ أن اتخذت هذا الأسلوب الدفاعى .

ولكن هذا الإجراء هو الآخر قد تكشف قاصرا كوسيلة للسيطرة على الموقف . وعندئذ شرعت المريضة فى عملية إسقاط . فالكراهية التى كانت تستشعرها ضد موضوعات حبها من الجنس الانثوى أو ضد بدائلها هذه الكراهية تحولت إلى اقتناع بأن الكراهية أو المهانة أو الاضطهاد تتجه منهن ضدها . وهكذا لقيت الانا عندها تخففا من مشاعر الإثم . فالطفلة الشرانية التى كانت تنطوى على مشاعر شريرة ضد الآخرين من حولها ، قــــد تحورت إلى ضحية للقسوة والمهانة والإضطهاد . ولكن استخدامها لهذا الميكانيزم أسبغ على شخصيتها طابعا مستمراشبه برانوى كان بالنسبة إليها مصدر صعوبة هائـــلة فى سنوات شبابها ورشدها على السواء .

كانت المريضة مكتملة النمو تماما عندما جاءتنى للتحليل . لم تكن مريضة فى نظر الذين يعرفونها ، ولكن مكابداتها كانت شديدة . فعلى الرغم من كل الطاقة التى بذلتها الانا عندها لاغراض الدفاع ، فانها لم تنجح فى أن تسيطر فى الواقع على قلقها وشعور إثمها . ففى أية مناسبة يتعرض فيها حسدها وغيرتها وكراهيتها لخطر الابتعاث كانت تلجأ دائماً أبداً إلى كل ميكانيزماتها الدفاعية . ولكن صراعاتها الإنفعالية لم تبلغ قط إلى أى حل من شأنه أن يتيح الراحة للانا ؛ وفيما عدا ذلك كانت النتيجة النهائية لكل نضالاتها هزيلة إلى أقصى حد . نجحت فى أن تحتفظ بوهم أنها تحب أمها ، ولكنها كانت تستشعر نفسها مليئــــة بالكراهية ، وكانت بسبب ذلك تحتقر نفسها وتتشكك فى نفسها . ولم تنجح فى أن تبقى على شعورها بأنها محبوبة ؛ فهذا الشعور قد دمره ميكانيزم الإسقاط كما أنها لم تنجح فى الإفلات من العقوبات التى كانت ترتعب منها فى الطفولة ؛ فهى إذ أدارت إلى الداخل حفزاتها العدوانية أوقعت على نفسها كل مكابدة كانت من قبل تتوقعها فى صورة عقوبة من جانب أمها . فالميكانيزمات الثلاثة التى استخدمتها لم تستطع أن تمنع الأنا عندها من أن تكون فى حالة متصلة من التوتر والتهيب المضنيين ، كما لم تستطع أن تعين الانا على التخفف من تلك المطالب المسرفة المفروضة عليها ولا من ذلك الإحساس بالعذاب الشديد الذى كانت تعانى منه .

ولنقارن الآن هذه العمليات بالعلاقات المناظرة فى الهستيريا أو فى العصاب القهرى . وسوف نفترض أن المشكلة واحدة فى كل حالة: كيف يمكن السيطرة على تلك الكراهية للأم التى تنبعث من حسد القضيب ؟ إن الهستيريا تحل تلك المشكلة عن طريق الكبت . فالكراهية للام تنطارد من الشعور ، وأية مشتقات للكراهية كائنة ما كانت تسعى للدخول إلى الانا تنطرد بعنف . أما الحفزات العدوانية المرتبطة بالكراهية ،

وأما الحفزات الجنسية المرتبطة بحسد القضيب فيمكن أن تتحول إلى أعراض بدنية ، إذا ما كانت لدى المريضة القدرة على التبدين وكانت الظروف البدنية مواتية . وفي حالات أخرى تدافع الأنا عن نفسها ضد ابتعاث الصراع الاصلي بأن تستحدث فوبيا فتتجنب المناسبات المثيرة للاضطراب فالانا تفرض قيودا على نشاطها ، متجنبة بذلك أي موقف يمكن أن يؤدي إلى عودة الحفزات المكبوتة

وفي العصاب القهري ، كما في الهستيريا ، فإن الكراهية للأم وحسد القضيب ينكبتان للوهلة الأولى. وبعد ذلك تؤمن الأنا نفسها ضد عودتها عن طريق تكوينات مضادة . فالطفلة التي كانت عدوانية ضـــد أمها تستحدث حباً مسرفاً تجاهها ، وتنشغل بأمر سلامتها ، والحسد والغيرة يتحولان إلى إيثار وإنشغال بصالح الآخرين . وبإقامتها طقوسا قهرية وإجراءات وقائية متنوعة ، تحمي المريضة الأشخاص المحبوبين من أي تفجر لحفزاتها العدوانية ، بينما عن طريق قانون أخلاقي مسرف الصرامة تمنع ظهور حفزاتها الجنسية .

والطفلة التي تسيطر على صراعاتها الطفلية بالأسلوب الهستيري أو بالأسلوب القهري اللذين وصفناهما تقدم لنا لوحة أمعن الباثولوجية [المرضية] من تلك التي للمريضة التي قدمنا حالتها من قبل . فالكبت الذي حدث عند مثل هذه الطفلة قد حرمها من أن تسيطر على جانب من حياتها الوجدانية . ذلك أن علاقتها الأصلية مع أمها وإخوانها ، وعلاقتها الهامة بأنوثتها ، كلها قد انسحبت من إمكانية أية إساغة شعورية لاحقة ،وغدت مثبتة بشكل قهري ولا رجعة فيه في ذلك التغير الضدي الذي عانته الأنا . إن جانباً كبيراً من نشاط مثل هذه الطفلة يستنفده إستمرار الاستثمارات المضادة ، هذه التي يجري تصميمها فيما بعد لتأمين الكبت ، وهذا الضياع

للطاقة يتبدى فى كف وانكماش أنشطة حيوية أخرى . ولكن أنا الطفلة التى فضت صراعاتها عن طريق الكبت ، بكل ما يترتب عليه من نتائج باثولوجية ، تكون فى سلام . إن الأنا عندها تعانى بشكل ثانوى من النتائج المترتبة على العصاب ، هذا الذى جلبه الكبت عليها . ولكن الأنا تكون بذلك ، على الأقل فى حدود هستيريا التبدين والعصاب القهرى . قد قيدت قلقها ، وتخلصت من شعور إثمها ، وأشبعت رغباتها فى العقوبة وينحصر الاختلاف (بين مثل هذه الطفلة ومريضتنا) فى أن الأنا إذا استخدمت الكبت فإن تكوين الأعراض يعفيها من مهمة السيطرة على صراعاتها ، فى حين أنها إذا استخدمت الوسائل الدفاعية الأخرى يكون ما يزال عليها أن تواجه المشكلة .

وفى الواقع العملى يكون إستخدام الكبت ، فى استقلال عن أساليب الدفاع الأخرى ، أقل شيوعا من الائتلاف بين الأسلوبين فى فرد واحد وبعينه . ذلك ما يتضح بشكل جلى من تاريخ مريضة كانت تعانى هى الأخرى فى طفولتها جد الباكرة من حسد عاصف للقضيب ، ولكنه فى هذه الحالة يتعلق بأبيها . بلغت الأخاييل الجنسية لهذه المرحلة ذروتها فى رغبتها فى أن تقتلع عضا قضيب أبيها . عند هذه النقطة أقامت الأنا دفاعها انكبتت الفكرة المزعجة وحلت فى مكانها الفكرة المضادة لها — عزوف عام عن العض ، لم يلبث أن تطور إلى صعوبة فى الأكل مصحوبة بمشاعر هستيرية من الاشمئزاز . بذلك تحققت الآن السيطرة على جانب من الحفزة المحرمة — وهو الجانب الذى تمثله الأخيولة الفمية . ولكن المضمون العدوانى ، ونعنى رغبتها فى أن « تسلب كرها » أباها ، أو بديل أب ظلت فى الشعور بعض الوقت ، حتى قام صرح الأنا العليا فاضطلعت الحاسة الأخلاقية للأنا برفض هذه الحفزة . وعن طريق ميكانيزم النقل الذى سوف اشرحه فيما بعد بشكل أكثر اكتمالا ، تحولت حفزة « السلب

كرها » إلى نوع غريب من القناعـــة والتعفف . وإنا لنرى كيف أن الأسلوبين المتعاقبين من الدفاع قد أقاما دعامة من الهستيريا ، ثم شيدا فوق ذلك تعديلا نوعيا للأنا ، ليس فى حد ذاته من طبيعة باثولوجية .

إن الإنطباع الذى نبلغ إليه من هاتين الحالتين يتدعم عندما نتفحص بشكل تفصيلى تأثير الميكانيزمات الدفاعية المختلفة فى حالات أخرى . ومن ناحية نظرية يمكن للكبت أن يندرج تحت المفهوم العام للدفاع ، وأن يوضع جنبا إلى جنب مع الأساليب النوعية الأخرى . ومع ذلك فإن الكبت من ناحية الفاعلية يحتل مكانا فريداً بالقياس إلى الأساليب الأخرى . فبلغة الكم ينجز الكبت أكثر مما تنجز ، بمعنى أنه يقتدر على أن يسيطر على حفزات غريزية قوية ، تظل بإزائها الإجراءات الدفاعية الأخرى عديمة الفاعلية تماما . إن الكبت يعمل عمله مرة واحدة ، وإن كان الإستثمار المضاد الذى يتم تأمينا للكبت هو عملية دائمة تتطلب إنفاقا متصلا من الطاقة . أما الميكانيزمات الأخرى فهى على العكس يتحتم عليها أن تستدعى من جديد للعمل كلما كان هناك تكاثر فى الطاقة الغريزية . ولكن الكبت ليس فقط أكثر الميكانيزمات فاعلية ، بل أيضاً أكثرها خطورة . فالانسلاخ عن الأنا الذى يؤدى إليه انسحاب الشعور من مناطق برمتها من الحياة الغريزية والوجدانية يمكن أن يقضى على تكامل الأنا بصفة نهائية . ومن هنا يغدو الكبت أساساً للتكوينات — المصالحات وللعصاب . والنتائج المترتبة على الأساليب الدفاعية الأخرى ليست أقل خطورة ولكنها ، حتى حين تكون شديدة الحدة ، تظل بشكل أكبر أدخل فى حدود السوية . إنها تتبدى فيما لا حصر له من تحورات الأنا وتحريفاتها وتشويهاتها ، هذه هى التى هى جزئياً مصاحبات وجزئيا « بدائل » للعصاب .

اقتراحات لتصنيف زمنى :

ولكننا حين نسلم للكبت بمكانته الاستثنائية بين الأساليب الدفاعية الأنا ، فإننا ما نزال نشعر بإزاء الاساليب الاخرى بأننا نكدس تحت لافتة واحدة عدداً من الظواهر عديمة التجانس . فأساليب من قبيل العزل والالغاء تقف جنباً الى جنب مع عمليات غريزية بمعنى الكلمة ، من قبيل النكوص والقلب للضد والارتداد ضد الذات . وبعض هذه الأساليب تستخدم فى السيطرة على كميات كبيرة من الغريزة أو الوجدان بينما بعضها الآخر يستخدم فحسب فى السيطرة على كميات صغيرة . ان الإعتبارات التى تحكم إختيار الأنا لميكانيزم ما ، ماتزال غير يقينية . وربما كان الكبت ذا قيمة بشكل بارز فى محاربة الرغبات الجنسية ، بينما الأساليب الأخرى أكثر ملاءمة لأن تستخدم ضد قوى غريزية من نوع آخر ، وعلى الخصوص ضد الحفزات العدوانية . أو ربما أن هذه الأساليب الأخرى يكون عليها فحسب أن تكمل ما لم ينجزه الكبت ، أو ربما يكون عليها فحسب أن تواجه مثل تلك الأفكار المحرمة وهى تعود إلى الشعور عند فشل الكبت[1] أو ربما أن كل ميكانيزم دفاعى قد برز أول ما برز كيما يسيطر على حفزة غريزية نوعية بعينها ، ومن ثم يكون مرتبطا بمرحلة بعينها من النمو الطفلى[2] .

وينطوى ملحق كتاب « الكفوف والأعراض والقلق » ، هذا الذى أوردت نصوصاً منه أكثر من مرة ، على إجابة مؤقتة بالنسبة إلى هذه الاقتراحات « من الممكن جدا أن الجهاز النفسى قبل أن يتفالق بشكل قاطع إلى أنا وهو ، وقبل أن تتكون الأنا العليا ، يستخدم

---

(١) إنى أقتفى هنا إقتراحاً قدمته « جان لامبل دى جروت » خلال مناقشة فى جمعية فيفا.

(٢) بحسب إقتراح « هلينا دوتش » .

أساليب دفاعية تختلف عن تلك التي يستخدمها بعد أن يبلغ بالتفالق إلى هذه المستويات من الانتظام[1] . » ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي . إن الكبت ينحصر فى احتجاز أو طرد فكرة أو وجدان عن الأنا الشعورية ومن ثم فلا معنى للحديث عن الكبت حين تكون الأنا ما تزال غارقة فى الهو . وبالمثل يمكن أن نفترض أن الإسقاط والاستدماج أسلوبان يعتمدان على تمايز الأنا عن العالم الخارجى . فطرد الأفكار أو الوجدانات من الأنا وإلصاقها بالعالم الخارجى من شأنه أن يحقق تخففا للانا ، ولكن فحسب عندما تكون الأنا قد تعلمت أن تميز نفسها عن العالم . وكذلك فإن الاستدماج من العالم الخارجى إلى داخل الأنا لا يمكن القول بأنه يؤدى إلى اثراء الأنا اللهم إلا أن كان هناك بالفعل تمايز واضح بين ما ينتمى للواحد وما ينتمى الآخر ولكن الموقف ليس على هذه البساطة بأى حال . ففى حالة الإسقاط والاستدماج تكون البدايات الأولى أكثر غموضا بكثير[2] . والإعلاء ، أى نقل هدف غريزى على نحو يساير قيما إجتماعية أعلى ، يفترض سبقا تقبل ، أو على الأقل معرفة مثل هذه القيم ، أو بعبارة أخرى يفترض سبقا وجود الأنا العليا . وتبعا لذلك فإن الميكانيزمين الدفاعيين الكبت والاعلاء لا يمكن استخدامهما إلا فى مرحلة متأخرة نسبياً من عملية النمو ، بينما الوضع الزمنى الذى يمكن أن نحدده للاسقاط والاستدماج يتوقف على الزاوية النظرية التى يتفق أن نتبناها . والعمليات من قبيل النكوص ، أو القلب للضد ، أو الارتداد ضد الذات ، يحتمل أن تكون مستقلة عن المرحلة التى تكون قد بلغت إليها البنية النفسية ، وأن تكون قديمة قدم الغرائز نفسها ، أو على الأقل قديمة قدم الصراعات بين الحفزات الغريزية وأى عائق يمكن أن

---

(١) المرجع المذكور (قارن أيضا الترجمة العربية ص ١٨٤ ــ هامش الترجمة العربية) .

(٢) (فرويد، الطوطم والتابو) Freud, Totem and Taboo, S. E. vol. XIII قارن أيضا رأى المدرسة الإنجليزية الذى أشير اليه فى ص ٤١ .

تصطدم به فى طريقها إلى الإشباع . ولن ندهش إذا ما تبينا أن هذه العمليات هى أبكر الميكانيزمات الدفاعية التى تستخدمها الأنا .

ولكن هذا التصنيف الزمنى المقترح لا يتفق مع ما نخبره من أن أبكر مظاهر العصاب التى نشاهدها فى صغار الأطفال هى الأعراض الهستيرية ، هذه التى صلتها بالكبت تعلو على كل شك ، ومن ناحية أخرى فإن ظواهر المازوشية بمعنى الكلمة ، هذه التى تنتج من ارتداد الغريزة ضد الذات ، نادرا ما نلتقى بها فى الطفولة الباكرة . وبحسب نظرية المدرسة الإنجليزية فى التحليل ، فإن الاستدماج والإسقاط ،وهما اللذان ينبغى فى رأينا تحديد وضعهما الزمنى فى الفترة اللاحقة على تمايز الأنا عن العالم الخارجى ، هما نفسهما العمليتان اللتان بفضلهما تنشأ بنية الأنا ، واللتان لولاهما لما تحقق بحال تمايز الأنا . هذه الاختلافات فى الرأى تثبت لنا أن التحديد الزمنى للعمليات النفسية ما يزال واحداً من أكثر المجالات غموضاً فى نظرية التحليل النفسى . وخير الأمثلة على ذلك تلك المسألة الجدلية عن متى تتكون بالفعل الأنا العليا عند الفرد ومن هنا فإن تصنيفاً لميكانيزمات الدفاع تبعاً لوضعها الزمنى لابد وأن يكون مشربا بكل الشك وعدم اليقين اللذين يسمان حتى اليوم الأحكام الزمنية فى التحليل . فربما يكون من الأفضل أن نتخلى عن محاولة تصنيف الميكانيزمات على هـــذا النحو ، وأن ندرس على نحو تفصيلى ، بدلا من ذلك ، تلك المواقف التى تستلزم الإستجابات الدفاعية .

الفصل الخامس

توجيه عمليات الدفاع تبعا لمصدر الحصر والخطر

إن الأخطار الغريزية التى ضدها تدافع الأنا عن نفسها هى دائما نفس الأخطار ، ولكن الأسباب التى تجعل الأنا تستشعر أن تفجر غريزيا بعينه هو خطر يمكن أن تتباين .

بواعث الدفاع ضد الغرائز :

(ا) حصر الأنا العليا فى أعصبة الراشدين : إن الموقف الدفاعى الذى ألفناه أكثر ما ألفنا فى التحليل ، والذى تعتبر معرفتنا به أكثر ما تكون اكتمالا ، هو ذلك الموقف الذى يشكل أساس العصاب عند الراشدين . والموقف هنا ينحصر فى أن رغبة غريزية ما تسعى إلى أن تدخل فى الشعور . وإلى أن تبلغ بمساعدة الأنا إلى الحصول على الاشباع والأنا لا تكون معارضة فى السماح لها بالدخول ، ولكن الأنا العليا تعترض وتذعن الأنا للمنظمة الأعلى ، فتدخل ممتثلة فى صراع ضد الحفزة الغريزية بكل النتائج التى يمكن أن يؤدى اليها مثل هذا الصراع والنقطة المميزة فى هذه العملية هى أن الأنا نفسها لا تعتبر الحفزة التى تحاربها خطرة بأى حال . فالدافع الذى يحرك الدفاع لا يرجع فى أصله اليها . فالغريزة تعتبر خطرة لأن الأنا العليا تحرّم اشباعها ; ولو بلغت هذه الحفزة الى هدفها فسوف تثير بالتأكيد اضطرابا بين الأنا والأنا العليا . ومن هنا فإن الأنا عند الراشد العصابى تخاف من الغرائز لأنها تخاف من الأنا العليا . فباعثها الى الدفاع هو حصر الأنا العليا .

وطالما انحصر انتباهنا فى الدفاع الذى يقيمه الراشد العصابى ضد الغريزة ، فسوف نعتبر الأنا العليا قوة مخيفة . فهذه الأنا العليا تتبدى علة كل عصاب . فهى صانعة الشقاق التى تمنع الأنا من الوصول إلى تفاهم ودى مع الغرائز . إنها تقيم معيارا مثاليا بمقتضاه تكون الجنسية محرمة وتدان العدوانية بوصفها ضد - اجتماعية . انها تتطلب درجة من التنازل عن الجنسية ومن التقييد للعدوانية لا تساير الصحة النفسية . فالأنا محرومة تماما من استقلاليتها ومخفوضة إلى منزلة اداة تنفذ رغبات الأنا العليا ؛ والنتيجة هى أن الأنا تصبح معادية للغريزة ، وعاجزة عن الاستمتاع . إن دراسة موقف الدفاع على نحو مايتكشف فى عصاب الراشدين ترغمنا على أن نولى اهتماما جد خاص ، فى عملنا العلاجى ، لتحليل الأنا العليا . فالتقليل من قوتها ، والتخفيف من قسوتها ، أو — كما يبلغ البعض إلى حد القول — الإلغاء التام لها ، كفيل بأن يهون على الأنا ، ويقلل من الصراع العصابى ، فيجعله على أى حال فى اتجاه واحد . هذا التصور للانا العليا ، بحسبانها علة كل الشرور العصابية ، من شأنه أن يبعث آمالا عريضة فى الوقاية من الأعصبة . فإذا كان العصاب ينتج من قسوة الأنا العليا ، فعندئذ يكون على أولئك الذين يرعون الأطفال فقط أن يتجنبوا كل مامن شأنه أن يسهم فى تكوين أنا عليا مسرفة الصرامة . يتحتم عليهم أن يتأكدوا من أن طرائقهم التربوية ، التى تستدخلها فيما بعد الأنا العليا عند الأطفال هى دائماً دمثة . والأنموذج الأبوى ، الذى تتبناه الأنا العليا من خلال عملية التوحد ، يتحتم أن يكون تعبيراً عن الضعف البشرى للآباء فى الواقع وعن اتجاههم المتسامح من الغرائز فى الواقع ، بدلا من ادعائهم لأخلاقيات مسرفة الصرامة وتستحيل تماما ممارستها فى الواقع . هذا إلى أن عدوانية الطفل يتحتم أن تجد مخرجا فى العالم الخارجى ، بحيث لا تنسد عليها السبل فترتد إلى الداخل ، لأنها لو فعلت ذلك فسوف تصبغ الأنا العليا بخصائص قاسية . فإذا ما نجحت التربية فى ذلك يكون لنا أن نفترض بأن الكائنات

البشرية التى نشئت فى الحياة على هذا النحو سوف تكون مبرأة من الحصر خالية من العصاب ، قادرة على الاستمتاع ، لا تعود بعد تمزقها الصراعات الداخلية . ولكن هذا الأمل فى استئصال العصاب من الحياة البشرية[1] يتكشف من الناحية العملية أمراً وهمياً ، بينما يتبدد هذا الأمل من الزاوية النظرية بمجرد أن نخطو الخطوة التالية فى البحث التحليلى .

(ب) الحصر الموضوعى فى العصاب الطفلى : إن دراسة الدفاع فى العصاب الطفلى[2] ترينا أن الأنا العليا ليست بحال عاملا لا غنى عنه فى تكوين الأعصبة . إن العصابيين من الراشدين يطردون رغباتهم الجنسية والعدوانية كيما يتجنبوا أن يصبحوا فى صراع مع الانا العليا . والاطفال الصغار يعاملون حفزاتهم الغريزية بنفس الطريقة كيما لا ينتهكوا تحريمات آبائهم . فأنا الطفل الصغير ، شأنها شأن أنا الراشد ، لا تحارب من تلقاء نفسها الغرائز ؛ فدفاع الأنا لا تحركه مشاعرها الخاصة بالموضوع . فالأنا تعتبر الغرائز خطرة لأن أولئك الذين ينشئون الطفل قد حرموا إشباعها ولأن تفجر الغريزة يؤدى إلى تقييدات ، وإلى توقيع عقوبة أو التهديد بها . وحصر الخصاء يؤدى عند صغار الاطفال إلى نفس النتيجة التى يؤدى إليها حصر الضمير عند العصابيين من الراشدين ؛ فالأنا الطفلية تخاف الغرائز لأنها تخاف العالم الخارجى . فدفاعها ضد الغرائز يدفع إليه الخوف من العالم الخارجى ، أى يبعث عليه الحصر الموضوعى .

---

(١) إن أعظم داعية لهذا الرأى ، وبشكل لا يتصالح ، هو « فلهلم رايخ » ولكن هناك كثيرين يشاطرون رأيه .

(٢) (الكفوف والأعراض والقلق) Inhibitions, Symptoms and Anxiety, pp. 52—3.

وعندما نتبين أن القلق الموضوعي يتأدى بالأنا الطفلية إلى أن تستحدث نفس الفوبيات ، والأعصبة القهرية ، والأعراض الهستيرية ، والسمات العصابية على نحو ما تحدث عند الراشدين نتيجة لحصر الأنا العليا عندهم ، فإن هيبة هذه المنظمة الأخيرة تتهاوى بالطبع فى تقديرنا . فإننا نتبين أن ما نعزوه إليها كان ينبغى فى الواقع أن نعزوه ببساطة إلى الحصر ذاته . وفى تكوين الأعصبة ليس مما يهم إلى أى شىء نعزو هذا الحصر . فالنقطة المحورية ، سيان تعلق الأمر بالخوف من العالم الخارجى أو من الأنا العليا ، تنحصر فى أن الحصر هو الذى يطلق العملية الدفاعية . والأعراض التى تدخل فى الشعور ، كنتيجة نهائية لهذه العملية الدفاعية ، لا تمكننا من أن نحدد أى طراز من الحصر فى الأنا هو الذى أحدثها .

فإذا ما تفحصنا هذا الموقف الدفاعى الثانى — ونعنى الدفاع ضد الغرائز الذى يدفع إليه الحصر الموضوعى — فسوف يعظم تقديرنا للتأثير الذى يمارسه العالم الخارجى على الأطفال ، وسوف تنبعث بالتالى من جديد آمالنا فى وقاية فعالة من العصاب . فلقد لاحظ البعض أن صغار الأطفال فى أيامنا يعانون من قدر من الحصر الموضوعى ليس له ما يبرره على الإطلاق . فالعقوبات التى يخشون من أن تنالهم ، لو أنهم أشبعوا غرائزهم هى فى معظمها قد بطل استعمالها تماما فى المرحلة الحالية من حضارتنا فالخصاء قد بطلت ممارسته عقابا على الانغماسات الجنسية المحرمة ، كما بطل البتر عقابا على الأفعال العدوانية . ولكن مع ذلك ما يزال فى طرائقنا التربوية شبه باهت بالعقوبات البربرية للأزمنة الغابرة ، وذلك بالقدر الذى يكفى تماما لإثارة بعض التوجسات والمخاوف الغائمة ، متخلفات تورثها الأجيال . ويذهب المتفائلون إلى أنه ينبغى أن يكون من الممكن أن نتجنب هذه التلميحات البعيدة إلى تهديدات الخصاء ، والإجراءات العنيفة ، وإن تكن الآن محجبة ، إن لم يكن فى الأساليب التأديبية المستخدمة

حاليا ، فعلى الأقل فى نبرة أصوات الراشدين وتعاملهم . والمتفائلون من أصحاب هذا الرأى يأملون فى أن ينتهى الامر إلى أن تنفصم العلاقة بين التربية الحديثة وهذه المخاوف من العقوبة التى هى قديمة قدم الزمن فمن المؤكد ، فيما يقولون ، أن الحصر الموضوعى عنـــد الطفل سوف يتناقص عندئذ ، ويخلى مكانه لتغيير جذرى فى العلاقة بين الانا والغرائز عنده ، مما يعنى سحب كثير من الارض بصفة نهائية من تحت العصاب الطفلى .

(ح) حصر الغريزة (الخوف من شدة الغرائز) : ولكن خبرة التحليل النفسى ، كما سبق القول ، تأتى على الامل المعقود على وقاية فعالة فالانا البشرية ، بحكم طبيعتها ذاتها ، ليست قط تربة مهيأة لإشباع غير معوق للغريزة . وإنى اعنى بذلك أن الانا لا تكون صديقه للغرائز إلا بقدر ماتكون هذه الانا ذاتها ضئيلة التمايز عن الهو . أما حين تكون الانا قد تطورت من العملية الاولية إلى العملية الثانوية ، من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع ، فإنها تكون قد أصبحت كما سبق أن أوضحت ، أرضاً غريبة بالنسبة إلى الغرائز . فارتياب الانا فى مطالب الغرائز ماثل دائماً ولكنه ، فى الظروف العادية ، لايكاد يبين . وهذا الارتياب يتوارى عن الرؤية فى تلك المعارك الاكثر صخبا ، والتى تدور رحاها على أرض الانا ، حربا تشنها الانا العليا والعالم الخارجى ضد حفزات الهو . ولكن إذا ماشعرت الانا بنفسها ، تهجر من جانب هذه القوى الحامية العليا ، أو إذا ماغدت مطالب الحفزات الغريزية مسرفة ، فان الكراهية الخرساء من جانب الانا ضد الغرائز تزداد شدة إلى الحصر . إن هذا الذى تخافه الأنا ، سيان من خطر خارجى أو من خطر ليبيدى ، لا يمكن تخصيصه ؛ نحن نعرف أنه نوع من الإندحار أو الانطفاء ، ولكن التحليل

لم يبلغ إلى تحديده »[١] ويصفه روبرت فالدر R. Wälder على أنه « الخظر من أن يتحطم أو من أن ينغمر كل انتظام الانا »[٢].

إن تأثير الحصر الذى تعيشه الأنا بسبب شدة الغرائز هو كنفس التأثير الذى يحدثه حصر الأنا العليا أو الحصر الموضوعى اللذان كنا ندرسهما حتى الآن . فميكانيزمات الدفاع تستدعى للعمـــل ضد الغرائز ، بكل مايترتب على ذلك من نتائج مألوفة فى تكوين الأعصبة والخصائص العصابية . وعند الأطفال ، فإن الدفاع الذى يستدعى على هذا النحو للعمل ضد الغرائز يمكن دراسته على خير نحو فى تلك الحالات التى بذلت فيها جهود مضنية من جانب التربية التى تقوم على أسس من التحليل النفسى ، ومن جانب التحليل العلاجى ، للتخلص من المناسبات التى تثير الحصر الموضوعى ، حصر الضمير ، هذين اللذين ينزعان لولا ذلك إلى حجب حصر الغريزة . وفى الحياة اللاحقة ، يكون بوسعنا أن نرى حصر الغريزة هذا فى قوته المليئة ، كلما هددت زيادة مفاجئة فى الطاقة الغريزية يفسد الأتزان القائم بين المنظمات النفسية ، على نحو مايحدث فى العادة ، بسبب التغيرات الفسيولوجية ، فى مرحلة البلوغ وسن اليأس ، وعلى نحو مايحدث

---

(١) Freud, The Ego and the Id. p. 85. London.
(قارن الترجمة العربية « الذات والغرائز » د . محمد عثمان نجاتى ، النهضة المصرية . ص ١٠١ — ١٠٢ — هامش الترجمة العربية) .

قارن أيضا : Inhibition, Symptoms and Anxiety. pp. 25—6.
(الـكنوف والأعراض والقلق) حيث التحذير من خطر المغالاة و الدور — الذى تلعبه الأنا العليا فى الـكبت ، وحيث الإلحاح على أهمية العوامل الـكمية ، من قبيل درجة مسرفة فى شدة التأثير .

(٢) R. Wälder, Das Prinzip der merfachen Funktion
International Zeitschrift für Psychoanalyse, Bd. XVI, 1930, S.28

أيضا ، لأسباب باثولوجية ، عند بداية أحد الاستفحالات التى تحدث بين حين وحين فى الذهان .

بواعث أخرى للدفاع ضد الغريزة :

وإلى هذه الدوافع الثلاثه للدفاع ضد الغريزة (حصر الأنا العليا ، والحصر الموضوعى ، والحصر الراجع إلى شدة الغرائز) ينبغى أن نضيف تلك الدوافع التى تنبثق فى الحياة اللاحقة من حاجة الأنا للتأليف بين الأضداد . فالأنا الراشدة تقتضى نوعا من التناغم بين حفزاتها ، ومن ثم تكون هناك سلسلة من الصراعات التى قدم عنها الكساندر وصفا تفصيليا[1]. إنها صراعات بين نزعات متضادة ، من قبيل الجنسية المثلية والجنسية الغيرية ، ومن قبيل السلبية والإيجابية الخ . أما أى الحفزتين المتضادتين تنطرد أو تحظى بالتقبل وأما أية مصالحة يكون البلوغ إليها بينهما ، فذلك أيضا ما تحدده فى الحالة الفردية كمية الطاقة المشحونة بها كل من الحفزتين .

إن الدافعين الأولين من دوافع الدفاع التى درسناها حتى الآن (حصر الأنا العليا والحصر الموضوعى) لهما بالإضافة إلى ماسبق مصدر مشترك . فإذا ما استطاعت الغريزة أن تنجز إشباعا رغما عن معارضة الأنا العليا .

---

(١) F. Alexander, Uber as Verhaltnis Von Struktur-Zu Triebkonflikten, Jnt er. Zeit. für Psych oanalyse, Bd. XX, 1934. 2. 33ff.

الدافعين ، فإن الدفاع يتم الاضطلاع به وفقا لمبدأ الواقع . فالهدف الأساسى لهذا الدفاع هو تجنب هذا الألم الذى ينتج بصفة ثانوية .

بواعث الدفاع ضد الوجدانات :

أن نفس الأسباب التى تحرك دفاع الأنا ضد الغرائز هى على التحديد نفس الأسباب التى تحرك دفاع الأنا ضد الوجدانات . فكلما حاولت الأنا الدفاع عن نفسها ضد الحفزات الغريزية بتحريك من أحد الدوافع التى أشرت إليها ، فإنها تكون مضطرة إلى أن تطرد أيضاً الوجدانات المرتبطة بهذه العملية الغريزية . وطبيعة الوجدانات المعنية هى لامادية : فهى إما أن تكون لاذة أو أليمة أو خطرة بالنسبة إلى الأنا . وليس فى هذا مايهم ، إذ أنه من غير المسموح به للأنا قط أن تعيشها بالضبط على نحو ماهى .

فحين يكون الوجدان مرتبطا بعملية غريزية محرمة ، فإن مصيره يتحدد سبقاً . فكونه مرتبط بهذه العمليـــة الغريزية يكفى لأن يجعل الأنا تحتاط ضده .

وإلى هنا فإن أسباب الدفاع ضد الوجدان تكمن ببساطة فى الصراع بين الأنا والغريزة . ولكن هنالك علاقة أخرى وأكثر بداثية بين الأنا والوجدانات ، وليس لها مايقابلها فى علاقة الأنا بالغرائز . فالإشباع الغريزى هو دائماً أبداً بشكل أولى شىء لاذ . أما الوجدان فيمكن أن يكون بشكل أولى شيئا لاذا أو شيئاً أليماً ، تبعاً لطبيعته . فإذا لم يكن لدى الأنا من اعتراض ضد عملية غريزية بعينها ، ومن ثم لاتطرد الوجدان استنادا إلى هذا الأساس ، فإن اتجاهها من هذا الوجدان سوف يتحدد بكليته بمبدأ اللذة ؛ فالأنا سوف ترحب بالوجدانات اللاذة وتدافع عن

نفسها ضد الوجدانات الأليمة . والواقع أنه حتى حين تكون الأنا ، عند الكبات غريزة ما ، مضطرة بدافع من الحصر وشعور الإثم إلى أن تدافع عن نفسها ضد الوجدان المصاحب لهذه الغريزة ، فإننا مايزال بوسعنا أن نتبين علامات على الانتقاء تبعاً لمبدأ اللذة . فإن الأنا تكون اعظم ماتكون استعدادا اطرد الوجدانات المرتبطة بحفزات غريزية محرمة إذا مااتفق لهذه الوجدانات أن تكون نكدة ، من قبيل أن تكون ألما أو صبابة أو حزنا . ولكنها من ناحية أخرى يمكن أن تقاوم تحريما مالفترة أطول بعض الشيء فى حالة ماتكون الوجدانات المصاحبة موجبة ، وذلك ببساطة لأنها لاذة ؛ أو يمكن احيانا أن تقنع نفسها بأن تتسامح مع هذه الوجدانات لفترة وجيزة من الوقت عندما تنفجر بشكل مفاجىء فى الشعور .

هذا الدفاع البسيط ضد هذه الوجدانات التى هى بشكل أولى أليمة ، يناظر الدفاع ضد المثيرات التى هى بشكل أولى أليمة ، والتى تصدم الأنا من العالم الخارجى . وسوف نرى فيما بعد أن الأساليب التى يستخدمها الأطفال فى هذه الأشكال البدائية من الدفاع ، والتى يحكمها ببساطة مبدأ اللذة ، هى نفسها أكثر بدائية فى طبيعتها .

التثبت من نتائجنا هذه فى الممارسة التحليلية :

إن هذه الوقائع التى تتطلب العناء الشديد فى تجميعها وربطها ضمن عرضنا النظرى يمكن لحسن الحظ أن نتبينها وأن نبرهن عليها دون مزيد من العناء فى تحليلاتنا لمرضانا . ففى كل مرة ، عن طريق التحليل ، نقلب للضد عملية دفاعية فاننا نكتشف العوامل المختلفة التى أسهمت فى إحداثها . فبوسعنا أن نتبين كمية الطاقة التى أنفقت فى إقامة الكبوتات عن طريق

شدة المقاومة التى تعترضنا عندما نحاول إزالة هذه الكبوتات[1]. وبالمثل نستطيع أن نستنبط الدافع الذى حرك عند المريض دفاعا ضد حفزة غريزية عن طريق حالته النفسية عندما نعيد إدخال هذه الحفزة فى شعوره. فإذا ماحونا دفاعا عصابيا قام بدافع من الأنا العليا، فإن المريض يعيش شعور الإثم، بمعنى أنه يعيش حصر الأنا العليا. أما إذا كان الدفاع قد قام، من ناحية أخرى، بدافع من ضغط العالم الخارجى، فإن المريض يعيش حصرا موضوعيا. وإذا ماابتعثنا، عند تحليلنا لطفل، تلك الوجدانات الأليمة التى كان قد طردها، فإنه يعيش نفس ذلك «الألم» الشديد الذى كان قد أرغم الأنا عنده على أن تلتجىء إلى الإجراءات الدفاعية. وأخيراً، فإننا حين نتدخل فى عملية دفاعية كان الدافع إليها عند المريض خوفه من شدة غرائزه، فإنه يحدث على وجه التحديد ذلك الذى حاولت الأنا عنده فى الماضى أن تتجنبه، فمشتقات الهو، التى ظلت حتى الآن مكبوحة، تشق طريقها داخل أرض الأنا ولا تصطدم إلا بمعارضة ضئيلة.

اعتبارات تنصب على العلاج التحليلى :

إن هذا المخطط للعمليات الدفاعية يزودنا بفكرة جد واضحة عن النقط التى يمكن للعلاج التحليلى أن يواجهها. فبالتحليل تنقلب للضد العمليات الدفاعية، وينشق طريق عودة من جديد إلى الشعور للحفزات الغريزية والوجدانات التى سبق أن انطردت، وعندئذ يترك الامر للانا وللأنا العليا لتتراضيا مع هذه الحفزات والوجدانات على أساس أفضل. وفيما يتصل بحل الصراعات النفسية، يكون «تقدير التطور المقبل»[2] أكثر

(١) جمع كبت.

(٢) Prognosis.

مايكون تفاؤلا فى تلك الحالات التى كان فيها حصر الأنا العلياهو الدافع إلى الدفاع ضد الغريزة . فالصراع هنا هو بمعنى الكلمة « داخل النفس » ، ويمكن البلوغ إلى التراضى بين مختلف المنظمات النفسية ، وذلك خاصة عندما تكون الأنا العليا قد غدت أكثر انفتاحا للمنطق عن طريق تحليل التوحدات التى قام عليها صرح الأنا العليا ، وتحليل العدوانية التى تنبتها هذه الأنا العليا . فالأنا ، وقد انخفض خوفها على هـــذا النحو من الأنا العليا ، لا تكون بحاجة بعد إلى أن تلتجىء إلى الأساليب الدفاعية ، بنتائجها البوثولوجية [المرضية] .

ولكن حتى حين يكون الحصر الموضوعى هو الدافع إلى الدفاع فى العصاب الطفلى ، يكون للعلاج التحليلى أمل طيب فى النجاح . فإن أبسط طريقة — وهى أقل الطرائق مسايرة لمبادىء التحليل النفسى — بالنسبة إلى المحلل ، عندما يفرغ من قلب العملية الدفاعية إلى الضد فى نفسية الطفل ، هى أن يحاول التأثير على الواقع ، أى على أولئك المسئولين عن تنشئة الطفل ، بحيث يتضاءل الحصر الموضوعى ، الأمر الذى يترتب عليه أن تتخذ الأنا عنده اتجاها أقل تشددا من الغرائز ، فتتخلص من بذل كل تلك الجهود الكبيرة لطرد هذه الغرائز . وفى حالات أخرى يكشف التحليل عن أن ضروب الحصر المختلفة التى أدت إلى الدفاع تنتمى إلى موقف فعلى مضى عليه الآن وقت طويل . فتتبين الأنا أنه لم يعد بها حاجة الآن إلى أن تخاف من ذلك الموقف . وفى حالات أخرى أيضاً ، فإن مايبدو حصرا موضوعيا يتكشف راجعاً فى أصله إلى تصورات مسرفة ، فجة ، محرفة عن الواقع ، تستند إلى مواقف بالغة القدم كانت ذات يوم مواقف فعلية ، ولكن لم يعد لها الآن من وجود . فالتحليل يعزى هذا « الحصر

الموضوعى » ويبين أنه نتاج خيال، وليس جـــديراً باتخاذ إجراءات دفاعية ضده .

وعندما تكون الأنا قد قامت بإجراءات دفاعية ضد وجدان، تجنبا « للألم » ، تكون هناك حاجة إلى شىء آخر بالإضافة إلى التحليل لإزالة هذه الإجراءات ، إن كان للنتيجة أن تكون دائمة . فيتحتم على الطفل أن يتعلم التسامح إزاء كميات أكبر فأكبر من الألم ، دون أن يسارع ملتجئا إلى ميكانيزماته الدفاعية . ولكن ، من الناحية النظرية ، ينبغى التسليم بأن على التربية ، بأكثر مما على التحليل ، أن تلقنه هذا الدرس .

أما الحالات الباثولوجية الوحيدة التى تفشل فى أن تستجيب للتحليل استجابة مواتية فهى تلك الحالات التى كان الدافع فيها إلى الدفاع عند المريض هو خوفه من شدة غرائزه . فى مثل هذه الحالات هناك خطر من أننا يمكن أن نزيل الإجراءات الدفاعية للأنا ، دون أن نكون قادرين على أن نخف فى التو لمساعدة هذه الأنا . فنحن فى التحليل نطمئن دائماً المريض ، الذى يخاف من دخول حفزات الهو إلى الشعور عنده ، بأن نخبره بأن هذه الحفزات متى غدت شعورية تكون أقل خطورة وأكثر طواعية للضبط مما لو كانت لاشعورية والموقف الوحيد الذى يمكن لهذا الوعد أن يتكشف فيه خداعا هو ذلك الموقف الذى يكون فيه الدافع إلى الدفاع عند المريض هو خوفه من شدة غرائزه . وهذا النضال الذى يكون أقصى مايكون استماتة من جانب الأنا كيما تحمى نفسها ضد الانغمار من الهو ، كما هو الحال مثلا عندما يدخل الذهان فى مرحلة من مراحل استفحاله بين الحين والحين ، هو فى صميمه مسألة علاقات كمية . وكل ما تحتاجه الأنا فى مثل هذا الصراع هو أن تلقى التدعيم . وبقدر

ما ينجح التحليل فى تدعيم هــذه الأنا ، باستحلاب المضمونات اللاشعورية للهو داخل الشعور ، يكون للتحليل هنا أيضاً تأثيره الشافى . ولكن بقــدر مايؤدى استجلاب الأنشطة اللاشعورية للأنا داخل الشعور إلى تعرية العمليات الدفاعية وجعلها عديمة الفاعلية ، تكون نتيجة التحليل هى إضعاف الأنا بأكثر مما هى عليه من ضعف ، ومن ثم الدفع بالعملية الباتولوجية إلى الأمام .

ب . أمثلة على تجنب «الألم» الموضوعي والخطر الموضوعى (المراحل الاولية للدفاع)

الفصل السادس

الانكار فى الخيال

إن الأساليب الدفاعية التى كشف عنها التحليل حتى الآن كلها تسعى إلى هدف واحد — هو تعضيد الأنا فى نضالها ضد حياتها الغريزية . وهذه الأساليب الدفاعية تدفع إليها الأنواع الثلاثة الرئيسية للحصر التى تتعرض لها الأنا — حصر الغريزة ، والحصر الموضوعى، وحصر الضمير وبالإضافة إلى ذلك فإن مجرد نضال الحفزات الصراعية يكفى لتحريك ميكانيزمات الدفاع للعمل .

ان تقصى التحليل النفسى لمشكلات الدفاع قد تطور على النحو التالى : فبادئا من الصراعات بين منظمتى الهو والأنا (على نحو ماتتمثل فى الهستيريا والعصاب القهرى الخ) ، انتقل التحليل إلى الصراعات بين الأنا والأنا العليا (فى السوداوية) ، ثم انتقل بعد ذلك الى دراسة الصراعات بين الأنا والعالم الخارجى (قارن فوبيا الحيوانات عند الأطفال فى كتاب « الكفوف والأعراض والقلق ») . فى كل مواقف الصراع هذه تسعى الأنا إلى اقصاء جانب من حياتها الغريزية (من الهو) . وهكذا فان المنظمة التى تقيم الدفاع والقوة الغازية التى تنطردهما هما دائما ؛ أما العوامل المتغيرة فهى الدوافع التى ترغم الأنا على أن تلتجىء إلى الإجراءات الدفاعية . وهذه الإجراءات كلها مرسومة بحيث تحقق فى نهاية الأمر تأمين الانا وتجنيبها « الألم » .

إن الأنا الآن لاتدافع عن نفسها لحسب ضد « الألم » المنبعث من الداخل . ففى نفس تلك الفترة الباكرة التى أصبحت فيها عارفة للمثيرات

الغريزية الداخلية الخطرة ، كانت الأنا أيضاً تعيش « الألم » الذى يوجد مصدره فى العالم الخارجى . فالأنا هى فى علاقة وثيقة مع ذلك العالم ، الذى تستعير منه موضوعات حبها وتستمد منه تلك الانطباعات التى يسجلها إدراكها والتى يتمثلها ذكاؤها . وكلما عظمت أهمية العالم الخارجى كمصدر للذة والاهتمام ، ازدادت الفرصة فى أن تعيش الأنا « الألم » من هذه الناحية . إن أنا الطفل الصغير ماتزال تعيش وفقاً لمبدأ اللذة ؛ ويلزمها وقت طويل قبل أن تتدرب على تحمل « الألم » . وخلال تلك الفترة الباكرة يكون الطفل مايزال أضعف من أن يعارض بشكل ايجابى العالم الخارجى ، أو من أن يدافع عن نفسه بالقوة البدنية ضد ذلك العالم ، أو من أن يغير تبعاً لإرادته من ذلك العالم . وكقاعدة عامة يكون الطفل من الضعف البدنى بحيث يعجز عن الهرب ؛ ويكون ذكاؤه مايزال بعد من القصور بحيث لا يتبين فى ضوء العقل ماهو محتوم فيذعن له . فى تلك الفترة من عدم النضج والتبعية ، فإن الأنا ، بالإضافة الى ماتبذله من جهـــود للسيطرة على المثيرات الغريزية ، تحاول بشتى الطرق أن تدافع عن نفسها ضد «الألم» الموضوعى والاخطار الموضوعية التى تهددها .

وحيث أن نظرية التحليل النفسى تقوم على البحث فى الأعصبة ، فمن الطبيعى إن كان على الملاحظة التحليلية أن تتركز بشكل أولى طوال الوقت على الصراع الداخلى بين الغرائز والأنا ، هذا الذى تعد الأعراض العصابية نتيجته . ان الجهود التى تبذلها أنا الطفل لتجنب « الألم » بالمقاومة المباشرة للانطباعات الخارجية تنتمى إلى مجال علم نفس السوية ونتائج هذه الجهود يمكن أن تكون بالغة الأهمية فيما يتصل بتكوين الأنا وتكوين الشخصية (الخلق) ، ولكنها ليست مولدة للمرض .

وفى المؤلفات التحليلية الكلينيكية فإن هذه الوظيفة النوعية للانا — عندما ترد الإشارة إليها — لاتعتبر قط الموضوع الرئيسى للبحث ، بل بحسب مجرد نتاج جانبى للملاحظة .

فلنتناول فوبيا الحيوانات عندهانز الصغير فهى تزودنا بمثال اكلينيكى على العمليات الدفاعية التى تتجه فى نفس الوقت ، وكل فيما يخصه ، ضد الداخل وضد الخارج ، فعصاب الطفل الصغير[1]، فيما يقال لنا ، كان يستند إلى حفزات ترتبط بشكل عادى تماما بالعقدة الأوديبية . كان يحب أمه ، وبدافع الغيرة اتخذ من ابيه اتجاها عدائيا ، لم يلبث أن دخل بشكل ثانوى فى صراع مع حبه لأبيه . وهذه الحفزات العدوانية ابتعثت عنده حصر الخصاء — هذا الذى عاشه الطفل على أنه حصر موضوعى — وهكذا فإن مختلف ميكانيزمات الدفاع ضد الغرائز تحركت إلى العمل . كانت الأساليب الدفاعية التى استخدمت فى عصابه هى النقل — من أبيه إلى حيوان الحصر — والقلب للضد للتهديد الذى يتجه منه إلى أبيه ، بمعنى تحويل هذا التهديد إلى حصر لئلا يتعرض هو نفسه للتهديد من جانب أبيه . وأخيراً ، وكيما يكتمل تحريف اللوحة الواقعية ، كان هناك نكوص إلى المستوى الفمى : فكرة أن يُعَض . والميكانيزمات الدفاعية قد حققت على أكمل نحو ماتستهدفه من طرد الحفزات الغريزية لحبه الليبيدى المحرم تجاه أمه ، وعدائيته الخطرة تجاه أبيه ، كلاهما اختفى من شعوره . حصر الخصاء عندة المرتبط بأبيه قد ارتبط — فى صورة عرض خوف — بالأحصنة ؛ ولكن فى مسايرة لميكانيزم الفوبيا ، فإن

---

(١) قارن الوصف الذى جاء فى كتاب « الكفوف والأعراض والقلق » .

نوبات الحصر قد تم تجنبها بكف عصابى — فهانز الصغير قد تخلى عن الخروج من البيت .

وأثناء تحليل هانز الصغير كان لابد من قلب للضد لهذه الميكانيزمات الدفاعية . فحفزاته الغريزية جرى تخليصها من التحريف، وحصره جرى تفكيكه عن فكرة الأحصنة وأعيد إلى الوراء إلى موضوعه الأصلى ، إلى أبيه ، الأمر الذى بعده جرت مناقشة هذا الحصر وتهدئته ، وبيان عدم استناده إلى أساس موضوعى .وعندئذ كان بوسع حبه لأمه أن ينبعث من جديد ، وأن يترجم عن نفسه بعض الشىء فى سلوكه الشعورى إذ لم يعد حبه لها — وقد اختفى الآن حصر خصائه — أمراً خطراً . هذا إلى أن حصرة وقد انقشع ، لم تعد هناك من حاجة إلى النكوص ، الذى كان ذلك الحصر قد ارغمه عليه ، فأصبح بوسع هانز أن يبلغ من جديد إلى المستوى الذكرى من النمو الليبدى . وهكذا شفى الطفل من عصابه .

ونكتفى بهذا القدر عن تطورات العمليات الدفاعية التى كانت تتجه عنده ضد الغرائز .

ولكن ، حتى بعد ان اتاح التفسير التحليلى للحياة الغريزية عند هانز الصغير أن تستأنف مسارها العادى ، فإن عملياته النفسية ظلت لبعض الوقت تعانى الأضطراب . كانت تواجهـــه على الدوام واقعتان موضوعيتان ، كان بالنسبة اليهما مايزال عاجزاً عن أن يتصالح معهما . فبدنه (وعلى الأخص قضيبه) كان بالطبع أصغر من ذلك الذى لأبيه ، وهكذا بقى هذا الأب متميزاً كمنافس ، ولم يكن بوسع هانز أن يأمل فى التفوق عليه. وبذلك بقى سبب موضوعى للحسدوالغيرة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المشاعر قد امتدت إلى أمة وأخته : كما يحسدهما لأنهما

عندما كانت أمه تقوم برعاية الحاجات البدنية للرضيعة ، كانا يتشاطران اللذة ، بينما هو نفسه يقتصر على دور المشاهد . وليس لنا — إلا بالكاد — أن نتوقع من صبى فى الخامسة أن يبلغ من الوعى والاستبصار الفطن مايمكنه من ترويض نفسه على هذه الإحباطات الموضوعية ، معللا نفسه ربما بآمال فى الإشباع فى يوم مامن المستقبل جد البعيد ، أو ربما متقبلا على أية حال هذا « الألم » . على نحو ما انتهى به الأمر إلى أن يتقبل وقائع حياته الغريزية الطفليه ، عندما أتيح له أن يتبينها على المستوى الشعورى .

ومن البيان التفصيلى لتاريخ هانز الصغير « تحليل فوبيا عند صبى فى الخامسة » ، نتبين أن ماتأدت إليه هذه الإحباطات الموضوعية كان فى واقع الأمر شيئاً جد مختلف . ففى نهاية تحليله روى هانز حلم يقظة : أخيولة أن له عدداً من الأطفال يقوم على رعايتهم وتنظيفهم فى المرحاض وبعد ذلك مباشرة أخيولة السمكرى الذى نزع بالكماشة مؤخرة هانز وقضيبه ، كيما يعطيه فى مكانهما مؤخرة وقضيباً أكبر وأحسن . ولم يجد المحلل (وهو أب هانز) أية صعوبة فى أن يتبين فى هاتين الأخيولتين تحقيق رغبتين لم يتح لهما قط فى الواقع أن تتحققا . أصبح لدى هانز الآن — على الأقل فى الخيال — قضيباً كهذا الذى لأبيه ، وأصبح لديه أيضاً أطفال بوسعه أن يفعل معهم ما كانت تفعلة أمة مع أخته الصغيرة .

وحتى قبل أن يروى هانز الصغير هاتين الأخيولتين كان قد تخلص من الأجورافوبيا [رهاب الإماكن] ، ولكنه الآن ، بهذا الإنجاز النفسى الجديد ، عاد إليه آخر الأمر مزاجه المرح . فقد أعانته الأخيولتان على أن يصالح نفسه مع الواقع ، تماما كما مكنه عصابه من أن يبلغ إلى حل مع حفزاته الغريزية . ولنتبينه إلى أن الاستبصار الشعورى لم يلعب

هنا أى دور « فهانز » عن طريق حيالة ، بلغ إلى إنكار الواقع؛ لقدعدل من الواقع بحيث يتلاءم مع أغراضه ، وبحيث يحقق رغباته ، وعندئذ ، وعندئذ فقط كان بوسعه أن يتقبل الواقع .

ومن شأن دراستنا للعملية الدفاعية ، على نحو ماتكشفت فى تحليل هانز الصغير أن توحى بأن مصير عصابة قد تحدد منذ اللحظة التى قام فيها بنقل عدوانيته وحصره من أبيه إلى الأحصنة . ولكن هذا الأنطباع خداع . فمثل هذا الإبدال — الذى يصنع حيوانا فى مكان موضوع بشرى — ليس فى ذاته عملية عصابية ، فهو كثيراً مايحدث فى النمو السوى للأطفال ؛ ولكنه عندما يحدث تتباين النتائج إلى أقصى حد .

على سبيل المثال ، صبى فى السابعة قمت بتحليله ، كان من عادته أن يسلى نفسة بالأحيولة التالية . كان لديه أسد مستأنس[1] يرعب كل الناس الآخرين ، ولايحب أحداً من الناس سواه . كان الأسد يحضر إليه عندما ينادى عليه ، ويتبعه كـكلب صغير أينما ذهب . وكان الصبى يقوم على رعاية الأسد ، يتولى أمر طعامه وراحتة بصورة عامة ، وفى المساء يهيىء له فراشا فى غرفته . وكما هى العادة فى أحلام اليقظة التى تتتابع يوما بعد يوم . غدت الأخيولة الرئيسية نواة لعدد من الأحداث السارة . كان هناك ، على سبيل المثال ، حلم يقظة رأى نفسه فيه وقد ذهب إلى حفلة تنكرية ، فأخبر كل الناس بأن الأسد الذى جاء فى صحبته لم يكن غير صديق فى ملابس تنكريه . ولم يكن ذلك صحيحاً ، لأن « الصديق المتنكر » لم يكن فى حقيقةالأمر غير اسده . كان يبتهج عندما

---

(١) بمعنى أنه « جرى تدريبه على أن لايهاجم الكائنات البشرية » أنظر فيما بعد ص ٨٠ — هامش الترجمة العربية .

يتخيل ما يمكن أن يكون عليه الناس من ارتعاب ، لو أنهم حد سواسرّه .
وفى نفس الوقت كان يشعر بأن ليس هناك من سبب حقيقى يبعثهم على الحصر ، لأن الاسد كان لا يؤذى أحداً طالما كان تحت هيمنته .

ومن تحليل هذا الصبى الصغير ، كان من اليسير أن نتبين أن الأسد كان عنده بديلا عن الأب ، هذا الذى كان صبينا ، كهانز الصغير ، يكرهه ويخافه كمنافس حقيقى له فيما يتصل بأمه . عند هذين الطفلين تحولت العدائية إلى حصر ، وعانى الوجدان نقلا من الأب إلى حيوان . ولكن أساليبهما التالية فى معالجة وجداناتهما كانت متباينة . فهانز اتخذ من خوفه من الأحصنة أساساً لعصابه ، بمعنى أنه فرض على نفسه التخلى عن رغباته الغريزية ، واستدخل الصراع بكليته . وراح ، فى مسايرة لميكانيزم الفوبيا ، يتجنب مواقف الغواية . أما مريضى فقد كانت معالجته للأمر أدعى إلى راحته . فهو كهانز فى اخيولته عن السمكرى ، قام ببساطة بإنكار واقعة أليمة ، ولكنه فى أخيولته عن الأسد قلب هذه الواقعة إلى ضدها السار . جعل من حيوان الحصر صديقه ، وقوته بدلا من أن تكون مصدر رعب أصبحت الآن فى خدمته . والشىء الوحيد الذى يشير إلى أن الأسد كان فى الماضى موضوعا الحصر عنده ، هو حصر الناس الآخرين ، على نحو ما صورته الأحداث التى كان يتخيلها[1].

وإليك اخيولة أخرى عن الحيوانات لصبى فى العاشرة . فنى فترة بعينها من حياة هذا الصبى اضطلعت الحيوانات بدور عظيم الأهمية فى حياته : كان يقضى ساعات بأكملها فى المرة الواحدة فى أحلام اليقظة

---

(١) تقدم برتا بورنشتاين وصفا لأخاييل صبى فى السابعة ، كانت فيها الحيوانات الطيبة تتحول بطريقة مشابهة إلى حيوانات شريرة . ففى كل مساء كان الصبى يضم حيواناته من اللعب حول فراشه كآلهة حارسة ، ولكنه كان يتخيل أنها كانت تتحالف ضده أثناء الليل مع حيوان مخيف يرعد أن يهاجمه .

التى يتخيل فيها هذه الحيوانات ؛ بل إنه احتفظ بتسجيلات كتابية لبعض الأحداث التى تخيلها . فى هذه الأخيولة كان لديه سيرك هائل ، وكان فى نفس الوقت مروض أسود . إن أعظم الحيوانات الوحشية ضراوة ، والتى تقتتل حتى الموت وهى طليقة ، كان يجرى تدريبها على أن تعيش معاً فى محبة . كان مريضى الصغير يقوم على ترويضها ، بمعنى أنه كان يدربها أولا على أن لا يهاجم بعضها بعضا ، ثم يدربها بعد ذلك على أن لا تهاجم الكائنات البشرية . ولم يكن من عادته قط ، وهو يروضها ، أن يستخدم السوط ، بل كان يمضى بينها وهو أعزل .

كانت كل الأحداث التى يتخيلها عن الحيوانات تتكشف فى القصة التالية . فذات يوم ، أثناء استعراض تشترك فيه كل الحيوانات ، كان لص يجلس بين جمهور النظارة ، وفجأة أطلق النار من مسدسه على مريضنا . وفى التو تجمعت كل الحيوانات معاً لتحميه ، وسحبت اللص من بين الجمهور ، فى حرص منها على أن لا تؤذى أى شخص آخر . وكانت بقية الأخيولة تدور حول الطريقة التى بها — يحدوها دائماً تفانيها فى خدمة سيدها — أنزلت العقاب باللص . احتفظت الحيوانات باللص سجينا ، ووارته مظفرة تحت برج هائل من أبدانها . ثم قادته بعد ذلك إلى مغارتها ، حيث كان عليه أن يمضى ثلاث سنوات . وقبل أن تطلق الحيوانات سراحه فى آخر الأمر ، انهالت عليه الفيلة فى صف طويل ضربا بخراطيمها ، وهددته فى النهاية باصبع مرفوعة إلى أعلى (!) وهى تحذره من أن يعود قط إلى ذلك مرة أخرى . وقد وعد اللص بذلك . « إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى طالما كنت مع حيواناتى الضارية . » وبعد هذا الوصف لكل هذا الذى أنزلته الحيوانات باللص كان هناك تذييل غريب لهذه الأخيولة ، يشتمل على توكيد بأن الحيوانات قد قامت بإطعام اللص على نحو جيد جداً عندما كان سجينا عندها ، بحيث لم يصبه الضعف .

فى أخيولة صبى السابعة كنا بإزاء علامة صريحة على وجود تناقض عاطفى فى الإتجاه من الأب . أما أخيولة السيرك فتوغل فى هذا الصدد إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير . فبنفس عملية القلب للضد يتحول الأب المرهوب فى الواقع إلى الوحوش الحامية فى الأخيولة ، ولكن الوجه الأبوى المرهوب يعود هو نفسه إلى الظهور من جديد فى صورة اللص. فى أخيولة الأسد لم يكن من الواضح ضد مَن من الأشخاص سيقوم البديل الأبوى فى الواقع بحماية الطفل ، هذا الذى لم يحقق له امتلاكه للأسد أكثر من أن رفع من قيمته بشكل عام فى نظر الآخرين . أما فى أخيولة السيرك ، فمن الواضح تماما أن قوة الأب ، وقد تجسدت فى الحيوانات الضارية ، تعمل كحماية ضد الأب نفسه . ومرة أخرى فإن التوكيد على الضراوة السابقة للحيوانات يشير إلى أنها كانت بالنسبة إلى الصبى فى الماضى موضوعات حصر . ومن الواضح أن قوتها ومهارتها، خراطيمها وأصبعها المرفوعة إلى أعلى ، كانت مرتبطة فى الواقع بالأب . كان الصبى يولى أهمية كبيرة لهذه الخصائص : ففى الأخيولة يستعير الصبى هذه الخصائص من الأب الذى هو موضع حسده ، وهو إذ يتبناها لنفسه يتفوق على أبيه . وهكذا فدوراهما قد عانيا قلبا للضد . فقد كان التحذير إلى الأب بأن « لا يعود إلى ذلك مرة أخرى » ، وكان على الأب أن يطلب العفو . وثمة نقطة جديرة بالملاحظة هى أن الوعد بالأمان ، الذى أكرهته الحيوانات على أن يعطيه للصبى ، يتوقف على استمرار امتلاك الصبى لهذه الحيوانات . وفى « التذييل » المتصب على إطعام اللص ينتصر فى النهاية ذلك الجانب الآخر من التناقض العاطفى فى علاقته بأبيه . ومن الواضح أن حالم اليقظة هذا قد وجد نفسه مضطراً إلى أن يطمئن نفسه بأنه لم تكن هناك من حاجـــة ، على الرغم من كل أفعاله العدوانية ، إلى أن يخاف على حياة أبيه .

إن الموضوعات التى تظهر فى هاتين الأخيولتين لهذين الصبيين ليست بحال قاصرة عليهما : فهى موضوعات شائعة بشكل مطلق فى الحكايات الخرافية وفى القصص الخيالية عند الأطفال الآخرين [١] . وإنى لأذكر فى هذا الصدد تلك الحكاية التى نلتقى بها فى الفولكلور وفى الحكايات الخرافية عن الصياد والحيوانات . صياد طرده ملك شرير ذات يوم ظلما، بسبب ذنب تافه ، فأقصى عن بيته بالغابة . وعندما حان وقت رحيله قام بنزهة وداع فى الغابة ، وقلبه ينفطر حنقا وحزنا . التقى على التعاقب بأسد ، ثم بنمر ، ثم بفهد ، بدب الخ . وفى كل مرة كان الصياد يسدد بندقيته إلى الوحش الكبير ، وكان الوحش الكبير لدهشته يتكلم فى كل مرة ، يتوسل إليه بأن يبقى على حياته .

(« صيادى العزيز ، هب لى حياتى
أهبك جروين من بنى وبناتى » [٢])

كان الصياد يوافق دائما على الصفقة ؛ ومضى فى طريقه ومن حوله هاتيك الجراد التى أهديت إليه . وفى نهاية الأمر اجتمع لديه رتل هائل من صغار الحيوانات الضارية ؛ وإذ تبين الآن أن لديه جيشا جرارا يمكن أن يقاتل من أجله ، سار به إلى العاصمة ، وهناك اتجه رأسا إلى قلعة الملك . وارتعب الملك خوفا من أن يطلق الصياد حيواناته عليه ، فأصلح من الظلم الذى كان قد أنزل به ، وفضلا عن ذلك تنازل له ، وقد استبد به الحصر ، عن نصف مملكته ومنحه ابنته ليتزوج بها .

---

(١) يذكرنا هذا بموضوع « الحيوانات التى تضطلع بالنجدة » ، وهو الذى نلتقى به فى الأساطير ، والذى كان محل النقاش بين الحين والحين من كتاب التحليل النفسى ، وأن يمكن ذلك حتى الآن من زاوية تختلف عن زاويتنا الحالية . قارن :
O. Rank, 'Der Mythus von der Geburt des Helden', Schriften Zur argewandten Seelenkunde, Heft 5, S. 87 ff.

(٢) 'Lieber Jager, less mich leben Ich will der auch zwei Junge geben!'

من الواضح أن الصياد فى الحكاية الخرافية يمثل أبنا فى صراع مع أبيه . والصراع بينهما ينحسم بطريقة غريبة ملتفة . فالصياد يلجم نفسه عن الثـــأر من الحيوان المتوحش الكبير الذى هو أول بديل أبوى . ومكافأة له على ذلك تهدى إليه تلك الجراء التى تجسد قوة ذلك الحيوان . وبهذه القوة الجديدة التى اكتسبها يبلغ إلى هزيمة أبيه ويرغمه على أن يقدم إليه زوجة . ومرة أخرى فإن الموقف الواقعى يعانى قلبا للضد . ابن قوى يجابه أباه ، هذا الذى يرتعب من ذلك الإستعراض للقوة ، فيستسلم لابنه ويحقق له كل رغباته . إن الأساليب المستخدمة فى الحكاية الخرافية هى على التحديد نفس الأساليب المستخدمة فى أخيـــولة السيزك عند مريضى .

وبالإضافة إلى هذه الحكايات عن الحيوانات ، فإننا نلتقى فى القصص من أجل الأطفال بنظير آخر لأخاييل الأسد عند مريضى الصغير . فى كثير من تلك الكتب من أجل الأطفال — التى ربما تكون أكثرها استلفاتا : « اللورد الصغير فونتلروى[١] » و « البكباشى الصغير[٢] » — نلتقى بطفل صغير (صبيا أو بنتا) ينجح ، على العكس من التوقعات ، فى « ترويض » رجل عجوز سيء الطبع ، يتميز بقوته أو بثرائه ، وبأن كل الناس يخافونه . ولكن هذا الطفل وحده يستطيع أن يحرك قلب العجوز ، ويبلغ إلى كسب حبه ، على الرغم من أن ذلك العجوز يكره كل الآخرين . وينتهى الأمر بالرجل العجوز ، الذى ليس لأحد من سلطان عليه ، بل وليس لنفسه من سلطان على نفسه ، إلى أن يذعن لتأثير الطفل الصغير وسلطانه ، بل وإلى أن يأتى بكل ضرب من الأعمال الطيبة من أجل الآخرين .

---

(١) Alice Hodgson Burnett, Little Lord Fauntlroy.

(٢) Annie Fellawes Johnston, The Little Colonel.

وهذه القصص ، شأنها شأن الأخاييل عن الحيوانات ، تكتسب طابعها السار عن طريق قلب للضد تماما للموقف الواقعي . فالطفل يتبدى ليس فقط ذلك الشخص الذي يملك ويهيمن على الوجه الأبوى القوى (الأسد) ومن ثم يتفوق على كل من حوله : بل أيضا ذلك المربى الذى يحول الشر تدريجيا إلى خير. وليتذكر القارىء هنا أن الأسد فى الأخيولة الأولى (ص ٧٨) جرى تدريبه على أن لا يهاجم الكائنات البشرية ، وأن حيوانات مروض السيرك (ص٧٩ — ٨٠) كان عليها أن تتدرب أولا وقبل كل شيء على أن تتحكم فى حفزاتها العدوانية ضد بعضها البعض وضد الكائنات البشرية. فى هذه القصص من أجل الأطفال عانى الحصر المتصل بالأب نقلا بنفس الطريقة التى عاناها فى الأخاييل عن الحيوانات . وهذا الحصر يفضح نفسه فى حصر الناس الآخرين ، الذين يقوم الطفل على طمأنتهم ، ولكن هذا الحصر البديلى هو مصدر إضافى للسرور .

فى أخيولتى هانز الصغير ، وفى الأخاييل عن الحيوانات عند مرضاى الصغار ، نتبين أن الأسلوب الذى يتم به تجنب « الألم » والحصر الموضوعى هو غاية فى البساطة . فالأنا عند الطفل ترفض أن تكون على وعى بواقع ما غير سار . بادىء ذى بدء تدير ظهرها لذلك الواقع ، فتقوم بإنكاره ، وفى الخيال تقلب للضد الوقائع الكريهة . وبذلك فإن الأب « الشرير » يصبح فى الخيال الحيوان الحامى ، بينما الطفل العاجز يصبح المهيمن على البدائل الأبوية القوية . فإذا ما نجح هذا التحول ، وأصبح الطفل عن طريق الأخاييل التى يبنيها ، غير حافل بذلك الواقع المعنى ، تخلصت الأنا عنده من الحصر ، ولم تعد بها حاجة إلى أن تلتجىء إلى الإجراءات الدفاعية ضد حفزاتها الغريزية وإلى تكوين العصاب .

وهذا الميكانيزم ينتمى إلى مرحلة سوية من مراحل تطور الأنا الطفلية ، ولكنه إذا ما عاود الظهور فى الحياة اللاحقة يكون علامة على

مرحلة متقدمة من المرض النفسى . فى بعض الحالات الذهانية الخلطية الحادة ، تتصرف أنا المريض تجاه الواقع بنفس الطريقة على التحديد . فتحت تأثير صدمة ، من قبيل فقدان مفاجىء لموضوع الحب، تقوم الأنا عنده بإنكار الوقائع ، وبإبدال الواقع الذى لايحتمل ، واضعة فى مكانه هذاء ساراً .

وعندما نقارن أخاييل الأطفال بهذاءات الذهانيين تتبين السبب فى أن الأنا البشرية لا تستطيع أن تستخدم على نحو أكثر اتساعا ذلك الميكانيزم — الذى هو فى آن واحد بالغ البساطة وفائق الفاعلية إلى أقصى حد — ميكانيزم إنكار المصادر الموضوعية للحصر و « الألم » . فقدرة الأنا على إنكار الواقع هى، بكليتها متنافرة مع وظيفة أخرى للأنا تحظى منها بأعظم التقدير — ألا وهى قدرة الأنا على أن تتبين وعلى أن تختبر من زاوية نقدية واقع الأشياء . وفى الطفولة الباكرة لايكون لهذا التنافر بعد تأثير يبعث على الاضطراب . فعند هانز الصغير، وعند الصبى الذى يقتنى الأسد ، وعند الصبى مروض السيرك ، فإن وظيفة اختبار الواقع لم يصبها على الإطلاق أى تلف . فهم بالطبع لم يعودوا يعتقدون فى الواقع فى وجود حيواناتهم ، أو فى تفوقهم على آبائهم . فعلى المستوى العقلى ، كان بوسعهم أن يميزوا بين الخيال والواقع ، ولكنهم فى مجال الوجدانات أزالوا الوقائع الموضوعية الأليمة ، وقاموا بشحن زائد لتلك الأخيولة التى فيها انقلبت للضد هذه الوقائع الأليمة ، بحيث تغلبت اللذة التى يستمدونها من الخيال على « الألم » الموضوعى .

وليس من اليسير أن نقول متى تفقد الأنا قدرتها على أن تتغلب ، عن طريق الخيال ، على كميات كبيرة من « الألم » الموضوعى . فنحن نعرف بأن أحلام اليقظة ، حتى فى الحياة الراشدة ، يمكن أن تستمر فى أن تلعب دوراً ، حينا بالتوسيع من حدود واقع مسرف فى ضيقه ، وحيناً بقلب

الموقف الواقعي لضده تماما . ولكن حلم اليقظة في الحياة الراشدة غالباً مايكون ضرباً من لعب التسلية ، نوعامن النتاج الجانبي لا ينطوى إلا على شحنة ليبيدية هينة ، وهو وسيلة لا تبلغ في أقصى الحالات إلا إلى السيطرة على كميات تافهة تماما من الكدر ، أو إلى تزويد صاحبها بتخفف وهمى من « ألم » قليل الشأن . ويبدو أن الأهمية التي تكون في الأصل لحلم اليقظة كوسيلة للدفاع ضد حصر موضوعى تتلاشى عندما تبلغ أبكر مراحل الطفولة إلى نهايتها. وذلك من ناحية ،على مانفترض ، لأن القدرة على اختبار الواقع تكون من الزاوية الموضوعية قد تدعمت ، بحيث تستطيع الصمود حتى فى مجال الوجدان ؛ ونحن نعرف من ناحية أخرى أن حاجة الأنا ، فى الحياة الراشدة ، إلى التأليف بين الأضداد تجعل من المستحيل على المتضادات أن تتعايش معاً ؛ ومن الممكن أيضاً أن يكون ارتباط الأنا الناضجة بالواقع هو بصورة عامة أقوى من ارتباط الأنا الطفلية بالواقع ، بحيث يكون من طبيعة الأمور أن يتوقف الخيال عن أن يحظى بتقدير عال على نحو ماكان عليه الحال فى السنوات الباكرة . وعلى أية حال فمن المؤكد أن الإشباع عن طريق الخيال يتوقف فى الحياة الراشدة عن أن يكون غير ضار . فلا يكاد الأمر ينطوى على شحنات كبيرة من الطاقة بدرجة تستحق الإعتبار حتى يصبح الخيال والواقع متنافرين : فإما الواحد وإما الآخر . ونحن نعرف أيضاً أن حفزة الهو إذ تتفجر داخل الأنا وتبلغ هناك إلى الإشباع عن طريق الهلوسة فذلك مايترجم عند الراشد مرضا ذهانيا فالأنا التى تحاول أن تتجنب الحصر وتتجنب التنازل عن الغريزة وتتجنب العصاب وذلك بإنكار الواقع إنما تسرف فى إجهاد هذا الميكانيزم . ولو حدث ذلك أثناء فترة الكمون لنشأت بعض سمات الشخصية (الخلق) اللاسوية ، على نحو ماحدث عند الصبيين اللذين أوردت حالتيهما . ولكن لو حدث ذلك فى الحياة

الراشدة ، لاهتزت بعمق علاقات الأنا بالواقع[١].

وإننا لانعرف حتى الآن على وجه التحديد هذا الذى يتم فى الأنا الراشدة عندما تفضل الإشباع الهذائى متنازلة عن وظيفة اختبار الواقع. فهذه الأنا تفصم نفسها عن العالم الخارجى وتتوقف تماما عن تسجيل المثيرات الخارجية .. ومثل هذا الانعدام للحساسية بالنسبة للمثيرات الداخلية لا يمكن تحقيقه فى مجال الحياة الغريزية إلا بطريقة واحدة لاغير — هى الكبت.

---

(١) أود هنا أن أذكر قرائى بأن العلاقة بين ميكانيزم الإنكار والمرض النفسى من ناحية وبينه وبين تكوين الشخصية (الخلق) من ناحية أخرى ، قد حظيت فى السنوات الأخيرة بالدراسة من جانب كثيرين من كتاب التحليل . فهلينا دويتش تتناول دلالة هذه العملية الدفاعية فى نشأة الحالات المزمنة من الهيبومانيا (الهوس الهين) .

(Zur Psychologie der manisch — degressiven Zustände, insbesondere der chronischen Hypomonia' Inter. Zeit. für Psychoanalyse, 1933).

وابرترام ليفين يصف كيف يستخدم هذا الميكانيزم نفسه من جانب أنا اللذة التى نشأت حديثا عند مريض الهيبومانيا :

(Analyse und Struktur einer passageren Hypomanie. Ibid., 1934).

وأنى آنجل تبرز العلاقة بين الإنكار والتفاؤل :

(Einige Bemerkungen über den Optimismus, Ibid., 1934).

الفصل السابع

الإنكار فى الكلمة والفعل

إن الأنا الطفلية يظل بوسعها لبضع سنوات أن تتخلص من الوقائع الكريهة عن طريق إنكارها ، مع احتفاظها فى نفس الوقت بقدرتها على اختبار الواقع غير معطلة . فالأنا تستخدم هذه القدرة إلى أقصى حد ممكن ، إذ لا تقصر نفسها فحسب على مجال الأفكار والخيال ، لأنها لا تقنع فقط بأن تفكر ، بل وتعمل . إنها تستخـــدم كل نوع من الموضوعات الخارجية كيما تمسرح (تفرغ فى قالب مسرحى) تلك المواقف الواقعية التى تقلبها إلى ضدها . وإنكار الواقع هو أيضا بالطبع واحد من الدوافع الكثيرة المسئولة عن ألعاب الأطفال بصفة عامة ، وعن الألعاب التى تحاكى الشخصيات بصفة خاصة .

ويحضرنى هنا كتيب من الأشعار لمؤلف انجليزى ، يتم فيه ، بطريقة تبعث على السرور بشكل خاص وصف تساوق الخيال والواقع فى حياة الطفل بطل القصة . وإنى أشير هنا إلى كتيب ملنه A.A. Milne «عندما كنا جد صغار » . ففى غرفة نوم طفل الثالثة هذا توجد أربعة مقاعد . عندما يجلس فى المقعد الأول يكون مستكشفا ، يمخر عباب الأمازون فى الليل . وفى المقعد الثانى يكون أسداً ، يرعب خادمته بالزئير ؛ وفى المقعد الثالث يكون قبطانا يدير دفة سفينته فى عرض البحر . ولكنه فى المقعد الرابع ، وهو من مقاعد الأطفال العالية ، يحاول أن يتظاهر بأنه ببساطة هو نفسه ، مجرد صبى صغير . وليس من العسير أن نتبين ما يقصد إليه المؤلف : إن العناصر التى تلزم الطفل كما يبنى عالما لاذا من الخيال

تمثل جاهزة بين يديه ، ولكن المهمة التى عليه أن ينجزها هى أن يتبين ويتمثل أحداث الواقع .

ومن الأمور العجيبة أن يكون الراشدون على ما هم عليه من استعداد لاستخدام نفس هذا الميكانيزم فى تعاملهم مع الأطفال . فقدر كبير من اللذة التى يمنحونها للأطفال يرجع إلى هذا الضرب من إنكار الواقع . فمن الأمور المألوفة تماما أن يقولوا حتى لطفل صغير « أى فتى كبير هو » ، وأن يعلنوا ، على العكس من الوقائع الساطعة ، بأنه « قوى كأبيه » ، أو « بارع كأمه » ، أو « شجاع كجندى » ، أو « متين كأخيه الكبير » . ومما يعد مألوفا بدرجة أكبر أن الناس عندما يرغبون فى طمأنة طفل ، يلجأون إلى مثل هذه الأشكال من قلب الوقائع الحقيقية لضدها . فعندما يصيب نفسه بأذى ، يؤكد الكبار بأنه « الان أحسن » ، وعندما يعاف طعاما يؤكد الكبار بأنه « كريه بعض الشىء ، أليس كذلك ؟ » ، وعندما يكتئب لرحيل شخص ما يؤكد الكبار بأنه « سوف يعود حالا » . وبعض الأطفال يلتقطون فى الواقع عبارات العزاء هذه ، فيستخدمون تعبيرات نمطية فى وصفهم لما هو أليم . من قبيل ذلك ، بنت صغيرة فى الثانية من العمر كان من عادتها ، كلما غادرت أمها الغرفة ، أن تعلن هذه الواقعة بدمدمة آلية « ماما سوف تعود حالا » . وطفل (انجليزى) آخر كان من عادته ، كلما كان عليه أن يتعاطى دواء كريها ، أن يصرخ فى صوت منتحب قائلا « حلو ، حلو » — مما يمثل جزءاً من عبارة كانت تستخدمها خادمته لتشجعه على أن يعتقد بأن نقط الدواء طعمها حلو .

وكثرة من الهدايا التى يقدمها الزائرون الراشدون إلى الأطفال تخدم نفس ذلك الوهم فحقيبة اليد الصغيرة ، أو المظلة الأنيقة تهدف الى أن تعين البنت الصغيرة على أن تتظاهر بأنها « سيدة مكتملة » ؛ وعصا

السير ، والزى الرسمى ، و « الأسلحة — اللعب » من كل نوع تمكن الصبى الصغير من أن يحاكى الرجولة . والواقع أنه حتى العرائس ، بالإضافة إلى نفعها فى كل أنواع اللعب الأخرى ، تخلق وهم الأمومة ؛ بينما السكك الحديدية ، والسيارات ، وقوالب البناء لا تقتصر على إشباع رغبات مختلفة وعلى التزويد بفرص الإعلاء ، ولكنها تثير فى نفوس الأطفال ذلك التخيل اللذيذ بأنهم يستطيعون التحكم فى العالم . عند هذه النقطة ننتقل من دراسة عمليات الدفاع والتجنب ، بمعنى الكلمة ، إلى دراسة شروط اللعب عند الأطفال ، وهو موضوع قام علم النفس الأكاديمى بدراسته ، على نحو مستفيض ، ومن زاويا مختلفة .

كل ذلك يوحى بسبب آخر من الناحية النظرية لذلك الصراع الأبدى بين الطرائق المتباينة فى تربية الأطفال (فروبل ضد مونتسورى) . ونقطة الجدل فى الواقع هى : إلى أى حد يتحتم على التربية أن تضطلع بمهمة التأدى بالأطفال ، حتى فى أبكر أعمارهم ، إلى أن يكرسوا كل جهودهم يتمثل الواقع ؛ وإلى أى حد يكون من المسموح به للتربية أن تشجعهم على أن يتحولوا عن الواقع وأن يقيموا عالما من الخيال .

وعندما يوافق الراشدون على الدخول فى هذه الأوهام التى يحول الأطفال بها واقعاً أليما إلى ضده ، فإنهم إنما يفعلون ذلك دائماً أبداً تحت شروط محددة وبعينها . إنهم يتوقعون من الأطفال أن يعيشوا أخاييلهم ضمن حدود واضحة المعالم تماما . فالطفل الذى كان منذ لحظة حصانا أو فيلا ، يتجول على أربع ، يصهل كالخيل أو يصيح كالفيلة ، يتحتم عليه أن يكون على استعداد ، عندما تصدر إليه إشارة ، لأن يأخذ مكانه على المائدة ، ولأن يكون هادئا حسن السلوك . ومروض الأسود يتحتم عليه هو نفسه أن يكون على استعداد لأن يطيع خادمته . والمستكشف أو القرصان يتحتم عليه أن يذعن ذاهبا إلى فراشه فى نفس اللحظة تماما

التى يبدأ فيها حدوث أعظم الأمور إثارة للاهتمام فى دنيا الكبار. فالاتجاه المتسامح عند الكبار من ميكانيزم الإنكار عند الطفل يتلاشى فى اللحظة التى يتوقف فيها الطفل عن التحول من الخيال إلى الواقع، طواعية ودون تلكؤ أو تعقيد، أو عندما يحاول الطفل أن يشكل سلوكه الواقعى وفق أخاييله — وبعبارة ادق، فى اللحظة التى يتوقف فيها نشاطه الأخيولى عن أن يكون لعبا ليصبح عملية آلية او قهريه .

بنت صغيرة أتيح لى أن ألاحظها كانت عاجزة عن أوبن تتقبل واقعة الاختلاف بين الجنسين. كان لها أخ يكبرها وأخ يصغرها؛ وكانت مقارنتها بين نفسها وبينهما مصدراً دائماً « لألم » شديد، مما أرغمها بشكل أو آخر على أون تدافع عن نفسها ضد هذا «الألم» أو أن تتخلص منه وفى نفس الوقت لعبت الإستعراضية عندها دوراً هاما فى تطور حياتها الغريزية، ومن ثم فإن حسدها للقضيب ورغبتها فى القضيب اتخذا عندها صورة الرغبة فى أن يكون لها، كأخويها، شىء تستعرضه . ونحن نعرف مما يحدث عند أطفال آخرين، أن هناك أساليب متباينة كان يمكن بها أن تشبع هذه الرغبة . فصبابتها إلى أن تستعرض شيئاً، كان من الممكن مثلا أن تعانى نقل من عضو التناسل إلى بقية بدنها الجميل، أو كان من الممكن أن تستحدث اهتماما بالملابس الجميلة وتصبح « مزهوة » . أو كان من الممكن أيضاً أن تصمم على التفوق فى التدريبات البدنية والألعاب الرياضية، كبديل عن « أكروباتية » القضيب عند أخويها. ولكن الاسلوب الذى اختارته فى الواقع كان طريقا أقصر . فقد انكرت واقعة أن ليس لها قضيب، ومن ثم وفرت على نفسها عناء العثور على بديل، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأت تعانى نوعا من القهر لاستعراض العضو اللاموجود . ففى المجال البدنى اتخذ هذا القهر صورة رفع إلى أعلى بين الحين والحين للطرف السفلى من ثيابها مستعرضة بذلك بدنها . كان

ذلك يعنى : « انظروا هذا الشىء الجميل الذى عندى ! » . وفى حياتها اليومية كان من عادتها أن تنادى على الآخرين ، فى كل مناسبة يمكن تصورها ، كيما يحضروا فيتاح لهم أن « يتفرجوا » على شىء ليس له من وجود على الإطلاق[1] . « تعالوا تفرجوا أية كمية من البيض باضها الدجاج ! » ، « انصتوا هاهى عربة عمى قد وصلت ! » ولم يكن هناك فى الواقع من بيض باضه الدجاج ، أو من أثر للعربة التى كانوا يتلهفون على رؤيتها . فى البداية كان إخوتها الذين يكبرونها يرحبون بهذه الطرافات ضاحكين ومهللين ، ولكن خيبات الأمل المتكررة التى كانت تنزلها بهم أخذت تتأدى بإخوتها وأخواتها إلى البكاء الغزير . ويمكن القول بأن سلوكها فى ذلك الوقت كان على الحدود بين اللعب والقهر .

وإننا لنتبين نفس هذه العملية ، بل وبشكل أكثر وضوحا ، عند صبى السابعة مروض الأسد ، والذى عرضت له فى الفصل السابق . فكما أبان التحليل فى حالته ، لم تكن أخاييله تمثل فقط ضربا من التعويض عن متخلفات « الألم » والضجر عنده ، بل كانت تمثل بالحرى محاولة منه للسيطرة على كل حصر الخصاء الشديد عنده . ورواحت عادة الإنكار تبسط سلطانها عليه ، حتى لم يعد بوسعه أن يجارى تحرقه إلى أن يحول موضوعات حصره إلى كائنات صديقة يمكن أن تحميه أو أن تطيعه . ضاعف من جهوده ، إذ تزايدت نزعته إلى أن « يستخف » بكل مايروعه . فاى شىء يثير حصره كان يغدو عنده موضع سخرية ؛ وحيث أن كل شىء من حوله كان يثير عنده الحصر ، فإن العالم بأسره قد اكتسى عنده بلباس من السخف . كانت استجابته للضغط الذى لا يتوقف من حصر

---

(١) قارن تصور رادو S. Rado عن « الرغبة فى القضيب » عند صغار البنات ، هذه التى يعتبرها استعادة هلوسية للعضو الذكرى الذى سبقت لهن رؤيته .

(Die Kastrationsangst des Weibes, Inter' Psychoanalytischer Verlag, Wie, 1934).

الخصاء سخرية فكهة لاتتوقف وبنفس الدرجة . فى البداية كان ذلك يستلفت الإنتباه بحسبانه مجرد هزل ، ولكن طابعه القهرى كان يتضح من أنه لم يكن قط يتحرر من الحصر إلا عندما يمزح ، ومن أنه لوحاول التعامل مع العالم الخارجى بشكل أكثر جـــدية كان يدفع ثمنا لذلك نوبات من الحصر .

ونحن كقاعدة عامة لانرى شيئاً غير عادى بالنسبة إلى صبى صغير يريد أن يكون رجلا كبيراً ، فيمثل أنه « بابا » ، وقد استعار من أبيه القبعة والعصا من أجل ذلك . مثل هذا الصبى هو ، على أية حال ،شىء حد مألوف . قيل لى أن تلك كانت فى العادة اللعبة المفضلة عند واحد من مرضاى الأطفال . كان عندما عرفته تنتابه حالة شديدة من المزاج النكد كلما رأى رجلا طويلا أوقويا بشكل غير عادى . وكان من عادته أن يلبس قبعة أبيه ويتجول بها وكان ، طالما لم يتدخل أحد فى ذلك يظل راضياً سعيداً . وعلى هذا النحو ، وطوال عطلة صيفية باسرها ، كان يتجول وعلى ظهره « جربندية » مليئة . والاختلاف بين صبينا هذا وبين الصبى العادى الذى يمثل انه « رجل كبير » ينحصر ببساطة فى ان هذا اللعب كان عند مريضى الصغير مسألة جدية ؛ فما أن يرغم على أن يخلع القبعة داخل البيت ، عند تناول الطعام أو عنـــد الذهاب إلى الفراش ، حتى يستجيب بالضجر والمزاج النكد .

وعندما أعطيت لهذا الصغير قلنسوة مرتفعة كانت تشبه أشياء الكبار كرر الصبى معها ذلك السلوك الذى كان يرتبط فى الأصل بقبعة أبيه . كان يتجول بالقلنسوة فى كل مكان ، ويقبض عليها بيد متشنجة عندما لا يسمح له بأن يلبسها . وبطبيعة الحال كان يتبين بشكل لا ينقطع حاجته إلى أن يستخدم يديه فى أغراض أخرى . وفى إحدى هذه المناسبات ، عندما كان يفتش من حوله فى لهفة عن مكان يضع فيه القلنسوته، لاحت له

الإمكانية التي تتيحها حافة الفتحة الأمامامية من بنطلونه الجلدى . ودون ضجة دس القلنسوة داخل الفتحة ، وبذلك أصبحت يداه طليقتين ، وقد توصل فى نهاية الأمر إلى تخفيف كبير من أنه لم يعد الآن بحاجة إلى أن يفارق بحال كنزه الثمين . ومن الواضح أن القلنسوة قد استقرت بذلك فى المكان الذى كانت ، بحسب دلالتها الرمزية ، تنتمى إليه دائماً : فقد كانت القلنسوة ملاصقة لقضية .

فى مناسبات عديدة من حديثى السابق وصفت سلوك هؤلاء الأطفال إذ لم أجد مصطلحا أفضل ، على أنه قهرى . فبالنسبة إلى الملاحظة السطحية يكشف هذا السلوك فى الواقع عن شبه جد كبير بأعراض العصاب القهرى ولكننا إذا ما تفحصنا عن كثب سلوك هؤلاء الأطفال فإننا نتبين أن هذا السلوك ليس قهريا بالمعنى الدقيق للكلمة . فبنية هذا السلوك تباين تماما تلك البنية التى تخصص بصورة عامة ، فيما نعرف ، الأعراض القهرية صحيح أنه كما هو الشأن فى تكوين هذه الأعراض القهرية ، تكون العملية التى تؤدى إليها هى إحباط موضوعى ، أو خيبة أمل موضوعية ؛ ولكن الصراع الناتج فى حالة هؤلاء الأطفال لا يعانى بعدئذ الاستدخال : فالصراع يبقى مرتبطاً بالعالم الخارجى . كما أن الإجراء الدفاعى الذى تلجأ إليه الأنا ، لا يتجه ضد الحياة الغريزية ، بل بشكل مباشر ضد العالم الخارجى ، هذا الذى يفرض الإحباط أو الخيبة . وتماما كما أن الأنا الراشدة فى الصراع العصابى ، تلجأ إلى الكبت تخلصا بالطرد من أن تدرك المثير الغريزى المحرم ، كذلك فان الأنا الطفلية تلجأ إلى الإفكار تخلصا من أن تدرك انطباعا أليما يأتيها من الخارج . وفى العصاب القهرى ، كما نعلم يكون تأمين الكبت عن طريق التكوين المضاد ، هذا الذى يمثل المقلوب المضاد للحفزة الغريزية المكبوتة (التعاطف بدلا من القسوة ، والحياء بدلا من الاستعراضية) . كذلك الحال فى المواقف الطفلية التى قدمتها ؛

فانكار الواقع يكون إتمامه وتوكيده ، عندما يقوم الطفل ، فى اخاييله أو كلماته أو سلوكه ، بقلب الوقائع الحقيقة لضدها . والابقاء على التكوينات المضادة القهرية يتطلب إنفاقا متواصلا فى الطاقة نسميه الشحن المضاد . كذلك فإن إنفاقا مماثلا فى الطاقة يكون ضروريا كيما تتمكن أنا الطفل من أن تبقى على أخاييله اللاذة ومن أن تمسرحها . فذكورة أخوى البنت الصغيرة التى أوردت حالتها كانت موضع استعراض دائما أبداً أمام عينيها ؛ ودائما أبداً كانت تستجيب بهذا التوكيد : « ولدى أنا أيضاً شىء استعرضه » والحسد عند صبى القبعة كانت تستثيره دائماً أبداً رؤيته للرجال من حوله ، ومن هنا كان يواجههم دائماً أبدا بالقبعة ، أو بالقلنسوة ، أو « بالجريندية » ، هذه التى كان يعتبرها دليلا ماديا على ذكورته . وأى تدخل خارجى معوق لهذا النوع من السلوك يؤدى إلى نفس النتيجة التى يؤدى إليها التدخل المعوق للأنشطة القهرية بمعنى الكلمة فان الاتزان الذى كان قائماً فى مشقة ، مابين الحفزة المطرودة والقوة الدفاعية ، ينحطم ، ومن هنا فان المثير الخارجى الذى كان موضع الإنكار أو المثير الغريزى الذى كان موضع الكبت ، يجاهد ليشق طريقة إلى داخل الشعور ، فيحدث فى الأنا مشاعر الحصر و « الآلم » .

إن هذا الأسلوب الدفاعى ، ويعنى الإنكار عن طريق الكلمة والفعل ، يخضع من الوقت لنفس تلك التقييدات التى أوزدتها فى الفصل السابق فيما يتصل بالإنكار فى الخيال[1] فان هذا الأسلوب لا يمكن استخدامه إلا طالما كان بوسعه أن يقوم جنباً إلى جنب مع القدرة على اختبار الواقع ، دون أن ينالها باضطراب . إن الأنا الناضجة تنتظم وحدة واحدة من خلال التأليف بين الأضداد ، وعندئذ يكون التخلى عن هذا

---

(١) إن « محاكاة الشخصيات » فى لعب الأطفال ، والتى لن أحاول هنا الدخول فى تحليلها بشكل تفصيلى ، تقع فى منتصف الطريق ما بين « الانكار فى الكلمة الإنكار والعقل » و « الإنكار فى الخيال » .

الاسلوب من الإنكار، فلا تكون عودة إليه إلا إذا اضطربت بشكل خطير العلاقة مع الواقع، وتوقفت عن العمل وظيفة اختبار الواقع. ففي الهذاءات الذهانيه مثلا يمكن لقطعة خشب أن تمثل موضوعات حب يصبو إليها المريض أو يكون قد فقدها، تماما كما يستخدم الأطفال أشياء مماثلة حماية لانفسهم[٢] والاستثناء الوحيد الممكن فى العصاب هو «التميمة» عند العصابيين القهريين؛ ولكنى لاأحرص هنا على أن الزم نفسى برأى فيما إن كان ذلك التشبث التشنجى من جانب هؤلاء المرضى بأمتلاك مثل هذه التمائم يمثل حماية ضد حفزات محرمة من الداخل أو ضد قوى خطرة من الخارج، أو ما إن كان يمثل هذين النوعين من الدفاع.

ولكن أسلوب الإنكار بالكلمة والفعل يخضع لضرب ثان من التقييد، لاينطبق على الإنكار فى الخيال. فالطفل فى أخاييلة سيد نفسه فطالما لم يبح بأخاييلة لاحد، فليس من سبب لاحد فى أن يتدخل. ولكن عملية مسرحة الاخاييل فى الكلمة والفعل تتطلب مرشحا فى العالم الخارجى. ومن هنا فان استخدام الطفل لهذا الميكانيزم يكون مشروطاً من الخارج بمدى موافقة المحيطين على مسرحته، به تماما كما يكون مشروطاً من الداخل بمدى مسايرته لوظيفة اختبار الواقع. ففى حالة صبى القلنسوة مثلا، كان نجاح جهوده الدفاعية يعتمـــد كلية على سماح الآخرين له بلبسها فى البيت وفى المدرسة، وفى روضة الاطفال. والناس عادة مايحكمون على سوية أو لاسوية مثل هذه الميكانيزمات الدفاعية، لا بالرجوع إلى البنية الداخلية للإجراء الدفاعى، بل بالرجوع إلى درجة منافاته للذوق السليم. فطالما كان القهر يتخذ عند الصبى الصغير صورة التجول بالقبعة، يكون لديه «عرض». كانوا ينظرون إلية على أنه

---

(٢) قارن مفهوم د. لافورج عن «العمى الموصنعى»

(Uberlegungen ' zum Begriff der Verdrngüng' Inter. zeits. För Psychoon. 1928)

طفل شاذ ، وكان يتهدده دائما خطر تجريده من الشيء الذي يحميه من الحصر . وفي مرحلة لاحقه من حياته أصبحت رغبته في الحماية أقل وضوحا تخلى عن « الجربندية » وغطاء الرأس ، وقنع بحمل قلم الحبر في جيبه . ومنذ ذلك الحين كان الناس يعتبرونه سويا . لقد عدل من ميكانيزمه بحيث يتكيف مع بيئته ، أو على الأقل لقـــد حجبه فلم يسمح له بأن يصطدم بمتطلبات الآخرين . ولكن هذا لم يكن يعني حدوث أي تغير في « موقف الحصر » الداخلي . ذلك أنه كان في إنكاره لحصر الخصاء عنده يعتمد ، بدرجة لاتقل قهرية ، على التجول بقلم الحبر ، وكان إذا ما اتفق له أن فقد هذا القلم أو لم يجده معه تنتابه نوبات من الحصر والألم ، تماما كتلك التي كانت تنتابه من قبل .

إن مصير الحصر أحيانا مايتحدد بالرجوع إلى مدى التسامح الذي يبديه الآخرون إزاء مثل هذه الاجراءات الدفاعية . فمن الممكن أن يتوقف الحصر عند هذه النقطة فيظل محصوراً في « العرض » الاصلي ؛ أما إذا فشلت محاولة الدفاع ، فمن الممكن أن يحدث تطور لاحق يؤدي مباشرة إلى صراع داخلي ، إلى تحول للنضال الدفاعي ضد الحياة الغريزية ، ومن ثم يؤدي إلى اعتمال عصابي بمعنى الكلمة ولكن من الأمور الخطرة أن نحاول اتقاء الأعصبة الطفلية بالموافقة على إنكار الطفل للواقع . فهذا الميكانيزم ، عندما يستخدمه الطفل بشكل مسرف ، يولد في الأنا زوائد ، وغرائب ، وحساسيات يكون متى انقضت بشكل نهائي مرحلة الإنكار البدائي ، من العسير التخلص منها .

الفصل الثامن

تقييد الأنا

إن المقارنة التي عقدناها بين ميكانيزمي الإنكار والكبت ، وبين التكوين الأخيولي والتكوين الضدي ، قد كشفت عن وجود موازاة بين الأساليب التي تتبعها الأنا لتتجنب « الألم » من مصادر خارجية أو داخلية . وإننا لنتبين نفس هذه الموازاة عندما نقوم بدراسة ميكانيزم دفاعي آخر أكثر بساطة . فميكانيزم الإنكار ، الذي تقوم عليه أخيولة قلب الوقائع الحقيقيه لضدها ، يكون استخدامه في مواقف يستحيل فيها الهروب من انطباع خارجي أليم . ولكن عندما يكبر الطفل بعض الشيء فإن مايكتسبه من حرية أكبر في مجال الحركة البدنية ، ومايتحقق له من تزايد قدراته في مجال النشاط النفسي يمكنان الأنا عنده من أن تهرب من مثل هذه المثيرات ، دون أن تكون بالطفل حاجة إلى القيام بمثل تلك العملية النفسية المعقدة التي هي الإنكار . فبدلا من أن تدرك الأنا الانطباع الأليم ثم تزيله بعد ذلك بسحب شحنته، تنفتح أمام الأنا إمكانية أن ترفض على الإطلاق مواجهة الموقف الخارجي الخطر . فبوسع الأنا أن تهرب ، وبذلك « تتجنب » بأصدق معاني الكلمة المناسبات « الأليمه » إن ميكانيزم « التجنب » هو من البدائية والطبيعيه ، وهو بالاضافه إلى ذلك من الارتباط الذي لاينفصم بالنمو العادي للأنا ، بحيث لايكون من اليسير . لأغراض المناقشة النظرية ، أن نسلخه عن سياقه العادي لنتأمله في انعزال .

وأثناء تحليلي للصبي الصغير الذي قدمته في الفصل السابق على أنه

« صبى القلنسوة » ، كان بوسعى أن ألاحظ كيف أن تجنب « الألم » قد تطور عنده فى هذا الاتجاه . فذات يوم عندما كان بمنزلى وقع على كراسة رسم سحرية صغيرة ، استولت على إعجابه بدرجة كبيرة . شرع فى حماسة يضغط على الصفحات الواحدة بعد الأخرى بقلم ملون ، وابتهج عندما رآنى أعمل نفس الشيء . ولكنه فجأة ألقى بنظرة خاطفة على ما كنت أعمله ، ثم توقف ، وكان من الواضح أن مزاجه تعكر . وفى اللحظة التالية ترك القلم جانبا ، ودفع عبر المنضدة إلى بكل الجهاز (هذا الذى كان حتى الآن يتشبث به فى حرص) ، ونهض واقفاً وقال: « استمرى أنت فى عمل ذلك ؛ إنى أفضل كثيراً أن اتفرج » . ومن الواضح أنه عندما نظر إلى رسومى فوجىء بكونها أكثر جمالا ، أو أكثر براعة ، أو على نحو ما أكثر اتقاناً من رسومه ، وأحدثت المقارنة عنده صدمة . فصمم فى التو على أن يتوقف عن منافستى ، حيث أن النتائج كانت باعثة على الكدر ، وعندئذ تخلى عن ذلك النشاط الذى كان منذ برهة يزوده بالسرور . وبذلك اتخذ دور « المتفرج » الذى لا يعمل شيئا ، وبذلك لم يعد هناك مجال لمقارنة أدائه بأداء شخص آخر . وبهذا التقييد الذى فرضه الصبى على نفسه ، كان بوسعه أن يتجنب تكرار الانطباع الكريه .

لم تكن هذه الحادثة وحيدة . فأية لعبة معى لم يكن يكسب فيها — من قبيل صورة منقولة لم تكن فى إتقان صورة من رسمى — بل فى الواقع أى شىء لم يكن يؤديه بنفس الدرجة من الإتقان التى أوديه أنا بها ، كان كافيا ليحدث عنده نفس التعكير المفاجىء فى المزاج . كان يفقد كل لذة فى ذلك العمل الذى كان يقوم به ، فيتخلى عنه ، وبصورة آلية ، على ما يبدو يتوقف عن أن يهتم به . وعلى العكس من ذلك كان ينهمك بشكل قهرى فى تلك المهام التى كان يشعر بتفوقه فيها على ، وكان يقضى فى أدائها وقتا بغير حدود . ولم يكن إلا أمراً طبيعيا ، حين ذهب لأول مرة إلى المدرسة

أن يتصرف هناك تماما على نحو ما كان يتصرف معى . كان يرفض بشكل قاطع أن يشترك مع الأطفال الآخرين فى أية لعبة أو أى درس لم يكن يشعر فيهما بتمام الثقة من نفسه . كان ينتقل من طفل إلى طفل و « يتفرج » . فأسلوبه الأولى فى السيطرة على « الألم » ، بقلبه إلى شىء سار ، كان قد عانى تغيراً . بدأ فى تغيراً . بدأ فى تقييد وظائف الأنا عنده ، وفى الإنسحاب ، إضرار جسيم بنموه ، من أى موقف خارجى يمكن على أى نحو أن يولد ذلك النوع من « الألم » الذى يخشاه أكثر مايخشى . وفقط عندما يكون مع أطفال اصغر منه بكثير ، كان بوسعه أن يتخلص من هذه التقييدات فيسهم بشكل إيجابى فى أعمالهم .

وليس من النادر بحال ، فى رياض الأطفال ، وفى المدارس التى تتبع الأساليب العصرية — حيث يقل الاهتمام بالتدريس فى الفصل بالقياس إلى العمل الفردى الذى ينتقيه الطفل بنفسه — أن نلتقى بأطفال من صنف مريضى « صبى القلنسوة » . فالمدرسون يحدثوننا عن صنف جديد من الأطفال ظهر إلى الوجود ، بين هذين الصنفين المألوفين ، صنف الأذكياء المشغوفين المجدين من ناحية وصنف الأغبياء الذين يصعب إثارة اهتمامهم أو بعثهم على العمل من ناحية أخرى ، كما يقررون بأن هذا الصنف الجديد لا يمكن من النظرة الأولى أن ندرجه ضمن أية فئة مألوفة من فئات كفوف التعلم . فعلى الرغم من أن أطفال هذا الصنف الجديد أذكياء ومكتملوا النمو بشكل قاطع ، وعلى الرغم من أنهم محبوبون بين أقرانهم فى المدرسة ، إلا أنه لا يمكن حملهم على الإسهام فى الألعاب النظامية أو فى الدروس النظامية . وعلى الرغم من أن الطريقة المتبعة فى المدرسة صارمة فى تجنبها توجيه أى نقد أو لوم ، فإن هؤلاء الأطفال يسلكون وكأنهم واقعون تحت التخويف . فأية مقارنة ليس غير بين انجازاتهم وانجازات الأطفال الآخرين تجرد عملهم من كل قيمة بالنسبة إليهم .

واذا مافشلوا فى مهمة ماأو فى لعبة إنشائية فإنهم يستشعرون عزوفاًدائماً عن تكرار المحاولة . ومن هنا فإنهم يمضون خاملين ، محجمين عن أن يربطوا أنفسهم بأى دور أو مهمة ،قانعين «بالتفرج» على عمل الآخرين وبشكل ثانوى ينطوى « تسكعهم » على آثار ضد اجتماعية ، وذلك لأنهم إذ يستشعرون السأم يشرعون فى العراك مع الأطفال المنهمكين فى العمل أو اللعب .

والتعارض عند هؤلاء الأطفال ، بين قدراتهم الطيبة وأداءاتهم المخيبة للامل ، يوحى بأنهم مكفوفون عصابيا ، وبأن الاضطراب الذى يعانون منه يرجع إلى عمليات ومضمونات مألوفة لنا فى تحليلاتنا للكفوف بمعنى الكلمة . فاللوحتان فى الحالتين تكشفان عن نفس العلاقة مع الماضى . فالعرض لايرتبط — فى هــذه الحالة أو تلك — بموضوعه الحقيقى ، بل يرتبط ببديل فى الحاضر عن أهتمام غلاب فى الماضى . فمثلا عندما يكون الطفل مكفوفا فى عمليات الحساب أو التفكير ، أو يكون الراشد مكفوفا فى الكلام ، أو الموسيقار فىالعزف، فإن النشاط الذى يتحتم فى واقع الأمر تجنبه لا يكون هو التناول العقلى للاعداد أو الأفكار ، ولا يكون هو نطق الكلمات ، أو جر القوس على الأوتار أو لمس مفاتيح البيانو . فمثل هذه الأنشطة لا تنطوى على ضرر فى ذاتها بالنسبة إلى الأنا ، ولكنها أصبحت مرتبطة بأنشطة جنسية ماضية سبق للأنا أن قامت بطردها ؛ فالأنشطة الجنسية الماضية تمثلها الآن الأنشطة الحالية ،وهذه وقد غدت « مشبقة » (مصطبغة بالجنسية) تصبح هى نفسها موضوعات لعمليات الأنا الدفاعية .وبالمثل فإنالأطفال عندما يدافعون عنأنفسهم ضد هذا «الألم»الذى يستشعرونه عند مقارنتهم لأداءاتهم بأداءات الآخرين ، فإن هذا الشعور لا يكون إلا مجرد بديل. فرؤيتهم لأداء متفوق عنـــد آخر يعنى (أو على الأقل يعنى فى حالة

مريضى) رؤيتهم لعضو تناسلى أكبر من عضوهم ، وهذا العضو هو موضع حسدهم. هذا إلى أن هؤلاء الأطفال عند تشجيعهم على التنافس مع أقرانهم ، فإن ذلك يتبعث عندهم من جديد تلك المنافسة اليائسة فى المرحلة الأوديبية ، أو ذلك التبين الكدر للاختلاف بين الجنسين .

ومع ذلك فاللوحتان فى الحالتين تكشفان عن أختلاف بينهما من زاوية واحدة . فالأطفال الذين يصرون على القيام بدور « المتفرج » يستعيدون قدرتهم على العمل إذا ما تغيرت الظروف التى يتحتم عليهم أن يعملوا فى ظلها . أما الكفوف بمعنى الكلمة فإنها لا تتغير ، ولا تكاد تتأثر بأية تغييرات فى البيئـــة . بنت صغيرة من النوع الأول تحتم عليها — لظروف خارجية — أن تظل فترة بعيدة عن مدرستها الأولى ، حيث كان من عادتها أن « تتفرج » . فى تلك الفترة تلقت دروسا خصوصية ، فإذا بها دفعة واحدة تملك ، وكأنها تلعب ، ناصية دروس ظلت بالنسبة إليها لغزاً مستغلقاً طالما كانت بين أطفال آخرين . وتحضرنى حالة مماثلة من تغير جذرى عند بنت أخرى صغيرة فى السابعة . تلقت ، بالنظر إلى تخلفها فى المدرسة ، دروساً خصوصية . وفى هذه الدروس بمنزلها كان سلوكها سويا ، فلم تكن هناك أية علامة على الكف ؛ ولكنها كانت عاجزة عن أن تبلغ إلى نفس هذه النتائج فى المدرسة ، حيث كان الدروس تجرى بنفس الطريقة تماما . وهكذا فإن هاتين البنتين الصغيرتين كانتا تستطيعان للتعلم ، شريطة أن لا تكون هناك إمكانية لمقارنة أداءاتهما بأداءات الأطفال الآخرين ؛ تماما كما كان بوسع الصبى الصغير ، هذا الذى قمت بتحليله ، أن يشارك فى اللعب مع أقران يصغرونه ولكن ليس مع أقران يكبرونه . وبالنسبة إلى المظهر الخارجى ، فإن مثل هؤلاء الأطفال يسلكون وكأن الأنشطة المعنية تعانى تحريما داخلياً وخارجياً على السواء ولكن فى الواقع يكون التوقف بصورة آلية ، ويحدث

ذلك بمجرد أن يؤدى نشاط بعينه إلى انطباع كريه . إن الموقف النفسى لهؤلاء الأطفال شبيه بالموقف الذى كشفت عنه دراسة « الأنوثة » ، بحسبانه مميزاً للبنات الصغيرات عنـــد نقطه تحول بعينها من نموهن(١) . فالبنت الصغيرة ، بصرف النظر عن أى خوف من العقوبة وعن أى حصر من الضمير ، تتخلى ، فى فترة بعينها من حياتها ، عن الاستمناء البظرى ، فارضة بذلك تقييـــدات على نضالاتها الذكرية . إن حبها لذاتها يعانى الهوان عندما تقارن نفسها بالصبيان وهم المسلحون للاستمناء على نحو أفضل ؛ وهى لا ترغب فى أن تتذكر دائماً أبداً قصورها هذا بالانغماس فى الممارسة .

من الخطأ أن نعتقد أن مثل هذه التقييدات لا تفرضها الأنا على نفسها إلا تجنبا « للألم » الناجم عن تحقق دونية بالقياس إلى الآخرين ، أى الناجم عن خيبة الأمل وتثبيط الهمة . فى تحليلى لصبى فى العاشرة ، لاحظت حدوث مثل هذه التقييدات لنشاطه ، كعرض وقتى يستهدف تجنب حصر موضوعى مباشر . ولكن القلق عند هذا الطفل لم يكن يرجع إلى الدونية بل إلى السبب النقيض . ففى مرحلة بعينها من تحليله أصبح لاعبا لامعا فى كرة القدم . كانت براعته موضع أعتراف من الصبيان الكبار فى مدرسته ، بحيث سمحوا له ، الأمر الذى أفعمه بالفرحة ، بأن يشترك فى مبارياتهم وإن يكن يصغرهم بكثير . وقبل أن يمضى وقت طويل حكى لى الحلم التالى ، كان يلعب كرة القدم وإذا بصبى كبير يضرب الكرة ضربة على نحو من القوة بحيث كان على مريضى أن يقفز إلى أعلى حتى لا تصيبه . وأستيقظ بمشاعر الحصر . وقد كشف تفسير هذا الحلم عن أن زهوه بالانضمام إلى الصبية الكبار لم يلبث حتى استحال

---

(١) فرويد ، « محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى » . [انظر الترجمة العربية]

إلى حصر . كان يخاف من أن يستشعروا غيرة من براعته فى اللعب، ومن أن يصبحوا عدوانيين تجاهه . وهكذا فإن الموقف الذى خلقه بنفسه بأن أصبح على هذا النحو من البراعة فى اللعب ، والذى كان بالنسبة إليه فى البداية مصدراً للسرور ، قد غدا الآن مصدراً للحصر . ولم يلبث هذا الاتجاه نفسه حتى ظهر من جديد بعد ذلك فى أخيولة عندما كان يوشك على النوم ، تخيل أنه رأى الصبية الآخرين يحاولون بكرة قدم كبيرة كسر قدميه . انقذفت الكرة نحوه بعنف ، فقذف بقدميه ، وهو فى فراشه ، إلى أعلى حتى لا يصيبهما أذى . وكنا قد تبينا من قبل فى تحليلنا لهذا الصبى أن القدمين تنطويان على دلالة خاصة بالنسبة إليه . كانتا ، بالتفافة عن طريق الانطباعات الشمية وفكرتى التصلب والعرج ، تمثلان بالنسبة إليه القضيب . كبح الحلم والأخيولة ولعه بالألعاب ؛ فهبط مستوى لعبه ، وسرعان ما فقد الإعجاب الذى كان ببراعته قد بلغ إليه فى المدرسة . وكانت دلالة الانسحاب هى : « لا حاجة بكم إلى أن تكسروا قدمى ، لأننى على أية حال لم اعد بارعا الآن فى اللعب » .

ولكن العملية لم تتوقف عند هذه التقييدات التى عانتها الأنا فى ناحية واحدة . فعندما تخلى عن الألعاب ، شرع فجأة فى تطوير ناحية أخرى من قدراته ، وهى على التحديد نزعة كانت لديه دائما إلى الأدب وإلى التأليف . اعتاد أن يقرأ علىّ قصائد ، وكان بعضها من تأليفه ؛ كما أطلعنى على قصص قصيرة كان قد كتبها وهو مايزال فى السابعة ؛ وكان يحدثنى عن خططه الطموحة لمستقبل أدبى زاهر . تحول لاعب كرة القدم إلى مؤلف . وفى إحدى جلسات التحليل فى تلك الفترة رسم لى شكلا بيانيا يوضح به اتجاهه من مختلف المهن والهوايات الرجلية . رسم فى الوسط نقطة كبيرة واسعة ترمز للأدب ، وفى دائرة من حولها توزعت العلوم

المختلفة ، أما المهن العملية فقد عبر عنها بنقط أكثر بعداً . وفى زاوية من أعلى الصفحة ، وعلى مقربة من الحافة ، رسم نقطة صغيرة دقيقة ترمز إلى الألعاب الرياضية ، هذه التى كانت منذ فترة وجيزة تحتل من نفسه منزلة عالية . كانت النقطة صغيرة دقيقة تعبيراً عن الاحتقار البالغ الذى يستشعره الآن إزاء الألعاب .

ومن المفيد أن نتبين كيف ، خلال أيام قليلة وبعملية تشبه التبرير تأثر تقييمه الشعورى للانشطة المختلفة بحصر كانت إنجازاته الأدبية فى ذلك الوقت تبعث على الدهشة فى الواقع . فعندما توقف عن أن يكون بارعا فى الألعاب تخلفت عن ذلك ثغرة فى عمل الأنا عنده ، وهذه الثغرة اضطلع بملئها إنتاج زائد الوفرة فى ناحية أخرى . وكما ينبغى أن نتوقع ، كشف التحليل عن أن ابتعاث تنافسه القديم مع أبيه كان هو المسئول عن حصر الشديد من إمكانية أن ينتقم الصبية الكبار لأنفسهم منه .

بنت صغيرة فى العاشرة ذهبت إلى الرقص لأول مرة وهى مفعمة بالفرحة والأمل. كانت فى ثوبها وحذائها الجديدين ، اللذين استنفذت من أجلها الكثير من تفكيرها ، فتخيلت أنها وقعت من النظرة الأولى فى حب أكثر فتيان الحفل وسامة ورقيا . تصادف أن كان لهذا الفتى ، على الرغم من أنه كان غريبا عليها تماما ، نفس اسم الأسره الذى للفتاة؛ واستناداً إلى هذه الواقعة نسجت أخيولة عن رابطة خفية تجمع بينهما . شرعت تتقرب إليه ، ولكنها لم تلق منه أى تشجيع ، فقد أغاظها فى الواقع أثناء رقصهما معاً ، بحديثه عن عدم رشاقتها . كانت خيبة الأمل هذه بالنسبة إليها صدمة وإذلالا فى نفس الوقت .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأت تتجنب الحفلات، وفقدت اهتمامها بالملابس ، ولم تجشم نفسها عناء أن تتعلم الرقص . وخلال فترة وجيزة

كانت تجد بعض اللذة فى التفرج على الآخرين وهم يرقصون ، وهى تنظر إليهم فى وقار دون أن تشترك معهم ، رافضة أيه دعوة إلى الرقص . وشيئاً فشيئاً انتهت إلى أن تنظر الى كل هذا الجانب من حياتها باحتقار بالغ ولكنها ، شأنها فى ذلك شأن لاعب الكرة الصغيرة ، قامت بتعويض نفسها عن هذه التقييدات التى نالت الأنا عندها . فإذ تخلت عن الاهتمامات الأنثوية ، راحت تهيء نفسها كيما تتفوق عقليا ، وبهذه الالتفافة بلغت فى النهاية إلى كسب احترام عدد كبير من الفتيان الذين فى سنها . وقد اتضح من التحليل فيما بعد أن الصد الذى عانته من الفتى الذى يحمل نفس اسم عائلتها كان يعنى بالنسبة إليها تكراراً لتجربة صدمية فى طفولتها الباكرة . فعنصر الموقف الذى هربت منه الأنا عندها . كما هو الشأن فى الحالات السابقة التى أوردتها ، لم يكن قلقا أو شعور إثم ، بل كان ذلك « الألم » الشديد الناجم عن فشلها فى المنافسة .

ولنتجه الآن إلى الفارق ما بين الكف وتقييد الأنا . فالشخص الذى يعانى من كف عصابى يدافع عن نفسه ضد التعبير بالأفعال عن حفزة غريزية محرمة ، أى ضد تفجر « الألم » عن طريق خطر داخلى . وحتى فى الفوبيات ، حيث يبدو الحصر والدفاع مرتبطين بالعالم الخارجى ، فإن الشخص يكون فى واقع الأمر خائفا من عملياته الداخلية. فهو يتجنب المشى فى الشوارع حتى لا يتعرض للغوايات التى كانت تجتاحه فيما مضى . وهو يبتعد عن تلك الطريق التى يسير فيها حيوان حصر حتى يحمى نفسه لا ضد الحيوان ذاته ، بل ضد النزعات العدوانية التى فى داخله ، هذه التى يمكن أن يبتعثها التقاؤه بذلك الحيوان ، وضد النتائج المترتبة على تلك النزعات . أما فى حالة تقييد الأنا ، فإن الإنطباعات الخارجية الكدرة فى الوقت الحاضر يتم طردها ، لأنها يمكن أن تؤدى إلى انبعاث انطباعات مماثلة فى الماضى . وبالرجوع إلى المقارنة التى عقدناها بين ميكانيزمى

الكبت والإنكار يكون بوسعنا أن نقول أن الفارق بين الكف وتقييد الأنا ينحصر فى أنه فى الكف تدافع الأنا عن نفسها ضد عملياتها الداخلية بينما فى حالة تقييد الأنا تدافع الأنا عن نفسها ضد مثيرات خارجية .

وعلى هذه التفرقة الأساسية تترتب فوارق أخرى بين هذين الموقفين النفسيين . فوراء كل نشاط مكفوف عصابيا تكمن رغبة غريزية. والعناد الذى تجاهد به على حدة كل نزعة من نزعات الهو للبلوغ إلى هدفها يجعل من عملية الكف البسيطة عرضاً عصابياً ثابتا ، يمثل صراعا دائبا بين رغبة الهو والدفاع الذى أقامته الأنا . ويستنفد المريض طاقته فى الصراع ؛ لحفزات الهو عنده تلتحم بغير تعديل يذكر بالرغبة فى القيام بالعمليات الحسابية ، أو فى التحدث إلى الجمهور ، أو فى العزف على الكمان ، أو فى أى نشاط كائنا ماكان ، بينما الأنا ، فى نفس الوقت وبنفس الدرجة من العناد ، تمنع أو على الأقل تشوه تنفيذه لرغبته .

ولكن عندما يحدث تقييد الأنا نتيجة لحصر موضوعى أو « ألم » موضوعى فإنه لايكون هناك مثل هذا التثبيت على النشاط المقطوع . فالإلحاح هنا لايكون على النشاط ذاته ، بل على « الألم » أو اللذة التى تنتج من هذا النشاط . فالأنا فى سعيها إلى اللــذة وفى جهودها لتجنب « الألم » تستخدم كل قدرة من قدراتها على النحو الذى يرضيها فالأنا تهجر الأنشطة التى تفجر « الألم » أو الحصر ولاتعود راغبة فى مزاولتها وبذلك تهجر مجالات بأسرها من النشاط .

وعندما تعانى الأنا خبرة تعسة ، فإنها تقذف بكل طاقاتها سعياً وراء هدف من طبيعة مناقضة تماما . ولدينا مثالان على ذلك فى لاعب الكرة الصغير الذى تحول إلى الأدب ، وفى الراقصة الصغيرة التى حملتها خيبة أملها على أن تصبح تلميذة متفوقة . وبديهى فى هذه الحالات أن الأنا

لاتستحدث قدرات جديدة ، ولكنها فقط تستخدم تلك القدرات التى لديها بالفعل .

إن تقييد الأنا ، من حيث هو وسيلة لتجنب «الألم» لايدخل ، شأنه شأن الأشكال المختلفة من الإنكار ، فى فئة سيكولوجية العصاب ، بل يمثل مرحلة سوية من مراحل نمو الأنا . فعندما تكون الأنا صغيرة مرنة ، فإن انسحابها من مجال من مجالات النشاط أحيانا مايكون التعويض عنه بالتفوق فى مجال آخر تركز جهودها فيه . ولكن عندما تصبح الأنا جامدة أو تكون قد اكتسبت اتجاها من «اللاتسامح» إزاء «الألم» ، ومن ثم تكون بشكل قهرى مثبتة على أسلوب الهروب ، فإن مثل هذا الانسحاب يكون ثمنه إفساد النمو فالأنا إذ تتخلى عن موقع بعد آخر تصبح وحدانية الجانب ، وتفقد كثرة مسرفة من اهتماماتها ، ولا تستطيع أن تكشف إلا عن إنجاز هزيل .

إن أهمية تصميم أنا الطفل على تجنب «الألم» : تحظ فى النظرية التربوية بتقدير كاف ، مما أدى إلى فشل عدد من التجارب التربوية فى السنوات الأخيرة . فالطريقة الحديثة تنحصر فى إعطاء الأنا النامية للطفل حرية أكبر فى العمل ، وذلك قبل كل شىء لإتاحة الفرصة أمامها كيما تختار انشطتها واهتماماتها . والفكرة من وراء ذلك هى أنه بهذه الطريقة تنمو الأنا على نحو أفضل ، ويتحقق الإعلاء فى أشكاله المختلفة . ولكن الأطفال فى فترة الكمون يمكن أن يولوا لتجنب الحصر و «الألم» أهمية أكبر من تلك التى يولونها للإشباع المباشر أو غير المباشر للغريزة ففى كثير من الحالات ، عندما لا يتوفر لهم التوجيه الخارجى ، فإن اختيارهم للنشاط لايتحدد بالرجوع إلى مواهبهم الخاصة وإلى قدراتهم على الإعلاء ، بل بالأمل فى حماية أنفسهم ، بأسرع مايمكن ، من الحصر

و « الألم » . ولدهشة الإخصائيين فى التربية تكون النتيجة لهذه الحرية فى الاختيار ، فى مثـــل هذه الحالات ، لازدهار الشخصية بل إفقار الأنا

إن الإجراءات الدفاعية ضد «الألم» الموضوعى والخطر الموضوعى من قبيل الأمثلة الثلاثة التى قدمتها على سبيل الإيضاح فى هذا الفصل ، تمثل الوسيلة الوقائية للأنا الطفلية ضد العصاب — وهى وسيلة وقائية تضطلع بها الأنا مع ما فى ذلك من خسار . فالأنا كيما تتجنب المعاناة تمنع تطور الحصر فتفرض على نفسها التشويهات . هذا إلى أن تلك الإجراءات الدفاعية التى تتخذها الأنا — سيان كانت هروبا من البراعة البدنية إلى الإنجاز العقلى ، أو كانت تصميماً عنيداً من جانب امرأة على أن تكون على قدم المساواة مع الرجال ، أو كانت تقييداً للنشاط بحيث يقتصر الفرد فى تعامله على من هم أضعف منه — تتعرض فى الحياة اللاحقة لكل أشكال الإغارة من الخارج . فقد يكون على الفرد أن يغير من طريقته فى الحياة بسبب كارثة ما ، من قبيل فقدان موضوع الحب أو من قبيل المرض أو الفقر أو الحرب ، إذ عندها تجد الأنا نفسها مرة أخرى فى مواجهة مواقف الحصر الأصلية . وفقدان الحماية المألوفة ضد الحصر ، شأنه شأن أى إحباط غريزى مألوف ، يمكن أن يكون السبب المباشر لعصاب .

إن الأطفال مايزالون من التبعيـــة للآخرين بحيث أن مثل هذه المناسبات لتكوين عصاب يمكن أن تعترضهم أو لا تعترضهم بما يتفق وأهواء الذين يكبرونهم . فالطفل الذى لا يتعلم شيئاً فى مدرسة تقوم على طريقة الحرية ، ويقضى وقته فى مجرد التفرج أو الرسم ، يعانى « الكف » فى ظل نظام أكثر صرامة . والإلحاح العنيد من جانب الآخرين على نشاط كريه ، يمكن أن يتأدى بالطفل إلى أن يتثبت عليه ؛

ولكن عجزه عن أن يتجنب « الألم » يرغمه على أن يفتش من حوله عن وسيلة جديدة للسيطرة على هذا الألم . ومن ناحية أخرى ، فمن الممكن حتى لكف أو لعرض اكتمل نموهما أن يتعدلا متى توفرت حماية خارجية فالأم التى ينبعث حصرها وينجرح كبرياؤها عندما ترى شذوذ طفلها تعمد إلى حمايته وتحرص على أن لا يواجه مواقف خارجية كريهة .
ولكن هذا يعنى أن اتجاه هذه الأم من عرض طفلها هو على التحديد نفس اتجاه مريض الفوبيا من نوبات حصره : فهى بتقييدها المصطنع لحرية طفلها فى العمل إنما تمكنه من أن يلوذ بالهرب ومن أن يتجنب المعاناة . هذا الجهد المشترك من الأم والطفل لتأمين الطفل ضد الحصر و « الألم » هو الذى الذى يفسر ، فيما يحتمل ، تغيب الاعراض ، وهو التغيب الذى يعتبر خاصية جد شائعة فى العصاب الطفلى . فى مثل هذه الحالات يكون من المستحيل أن نصدر حكماً موضوعياً على مدى اتساع الأعراض عند طفل بعينه قبل أن يحرم هذا الطفل من الحماية التى ينعم بها .

حـ . أمثلة علي طرازين من الدفاع

الفصل التاسع

التوحد [1] بالمعتدى

من اليسير نسبيا أن نكشف عن ميكانيزمات الدفاع التى عادة ماتلجأ اليها الأنا ، طالما جرى استخدام كل ميكانيزم على حدة ، وكان استخدامه فقط ضد خطر بعينه. فعندما نلتقى بإنكار نعرف أنه استجابة ضد خطر خارجى ؛ وعندما يحدث كبت نعرف أن الأنا تناضل ضد مثيرات غريزية . والشبه الظاهرى القوى بين عمليات الكف وتقييد الأنا يجعلنا أقل تيقنا إن كانت هذه العمليات جزءاً من صراع خارجى أو داخلى . ويزداد الأمر تعقيداً عندما تتآلف معا الإجراءات الدفاعية أو عندما يستخدم نفس الميكانيزم حينا ضد قوة داخلية وحينا ضد قوة خارجية . ولدينا مثال ممتاز على هذين التعقيدين كليهما فى عملية التوحد . وبالنظر إلى أن التوحد هو واحد من العوامل التى تسهم فى نشأة الأنا العليا ، فإنه يعين على السيطرة على الغزيرة . ولكن ، كما آمل أن أوضح فيما يلى ، توجد مناسبات يأتلف فيها التوحد مع ميكانيزمات أخرى بحيث يشكل واحداً من أقوى أسلحة الأنا فى تعاملها مع الموضوعات الخارجية التى تثير حصر الأنا .

روى أوجست ايخهورن أنه عندما كان يقدم مشورته فى لجنة لتوجيه الأطفال ، كان عليه أن ينظر فى حالة صبى فى مدرسة ابتدائية ، أحضروه إليه بسبب ما كان لديه من عادة « تلعيب » الوجه . كان معلمه

---

(1) Identification

قد شكا من أن سلوك الصبى ، عند لومه أو توبيخه ، كان شاذاً تماما . فى تلك المناسبات كان يقوم « بتلعيب » وجهه مما يؤدى بالفصل كله إلى أن ينفجر ضاحكا . كان رأى المعلم هو إما أن الصبى كان عن عمد يسخر منه وإما أن « تلعيبات » وجهه كانت نوعا من « اللازمة المرضية » ولم تلبث شكوى المعلم حتى تأكدت فى التو، إذ بدأ الصبى فى «تلعيب» وجهه أثناء جلسة الاستشارة ولكن عندما اجتمع المعلم والتلميذ والسيكولوجى اتضح الموقف . فعندما لاحظ أيخورن بتمعن كلا من المعلم والتلميذ تبين أن «تلعيبات» وجه الصبى كانت ببساطة محاكاة كاريكاتورية للتعبير الغاضب على وجه المعلم ، وأن الصبى عندما يكون عليه أن يواجه تأنيباً من جانب المعلم يحاول أن يسيطر على حصره بأن يحاكى المعلم على نحو لا إرادى . كان الصبى يتوحد بغضب المعلم ويحاكى ، وهو يتحدث، تعبيره الوجهى، وأن لم يتنبه أحد إلى هذه المحاكاة فمن خلال « تلعيباته » لوجهه كان يماثل نفسه أو يتوحد بالموضوع الخارجى المرهوب .

ويذكر القارىء حالة تلك البنت الصغيرة التى كانت تحاول بإيماءات سحرية أن تتغلب على المهانة المرتبطة بحسد القضيب عندها . كانت هذه البنت ، عن عمد وفى وعى ، تستخدم ذلك الميكانيزم الذى كان يلجأ إليه، بصورة لا إرادية ، صبينا الذى أشرنا إليه الآن . كانت فى البيت تخاف من أن تعبر الردهة فى الظلام ، لأنها كانت فى رعب من أن ترى أشباحا ولكنها وقعت فجأة على حيلة مكنتها من أن تعبر الردهة كانت تجرى عبر الردهة وهى تقوم بكل نوع من الإيماءات الغريبة أثناء عبورها . وقبل أن يمر وقت طويل أخبرت مزهوة أخاها الصغير بالسر الذى مكنها من أن تتغلب على حصرها قالت له: «لا حاجة بك إلى أن تخاف فى الردهة ؛ فكل ما عليك هو أن تتظاهر بأنك أنت هو الشبح الذى يمكن أن يلتقى بك.» وفى

هذا ما يكشف عن أن إيماءاتها السحرية كانت تمثل الحركات التى كانت تتخيل أن الأشباح تقوم بها .

وربما يميل البعض إلى أعتبار هذا النوع من السلوك خاصة مميزة عند الطفلين اللذين أوردت حالتيهما ، ولكنه فى واقع الأمر أسلوب من أكثر أساليب السلوك طبيعية وانتشاراً من جانب الأنا البدائية ، وهو مألوف من زمن طويل للذين قاموا بدراسة الأساليب البدائية فى استحضار الأرواح وطردها ، أو بدراسة المراسيم الدينية عند البدائيين . هذا إلى أنه توجد كثرة من ألعاب الأطفال ، حيث يتحور الفرد إلى موضوع مرهوب ، فيتحول الحصر بذلك إلى أمن يبعث على السرور . وتلك زاوية أخرى نستطيع منها دراسة الألعاب التى تقوم على محاكاة الشخصيات ، وهى الألعاب يولع بها الأطفال .

ولكن المحاكاة البدنية لعدو لا تمثل إلا سيطرة على جانب واحد من خبرة حصر مركبة : ونحن نعرف من ملاحظاتنا أن الجوانب الأخرى يتحتم أيضا السيطرة عليها .

كان على مريضى ، صبى السادسة الذى أشرت إليه عدة مرات ، أن يقوم بعدة زيارات لطبيب الأسنان . فى البداية مضى كل شىء على نحو رائع ، لم يكن يتأذى من العلاج ، بل كان مظفرا يسخر من أى شخص يخاف من طبيب الأسنان . ولكن ذات يوم جاء الصبى الصغير إلى بيتى بمزاج متعكر إلى أبعد حد . كان طبيب الأسنان قد فرغ لتوه من إيلامه كان مشاكسا وغير ودى ، وأخذ ينفس عن مشاعره فى الأشياء التى فى غرفتى . كانت ضحيته الأولى ممحاة (أستيكة) . طلب منى أن أعطيه إياها فلما رفضت تناول مطواة وحاول أن يقطعها نصفين .

وبعد ذلك اتجه برغبته إلى كرة كبيرة من الحبل الرفيع ، وطلب منى أن أعطيه إياها أيضا ، وصور لى شكل حى أى مقود ممتاز يمكن أن تكونه بالنسبة لحيواناته . وعندما رفضت أن اعطيه الكرة كلها تناول المطواة من جديد وقطع لنفسه قطعة كبيرة من الحبل الرفيع . ولكنه لم يستخدمها ، بل راح بعد ذلك بقليل يقطعها قطعا صغيرة . وفى النهاية ألقى بعيدا بالحبل الرفيع أيضا . ثم تحول بانتباهه إلى بعض أقلام الرصاص وراح فى غير كلل يبريها ، ويقصف أسنانها ثم يبريها من جديد . ولن يكون من الصحيح أن نقول بأنه كان يلعب لعبة «طبيب الأسنان» . فلم تكن هناك بالفعل أية محاكاة لشخصية طبيب الأسنان . كان الصبى يتوحد لا بشخص الطبيب المعتدى ، بل بعدوانه .

وفى مناسبة أخرى جاءنى هـــذا الصبى الصغير على الفور بعد أن وقعت له حادثة هينة . كان يشترك فى مباراة خارجية بالمدرسة عندما ارتطم وجهه ، وهو يجرى بكل قوته ، بقبضة معلم الألعاب ، التى اتفق لهذا الأخير أن كان يمدها أمامه . كانت شفة مريضى الصغير تدمى ، وكانت على وجهه آثار الدموع ، وحاول أن يخفى عنى هاتين الواقعتين بأن جعل من يده ستاراً على وجهه . وحاولت تهدئته وطمأنته . كانت تثقله الكآبة عندما غادرنى ، ولكنه فى اليوم التالى جاءنى شامخ القامة يحمل كل أسلحته . فعلى راسه كان يضع خوذة عسكرية ، وفى جانبه كان يتدلى سيف لعبة ، وفى يده كان يمسك بمسدس . وعندما رأى دهشتى من هذا التحول قال ببساطة : «كل ما أردته هو أن أرتدى هذه الأشياء وأنا ألعب معك.» ولكنه مع ذلك لم يلعب ، بل جلس بدلا من ذلك يكتب خطابا إلى أمه : «عزيزتى ماما ، من فضلك من فضلك ؛ من فضلك ، من فضلك أرسلى لى مطواتى التى وعدتنى بها ، ولا تجعلينى انتظر حتى عيد الفصح !» هنا أيضا لا نستطيع أن نقول بأنه ، كيما يسيطر على تجربة الحصر التى عاناها

فى اليوم السابق كان يحاكى شخصية معلم الألعاب الذى إصطدم به. ولا تستطيع أيضاً فى هذه الحالة أن يقول بأنه كان يحاكى عدوانية المعلم. فالأسلحة والدرع وهى من خصائص الرجولة، كانت ترمز بشكل وضوح إلى قوة المعلم، وشأنها شأن خصائص الأب فى حيوانات الاخاييل أعانت الصبى على أن يتوحد برجولة الراشد، ومن ثم يدافع عن نفسه ضد الوجيعة النرجسية والتعاسات الطارئة.

إن الأمثلة التى أوردتها حتى الآن توضح عملية تألفها تماما. فالطفل يستدخل خاصية من خصائص موضوع حصره، وبذلك يسيطر على خبرة حصر كان لتوة قد عاناها هنا يأتلف ميكانيزم التوحد أو الاستدماج مع ميكانيزم ثان هام. فبمحاكاته شخصية المعتدى، يتبنى خصائصه، وبمحاكاته عدوان المعتدى يحيل نفسه من الشخص موضع التهديد إلى الشخص مصدر التهديد. وفى كتاب «ما وراء مبدأ اللذه» نلتقى بمناقشة تفصيلية لدلالة هذا التحول من الدور السلبى إلى الدور الإيجابى كوسيلة للسيطره على خبرات كدرة أو صدمية فى الطفولة. «فعندما يقوم طبيب بفحص حنجرة طفل، أو بإجراء عملية صغيرة، فإن هذه الخبرة المزعجة سوف تصبح بشكل تأكيد موضوعا للعبة التالية، ولكن اللذه المستمدة من مصدر اخر لا يمكن إغفالها فالطفل فى انتقاله من سلبية الخبرة إلى إيجابية اللعب يوقع رفيقه فى اللعب فى ذلك الحدث الكدر الذى وقع له هو نفسة، وبذلك ينتقم لنفسه فى شخص هذا الوكيل.(١)» وما يصدق على اللعب يصدق أيضا على المسالك الأخرى عند الأطفال. فنى حالة الصبى الذى يقوم «بتلعيب» وجهه، وفى حالة البنت التى تمارس السحر، لا نتبين ما انتهى إليه آخر الأمر ذلك التهديد الذى توحدا به، بينما فى حالة الصبى

---

(١) Beyond the Pleasure Paineiple, pp. 15—16.
[راجع الترجمة العربية، ما فوق مبدأ اللذة، دار المعارف]

المتعكر المزاج نجد ان العدوانية المأخوذة عن طبيب الأسنان وعن معلم الألعاب تتجه ضد العالم بأسره .

وتدهشنا عملية التحول هذه بدرجة أكبر عندما ينتمى الحصر، لا إلى حدث فى الماضى ، بل إلى شىء متوقع فى المستقبل . فقد تحدثت فى مكان آخر عن صبى كان من عادته أن يدق بشكل صاخب جرس «بيت الأطفال» الذى كان يقيم فيه . وما أن ينفتح الباب حتى يقوم بتوبيخ خادمة البيت بصوت عال على ما كان من تباطؤها وعدم سماعها للجرس . كان فى الفترة الفاصلة بين دق الجرس واندلاع غضبه يستشعر الحصر من أن يعانى التوبيخ على عدم كياسته فى دق الجرس بكل هذا الصخب. كان ينهال بالتوبيخ على الخادمة قبل أن تجد من الوقت ما يمكنها من أن تشكو من سلوكه . كان العنف الذى يوبخها به - وهو إجراء وقائى - يترجم عن شدة حصره كانت العدوانية التى ينتحلها تتجه ضد نفس الشخص الذى كان يتوقع منه الصبى العدوانية ، لا ضد بديل ما . فقلب الأدوار بين المهاجم والمهجوم عليه كان يبلغ فى هذه الحالة إلى أقصى ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج منطقية.

وقد قدمت «جينى فالدر» عن هذه العملية صورة حية لصبى فى الخامسة (١) قامت بعلاجه . فعندما أوشك تحليله أن يلمس المعطيات المتعلقة باستمنائه والأخاييل المتصلة به ، تحول هذا الصبى ، الذى كان فى العادة خجولا مكفوفا ، إلى عدوانى فى ضراوه . اختفى إتجاهه السلبى المألوف ، ولم يبق من أثر لخصائصه الأنثوية . كان فى الجلسة يدعى أنه أسد يزأر ويهاجم المحللة . كان يحمل معه قضيبا أينما ذهب ، ويلعب دور «كرامبس» (٢)

---

(١) من تقرير شفوى فى سمنار فينا عن علاج الأطفال

(٢) Krampus شيطان كان يصحب القديس نقولا ويعاقب الأطفال الأشقياء — هامش الترجمة الانجليزية.

بمعنى أنه كان يضرب به فى كل إتجاه على درج السلم ، وفى بيته ، وفى غرفة المحللـــة . كانت جدته وأمه تشكوان من أنه كان يحاول ضربهما على وجههما. وقد بلغ إنزعاج أمه منتهاه عندما بدأ يلوح مهددا بسكاكين المطبخ وقد كشف التحليل عن أن عدوانية الطفل لا يمكن تفسيرها بحسبانها علامة على أن كفأ لحفزاتة الغريزية قد زال . فتحرير نزعاته الذكرية كان ما يزال أمامه شوط طويل . كان ببساطة يعانى الحصر. فاستجلاب أنشطته الجنسية ، الماضية منها والحديثة ، إلى الشعور ، والاعتراف الذى لا مفر منه بهذه الأنشطة ، أثارا عنده توقع العقوبة . فبحسب خبراته كان يعرف أن الكبار يغضبون عندما يتبينون أن طفلا ينغمس فى هذه الأنشطة . إنهم يصرخون فى وجهه ، أو يكبحونه فى عنف بلكمة على أذنه، أو يضربونه بقضيب، بل إنهم ربما يقطعون بسكين جزءا من بدنه. فالمريض الصغير فى انتحاله الدور الإيجابى ، وهو يزأر كأسد ويضرب فى كل إتجاه بالقضيب والسكين، إنما كان يسرح ويستبق العقوبة التى يخافها كان قد استدمج عدوانية الراشدين ، هؤلاء الذين كان يشعر بأنه مذنب فى نظرهم ،وإذ أحل محل السلبية الدور الإيجابى راح يوجه هذه العدوانية ضد هؤلاء الراشدين أنفسهم ، فى كل مرة يجد فيها نفسه على وشك أن يدلى إلى المحللة بما يعتبره معطيات خطرة كانت عدوانيته تتزايد . ولكن ما لبثت أفكاره ومشاعره المحرمة حتى تفجرت ، وما أن لقيت النقاش والتفسير حتى زال عنه الشعور بالحاجة إلى قضيب « كرامبس » ، هذا الذى كان حتى تلك اللحظة لا ينفك يحمله أينما ذهب ، فتركه فى بيت المحللة إختفى قهره إلى ضرب الآخرين فى نفس الوقت الذى اختفى فيه توقعه القلق من أن ينضرب .

ونحن نتبين فى « التوحد بالمعتدى » مرحلة ، ليست بحال غير شائعة ، فى النشأة السوية للأنا العليا. فهذان الصبيان، اللذان فرغت للتو من عرض

حاليتهما ، عندما توحدا بتهديدات العقوبة من جانب الذين يكبرونهما كانا يضطلعان بخطوة هامة فى الطريق إلى تكوين تلك المنظمـــة . كانا يستدخلان انتقادات الآخرين لسلوكهما . وعندما يكرر الطفل بشكل مستمرة هذه العملية من الاستدخال ، فيستدمج خصائص أولئك القائمين على تنشئته ،متخذا من خصائصهم وآرائهم خصائصه وآراءه ، فإنه يكون طوال هذا الوقت يهيء المادة التى يمكن أن تتشكل منها الأناء العليا . ولكن عند هذه النقطة لا يكون الأطفال بعد مخلصين كل الإخلاص فى اعترافهم بهده المنظمة . فالنقد المستدخل لا يتحول بعد بشكل مباشر إلى نقد ذاتى . فكما رأينا فى المثالين اللذين قدمتهما يكون النقد المستدخل غير مرتبط بالنشاط المستهجن ويعاد من جديد إلى العالم الخارجى . فعن طريق عمليه دفاعية جديدة يأتى ، فى أعقاب التوحد بالمعتدى ، هجوم إيجابى على العالم الخارجى .

وإليكم مثالا أكثر تعقيدا ربما يلقى ضوءاً على هذا التطور الجديد للعملية الدفاعية . صبى فى أوج عقدته الأوديبية ، كان يستخدم هذا الميكانيزم الخاص كما يسيطر به على ما لديه من تثبيت على أمه كانت علاقته الهائنة معها تتعكر بتفجرات من السخط . كان يؤنبها فى عنف مستنداً إلى كل لون من التململات . ولكن كان هناك اتهام غامض وبعينه يعاود الظهور دائما أبدا : كان يشكو فى عناد من استطلاعيتها . ومن اليسير أن تتبين فى ذلك الخطوة الأولى للتخلص من وجداناته المحرمة . ففى أخاييله كانت أمه على علم بمشاعره الليبيدية تجاهها ، وكانت فى سخط ترفض مطارحاته . وكان سخطها هذا ينطبع بشكل إيجابى فى نوبات سخط الصبى ضدها . ولكنه ـ على العكس من مريض المحللة جينى فالدر ـ لم يكن يؤنب أمه متعللا بأمور عامة ، بل مستندا إلى أمر نوعى واحد هو استطلاعيتها . وقد كشف التحليل عن

أن هذه الاستطلاعية كانت عنصرا مكونا فى حياته الغريزية هو ، لا فى الحياة للغريزية لأمه . فمن بين الغرائز الجزئية الداخلة فى علاقته بأمه كانت النظارية (السكوبتوفيليا) [1] . عنده أعسرها على القياد . كان قلب الأدوار تاما . فقد تبنى سخط أمه ، وفى مقابل ذلك ألصق بها استطلاعيته .

مريضة صغيرة كان من عادتها ، فى مراحل بعينها من المقاومة ، أن تلوم فى مرارة محللتها على كونها متكتمة . كانت تشكو من أن المحللة كانت مسرفة فى تحفظها ، وكانت المريضة تضنيها بأسئله عن أمور شخصية ، وكانت تشعر بالتعاسة عندما الا تتلقى الإجابة ، ثم يتوقف اللوم ، ولكن فقط ليبدأ من جديد بعد وقت قصير ، ودائما أبدا بنفس الطريقة النمطية وكأنها آلية . فى هذه الحالة تستطيع أن نتبين أيضا مرحلتين فى العملية النفسية . فبين الحين والحين ، وبسبب كف معين كان يحول بينها وبين الإفضاء ، كانت المريضة نفسها بشكل شعورى تكبح معطيات جد حميمة كانت تعرف أنها بذلك تنتهك القاعدة الأساسية للتحليل ، وكانت تتوقع من المحللة أن تلومها . استدخلت المريضة اللوم الذى تتخيله ، وإذ تبنت الدور الإيجابى ألصقت التهمة بالمحللة . كانت فترات عدوانيتها تتزامن على وجه الدقة مع فترات تكتمها . كانت تلوم المحللة على نفس تلك الغلطة التى كانت هى نفسها تقترفها . أدركت المريضة سلوكها المتكتم سلوكا مستهجنا من جانب المحللة ،

ومريضة صغيرة أخرى كان من عادتها أن تعتريها بين الحين والحين نوبات من العدوانية العنيفة . كنت أنا نفسى ، وكان أبواها ، كما كان

---

(١) Scoptophilie : الاستمتاع الجنسى البصرى أى حب النظر إلى الأجزاء الحميمة من جسم الآخر أو مشاهدة الجماع . وهى المقابل للاستعراضية أى الاستمتاع من عرض أجزاء حميمة من الجسم ليشاهدها الآخرون .

أناس آخرون لا تربطهم بها صلة وثيقة بنفس الدرجة ، كـــانا جميعا ، وبدرجة متساوية تقريبا ، موضوعات لعدوانيتها · هناك أمران على وجه الخصوص كانت تشكو منهما دائما . أولهما أنها أثناء هذه النوبات كانت تشعر بأن الناس يكتمون عنها سراً لا يجهله أحد سواها ، وكانت تضنيها الرغبة فى أن تتبين هذا السر . وثانيهما أنها كانت تشعر بخيبة أمل عميقة من نقائص صديقاتها جميعا . وتماما كما فى الحالة السابقة ، حيث كانت فترات تكتم المريضة تتزامن مع فترات شكواها من تكتم المحللة كذلك كانت نوبات العدوانية عند هذه المريضة تنطلق بشكل آلى كلما أو شكت أخاييل استمنائها المكبوتة ، هذه التى لم تكن هى نفسها على وعى بها ، على أن تنبثق فى داخل الشعور . كانت انتقاداتهـــا ضد موضوعات حبها تترجم عن الانتقادات التى كانت تتوقعها من هذه الموضوعات بسبب استمنائها فى الطفولة . توحدت على نحو تام مع هذه الإدانة ، ثم أدارتها عائدة من حيث جاءت ضد العالم الخارجى . كان السر الذى يكتمه عنها كل الناس هو سر استمنائها ، هذا الذى تكتمه ليس فقط عن الآخرين بل أيضا عن نفسها . هنا أيضا عدوانية المريضة تناظر عدوانية الناس الآخرين ، و « تكتم » الناس الآخرين يترجم عن الكبت عندها .

هذه الأمثلة الثلاثة قد زودتنا بفكرة عن أصل هذه المرحلة الخاصة من نشأة وظيفة الأنا العليا · وحتى عندما يكون النقد الخارجى قد تم استدماجه فإن التهديد بالعقوبة والذنب المقترف لا يكونان بعد قد ارتبطا أحدهما بالآخر فى ذهن المريض ففى نفس اللحظة التى يتم فيها « استدخال » النقد يتم فيها « استخراج » الذنب ، وهذا يعنى أن ميكانيزم التوحد بالمعتدى يتممه ميكانيزم دفاعى آخر هو على التحديد إسقاط الذنب .

فالانا التى تنمو فى هذا الاتجاه ، استناداً إلى هذا الميكانيزم الدفاعى للاسقاط ، تستدخل السلطة التى تتعرض هذه الأنا لانتقاداتها وتدمج تلك السلطة فى أناها العليا . وعندئذ تصبح هذه الأنا قادرة على اسقاط خفراتها المحرمة على العـــالم الخارجى . فقسوة هذه الأنا على الآخرين سابقة على قسوة هذه الأنا على نفسها . أنها تتبين ما يعتبر جديراً باللوم ، ولـكنها تحمى نفسها بهذا الميكانيزم الدفاعى من ذلك النقد الأليم لذاتها . فالسخط العاصف على خطأ شخص آخر هو الطليعة والبديل لمشاعر الإثم الخاصة بالأنا ويزداد سخط الأنا بشكل آلى كلما كان إدراكها لذنبها بارزاً . هذه المرحلة من نشأة الأنا العليا هى أشبه ما تكون بمرحـــلة تمهيدية للأخلاق . فالأخلاق بمعنى الـكلمة تبدأ عندما يلتقى النقد المستدخل ، وهو الذى غدا الآن متجسداً فى معيار تتشبث به الأنا العليا ، مع إدراك الأنا لإثمها . ومنذ هذه اللحظة ، فإن قسوة الأنا العليا تتجه إلى الداخل بدلا من الخارج ، ويغدو الشخص أقل قسوة مع الآخرين . ولـكن الأنا العليا ما أن تبلغ إلى هذه المرحلة من نموها ، حتى يكون على الأنا أن تعانى ذلك « الألم » الاكثر شدة والذى ينجم عن النقد الذاتى وشعور الإثم .

ومن الممكن أن يظل بعض الناس متوقفين عند هذه المرحلة الوسطى من نمو الانا العليا ، فلا يكتمل عندهم قط تمام الاكتمال استدخال العملية النقدية . فعلى الرغم من إدراكهم لذنبهم فإنهم يستمرون عدوانيين بشكل خاص فى اتجاههم من الآخرين . فى مثل هذه الحالات يكون سلوك الأنا العليا إزاء الآخرين من انعدام الرحمة بقدر ما يكون عليه سلوك الأنا العليا إزاء الأنا عند مريض السوداوية (الملانخوليا) . وعندما يكون تطور الأنا العليا مكفوفاً على هذا النحو ، فمن المحتمل أن يكون ذلك علامة على بداية جهيضة لحالات السوداوية .

إن عملية « التوحد بالمعتدى » تمثل من ناحية مرحلة تمهيدية فى نشأة الأنا العليا، كما تمثل من ناحية أخرى مرحلة وسطى فى نشأة البرانويا. فهذه العملية تتشابه مع الحالة الأولى فى ميكانيزم التوحد وتتشابه مع الحالة الثانية فى ميكانيزم الإسقاط . وفى نفس الوقت فإن التوحد والإسقاط يمثلان عمليتين سويتين من نشاط الأنا ، ولكن تتباين نتائجهما إلى حد بعيد تبعاً للمادة التى يعملان فيها .

فالائتلاف الخاص بين الاستدماج والإسقاط ، والذى أطلقنا عليه مصطلح « التوحد بالمعتدى » ، يمكن اعتباره سويا طالما كانت الأنا تستخدمه فقط فى صراعها مع السلطة، أى فى جهودها للتعامل مع موضوعات حصرها . ولكن هذه العملية الدفاعية تتوقف عن أن تكون سوية ، وتغدو باثولوجية ، متى انتقل استخدامها إلى حياة الحب . فعندما يقوم زوج بنقل على زوجته لخفراته الخاصة إلى الخيانة ثم يؤنبها بعد ذلك فى عنف على خياناتها ، فإنه فى واقع الأمر يستدخل تأنيبات زوجته ويسقط جزءاً من الهو عنده على زوجته(١) . ولكن هدفه على أية حال هو أن يحمى نفسه لا ضد العدوان من الخارج بل ضد ما يتهدد تثبيته الليبيدى الموجب على زوجته من انحطام ، نتيجة للقوى المزعجة من الداخل. ومن ثم تكون النتيجة مختلفة . فبدلا من إتجاه عدوانى ضد بعض المهاجمين الخارجيين السابقين ، يستحدث المريض تثبيتاً قهرياً على زوجته يتخذ صورة غيرة مسقطة .

Freud, Certain Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality, Collected Papers, vol. II, p 232.

(١) قارن :

فرويد ، ميكانيزمات عصابية فى الغيرة والدانويا والجنسية المثلية ، المقالات المجموعة ، مجلد ، ص ٢٣٢ .

عندما يجرى استخدام ميكانيزم الإسقاط كدفاع ضد حفزات عشقية من الجنسية المثلية ، فإنه يكون مؤتلفا أيضاً مـــع ميكانيزمات أخرى . فالقلب للضد (وهو فى هذه الحالة قلب الحب إلى الكراهية) يتمم ماكان الاستدماج والإسقاط قد بدآه ،وتكون النتيجة هى نشأة هذاءات برانوية . وفى كلتا الحالتين — حالة الدفاع ضد الحفزات العشقية الغيرية ، وحالة الدفاع ضد الحفزات العشقية المثلية — لا يكون الإسقاط كيفما اتفق فانتقاء الأنا للمأوى الذى يستضيف حفزاتها اللاشعورية الخاصة إنما تحدده المادة المتاحة Wahrnehmungsmaterial ، « التى تفضح أيضاً الحفزات اللاشعورية عند الرفيق الجنسى(١) » .

فن الزاوية النظرية فإن تحليل عملية « التوحد بالمعتدى » يعيننا على تمييز الأساليب المختلفة التى تستخدم بها هذه الميكانيزمات الدفاعية الفرعية ، ومن الزاوية العملية فإن هذا التحليل يمكننا من أن نميز فى التحويل نوبات الحصر من تفجرات العدوان . فعندما يستجلب التحليل إلى شعور المريض حفزات عدوانية لاشعورية أصيلة ، فإن الوجدان الحبيس يسعى إلى التخفف عن طريق التنفيس فى التحويل . ولكن إذا لم تكن العدوانية أصيلة بل راجعة إلى توحد المريض بانتقاداتنا التى يتوهمها ، فلن تتأثر هذه العدوانية أدنى تأثر « بتعبير المريض عنها تعبيراً عملياً » أو « بالتنفيس عنها » فطالما كانت الحفزات اللاشعورية محرمة فإن العدوانية تشتد ثم تحتجب ، كما فى حالة الصبى الصغير ، هذا الذى لم يعترف باستمنائه إلا بعدما نجح التحليل فى تبديد خوفه من العقوبة ومن الأنا العليا .

(١) المرجع السابق ص٢٣٣

الفصل العاشر

شكل من الايثار

إن أثر ميكانيزم الإسقاط هو قطع الصلة بين الأفكار الممثلة للحفزات الغريزية الخطرة وبين الأنا . وهو فى هذا يشبه إلى أقصى حد عملية الكبت. فالعمليات الدفاعية الأخرى ، من قبيل النقل أو القلب للضد أو الارتداد ضد الذات ، تؤثر فى العملية الغريزية ذاتها : بينما الكبت والإسقاط يقتصران على جعل هذه العملية الغريزية مستحيلة على الإدراك . ففى الكبت تنطرد الفكرة المستهجنة عائدة إلى الهو ، بينما هى تنقل فى الإسقاط إلى العالم الخارجى . وثمة نقطة شبه أخرى بين الإسقاط والكبت هى عدم ارتباطهما بأى موقف حصر معين ،إذ يمكن أن يعملا بدافع من حصر موضوعى أو من حصر الأنا العليا أو من حصر غريزى على السواء. ويذهب كتاب المدرسة الإنجليزية فى التحليل النفسى إلى أن الطفل فى أبكر شهور الحياة ، وقبل أن يحدث عنده أى كبت ، يقوم بإسقاط حفزاته العدوانية الأولى ، وإلى أن هذه العملية تنطوى على أهمية بالغة بالنسبة إلى الصورة التى يكونها الطفل عن العالم من حوله وبالنسبة إلى النحو الذى يكون عليه نمو شخصيته .

ومهما يكن ، فإن استخدام ميكانيزم الإسقاط هو أمر طبيعى تماما بالنسبة للأنا عند صغار الأطفال ، طوال أبكر مرحلة من الطفولة . فهم يستخدمونه كوسيلة للتملص من انشطتهم ورغباتهم ، عندما تغدو خطرة ، وللالقاء بمسئوليتها على كاهل عميل خارجى . فالطفل « الغريب » ، والحيوان ، بل والأشياء الجامدة ، كلها صالحة بنفس الدرجة بالنسبة لأنا الطفل كوسيلة تتملص بها أنا الطفل من أخطائها . فمن الطبيعى لهذه

الأنا أن تتخلص بهذه الطريقة من حفزاتها ورغباتها المحرمة ، لاصقة إياها بكليتها بأشخاص آخرين . فإذا كانت هذه الرغبات تستتبع العقوبة من جانب السلطة ، فإن الأنا تقدم ، ككباش فداء ، أولئك الأشخاص الذين تكون قد اسقطت عليهم هذه الرغبات ، أما إذا كان الإسقاط راجعا إلى شعور إثم فإن الأنا ، بدلا من أن تنتقد ذاتها ، تتهم الآخرين . وفى كلتا الحالتين تسلخ الأنا نفسها عن « مندوبيها » وتقسو مسرفة فى حكمها على أولئك المندوبين .

إن ميكانيزم الإسقاط يشيع الاضطراب فى علاقاتنا الإنسانية عندما نسقط غيرتنا وننسب إلى الآخرين تصرفاتنا العدوانية . ولكن الإسقاط يمكن أن يعمل فى الاتجاه الآخر أيضا ، فيمكننا من إقامة علاقات موجبة قيمة ، ومن ثم يدعم علاقاتنا بعضنا بالبعض . وهذا الشكل السوى والأقل وضوحا من الإسقاط يمكن نعته « بالتنازل الإيثارى »[1] عن حفزاتنا الغريزية لصالح الآخرين .

وفيما يلى مثال يوضح ما أعنيه :

مربية شابة ذكرت فى تحليلها أنها فى طفولتها كانت تستبد بها فكرتان : كانت تريد أن تكون لها ملابس جميلة ، وأن يكون لها عدد من الأطفال وفى أخاييلها كانت ، بشكل قهرى تقريبا ، مستغرقة فى تصوير تحقيقها لهاتين الرغبتين . ولكن هناك أيضا كثرة كثيرة من الأشياء الأخرى التى كانت تتوق إليها : كانت تتوق إلى أن تملك وإلى أن تعمل كل ما يملكه وكل ما يعمله أتراب لعبها اللواتى يكبرنها — بل إنها كانت فى الواقع تتوق إلى أن تعمل كل شىء خيراً مما يعملن ، وإلى أن تحظى بالإعجاب على براعتها . كانت صرختها التى لا تتوقف : « وأنا أيضاً ! » مصدر إزعاج

(١) Altrnistische Abretung ، وهذا المصطلح من ابتداع إدوارد بيرنج .

للواتى يكبرنها . وكانت رغباتها تتميز بكونها فى نفس الوقت ملحة ولا ترتوى .

كان ما يستلفت الإنتباه بصفة خاصة فى وضعها كراشدة ما يطبعها من تواضع ومن قناعة فيما تطلبه من الحياة . وعندما جاءتنى للتحليل كانت غير متزوجة ولا أطفال لها ، وكانت ملابسها أقرب إلى الإهمال وعدم الاستلفات . لم تكشف عن شىء يذكر من الحسد أو الطموح ، ولم تكن لتتنافس مع الآخرين إلا إذا أكرهتها على ذلك ظروف خارجية . كان الانطباع الأول هو أن شخصيتها ، كما يحدث غالبا ، قد تطورت فى الاتجاه المضاد تماما لما كانت توحى به طفولتها ، وأن رغباتها قد انكبتت مخلية مكانها — فى الشعور — لتكوينات مضادة (اللامبالاة بدلا من التحرق للإعجاب ، والقناعة بدلا من الطموح) . وكان من المتوقع أن يكون ذلك الكبت راجعا إلى تحريم للجنسية امتد من حفزاتها الاستعراضية ورغبتها فى الأطفال إلى حياتها الغريزية بكليتها .

ولكن كان فى سلوكها — وقت أن عرفتها — من السمات ما يناقض هذا الانطباع . فعندما تفحصت حياتها بمزيد من التفصيل اتضح أن رغباتها الأصلية كانت تلقى التوكيد على نحو لا يتحقق لو أن هـــذه الرغبات قد عانت الكبت . فرفضها لجنسيتها لم يمنعها من أن تهتم فى حماسة بالشئون العشقية لصديقاتها وزميلاتها . كانت تسعى فى حماسة لعقد الزيجات . وكانت تؤتمن على الكثير من أسرار العلاقات العشقية . وعلى الرغم من إنها لم تكن تحفل بملابسها فقد كانت تكشف عن اهتمام بملابس صديقاتها . وعلى الرغم من انه لم يكن لها اطفال فقد كانت تكرس حياتها لأطفال الآخرين ، مما يتضح من انتقائها لمهنتها . ويمكن القول بأنها كانت تبدى درجـــة غير عادية من الانشغال بأن تظهر

صديقاتها فى اجمل الثياب ، وان يحظين بالإعجاب ، وأن يكون لهن اطفال . كذلك ، على الرغم من سلوكها « المتنازل » كانت طموحة بالنسبة إلى الرجال الذين أحبتهم ، وكانت تتابع ارتقاءهم المهنى بأقصى حماسة . كان يبدو الأمر وكأن حياتها الخاصة قد أفرغت من الاهتمامات والرغبات ؛ كانت حياتها حتى وقت التحليل تكاد تكون خالية من الأحداث تماما . فبدلا من أن تبذل جهدها لتحقيق أية رغبات خاصة بها كانت تنفق كل طاقاتها تعاطفا مع تجارب الآخرين موضع اهتمامها . كانت تحيا فى حياة الآخرين بدلا من أن تكون لها تجاربها الخاصة .

وقد كشف تحليل علاقاتها الطفلية بأبيها وأمها ، وبشكل واضح ، عن طبيعة التحول الداخلى الذى حدث عندها . فتنازلها الباكر عن غريزتها قد أدى عندها إلى تكوّن أنا عليا قاسية بشكل غير عادى ، مما جعل من المستحيل عليها أن تشبع رغباتها الخاصة بها . فحسد القضيب عندها ، بتفريعاته فى صورة أخاييل رَجُلية طموحة ، غدا محرما ، كذلك أيضا غدت محرمة رغبتها الأنثوية فى الأطفال ورغبتها فى أن تستعرض نفسها — عارية أو فى ملابس جميلة — أمام أبيها ، وأن تحظى بإعجابه . ولكن هذه الحفزات لم تنكبت : فقد عثرت على « مندوبين » فى العالم الخارجى يعملون وكلاء لكل حفزة من الحفزات . كان إعتداد صديقاتها بأنفسهن يزودوها بمرتكز — إن جاز القول — يمكنها من أن تسقط اعتدادها بنفسها ، وكانت رغباتها الليبيدية وأخاييلها الطموحة هى بالمثل ودائع فى العالم الخارجى . فحفزاتها الغريزية ، التى كانت محرمة ، أسقطتها على الأخريات ، على نحو ما فعل المرضى الذين عرضت حالاتهم فى الفصل السابق . وينحصر الاختلاف الوحيد فى الطريقة التى عولجت بها هذه الحفزات فيما بعد . فهذه المريضة لم تسلخ نفسها عن « مندوبيها »[1] ، بل

(١) قارن ص ٩٢ — هامش الترجمة العربية .

توحدت بهؤلاء المندوبين . كشفت عن تعاطفها مع رغباتهن ، وشعرت بوجود رابطة قوية بشكل غير عادى تربطها بهن . والأنا العليا عندها ، التى كانت تدين حفزة غريزية بعينها إذا ما انتمت إلى أناها ، كانت تتسامح بشكل عجيب إزاء نفس هـــذه الحفزة عند الأخريات . كانت تشبع غرائزها بأن «تشاطر» فى إشباعها عند الأخريات ، مستعينة فى هذا الغرض بمكانيزمى الإسقاط التوحد[1] . فإتجاه « التنازل » الذى أرغمها تحريم حفزاتها على أن تتبناه فيما يتصل بشخصها كان يتلاشى عندما يتصل الأمر بتحقيق نفس الرغبات — مسقطة — عند الأخريات . وهكذا كان « تنازلها » عن حفزاتها الغريزية لصالح الأخريات ينطوى على دلالة « الأنانية » (الأثرة) ، ولكنها فقط فى جهودها لإشـــباع حفزات الأخريات كان يمكن أن ننعت سلوكها بالإيثار .

وهذا التنازل عن رغباتها للأخريات كان خاصية مميزة لكل حياتها وكان من الممكن أن نتبينه بشكل جد واضح فى تحليلنا لأحداث صغيرة متفرقة فعلى سبيل المثال ، وقعت وهى فى الثالثة عشرة ، ودون أن يعلم أحد ، فى حب صديق لأخت تكبرها ، وكانت تلك الأخت فيما مضى موضع غيرتها بشكل خاص كان يخطر لها أحيانا أن ذلك الصديق يفضلها على أختها ، وكانت لا تنفك تأمل فى أن يكشف ذلك الصديق عن علامة على حبه لها . وفى إحدى المناسبات حدث ، كما حدث مراراً من قبل ، أن وجدت نفسها موضع استهانة . فذات مساء ، وعلى غير انتظار ، دعا ذلك الصـــديق أختها إلى نزهة . وفى التحليل تذكرت المريضة بشكل متميز تماما كيف أنها ، بعد ما شلتها خيبة الأمل فى البداية ، شرعت

---

(١) قارن فى هذا الصدد مفهوم بول فيدرن عن « التوحد التعاطفى » ، وملاحظاته عن هذا الموضوع : Jmago, Bd XXII, 1936, S 33.

فجأة تنهمك فى البحث عن الأشياء التى تجعل أختها «وسيمة» أثناء خروجها للنزهة ، وتتلهف على مساعدتها كيما تكون جاهزة . وكانت المريضة وهى تفعل ذلك مفعمة بالسعادة ، وقد نسيت تماما بأنها لم تكن هى بل أختها التى ستخرج للمتعة . لقد أسقطت صبابتها إلى الحب وتحرقها إلى الإعجاب على منافستها ، وإذا توحدت بموضوع حسدها راحت تستمتع بإشباع صبابتها هذه .

وكانت تعيش نفس هذه العملية عندما يتصل الأمر بالإحباط بدلا من الإشباع . كانت تحب أن تقدم للأطفال الذين ترعاهم أشياء طيبة يأكلونها . فذات مرة رفضت إحـــدى الأمهات أن تعطى طفلها قطعة حلوى . وعلى الرغم من أن المريضة ذاتها لم تكن تحفل بملذات المائدة ، إلا أن رفض الأم أثار عندها سخطا عنيفا . عاشت إحباط رغبة الطفل ، وكأن الرغبة رغبتها ، تماما كما استمتعت فى المناسبة الأخرى ، على نحو بديلى ، بإشباع رغبات أختها . ومن الواضح أن ماتنازلت عنه للآخرين هو حقها فى إشباع رغباتها دون تعويق .

ويبرز هذا الوضع الأخير ، بل وبشكل أوضح ، فى تجارب مريضة أخرى من نفس هذا النوع . سيدة شابة . كانت علاقتها بأب زوجها وديه بشكل خاص ، استجابت بشكل غريب جدا لموت أم زوجها . اضطلعت المريضة ، مع نساء أخريات فى الأسرة . بالتصرف فى ملابس الراحلة . وعلى خلاف الأخريات جميعاً رفضت مريضتى أن تأخذ لاستخدامها الخاص أى شىء ولو ثوبا واحداً . ولكنها بدلا من ذلك احتجزت معطفا كهدية لإحدى القريبات الفقيرات . وأرادت أخت الراحلة أن تنزع لنفسها من ذلك المعطف ياقة الفراء التى به ، وعندئذ استشاطت المريضة ، التى كانت حتى الآن لاتهتم ولا تحفل بالأمر كله ، فى غضب مسعور .

أدارت ثورتها كلها ، وهى الناجمة عن عدوانيتها التى هى مكفوفة فى العادة ضد أخت الواحلة هذه ، وأصرت على أن تأخذ القريبة الفقيرة ما احتجزته لها . وقد كشف تحليل هذه الحادثة عن أن شعور الإثم عند المريضة قد منعها من أن تأخذ لنفسها أى شىء مما كان لأم زوجها . فلأن ترتدى ثوبها فذلك ما كان يرمز عندها إلى إشباع رغبتها فى أن تحل محل أم زوجها بالنسبة إلى أب زوجها . ومن هنا كان رفضها لأى مطلب لنفسها ، وكان تنازلها لصالح القريبة الفقيرة فى أن تكون وريثة « الأم » ، أم زوجها ولكنها وقد فعلت ذلك كان بوسعها أن تعيش ملء التجربة ، الرغبة وإحباطها ، وكان بوسعها أن تصر على إشباع الرغبة ، وهو ما كان يستحيل عليها أن تقوم به ما اتصل الأمر بشخصها . فالأنا العليا ، التى اتخذت مثل هذا الإتجاه الذى لا يرحم من حفزاتها الغريزية الخاصة ، سلمت بهذه الرغبة ذاتها عندما لم تعد مرتبطة بأنا المريضة . وعندما أصبح الأمر يتعلق بإشباع رغبة شخص آخر ، فإن السلوك العدوانى الذى كان فى العادة مكفوفا غدا فجأة « متناغما مع الأنا » .

إن عدداً لا يحصى من الحالات المماثلة لتلك التى أوردتها يمكن ملاحظته فى الحياة اليومية ، متى اتجه انتباهنا إلى هذا الائتلاف بين الإسقاط والتوحد لأغراض الدفاع . من قبيل ذلك تلك الفتاة الشابة التى كان يحول بينها وبين الزواج تأنيب الضمير ، فبذلت كل ما كان فى وسعها تشجيعها على إتمام خطبة شقيقتها . وتلك المريضة الأخرى التى كانت تعانى من كفوف قهرية تحول بينها وبين أن تنفق أية نقود على نفسها ، فلم تتردد فى أن تنفق بتبذير على الهدايا . وتلك المريضة الثالثة التى كان الحصر يحول بينها وبين أن تنفذ مشاريعها الخاصة بالسفر ، فكانت على خلاف ما ينتظر منها تماما تلح بنصائحها على صديقاتها ليقمن بالسفر . فى كل هذه الحالات ، فإن توحد المريضة مع شقيقة أو صديقة أو شخص يتلقى

هديتها يكشف عن نفسه فى شعور دافىء مفاجىء بالعلاقة التى تربطهما ، وهو شعور كان يستمر ما استمرت رغبة المريضة فى تلقى الإشباع بشكل بديلى . والنكات عن « العجائز اللواتى يعقدن الزيجات » وعن « الدخلاء الفضوليين الذين لا يقعدهم أى رهان مهما غلا »[1] لا ينقطع سيلها .

هذه العملية الدفاعية تخدم غرضين . فهى من ناحية تمكن الفرد من أن يكون له اهتمام ودى بإشباع غرائز الآخرين ، ومن ثم تمكنه ، على نحو غير مباشر وعلى الرغم من تحريم الأنا العليا ، من إشباع غرائزه ؛ وهى من ناحية أخرى تحرر ذلك النشاط المكفوف وتلك العدوانية المكفوفة اللذين كانا فى الأصل يستهدفان ضمان إشباع الرغبات الغريزية فى صلتها الأصلية به . فالمريضة التى لا تستطيع أن تقـدم على إشباع حفزاتها الفمية يكون بوسعها أن تستشعر السخط من رفض إحـدى الأمهات أن تتساهل مع طفلها ، أى من حرمان فمى يفرض على شخص آخر . وزوجة الابن التى كانت التحريمات تمنعها من أن تطالب لنفسها بحقوق الزوجة الراحلة (أم زوجها) شعرت بأن لها أن تدافع ، وبأقصى طاقات عدوانيتها ، عن الحق الرمزى لامرأة أخرى . والموظفة التى لا تجترىء قط على أن تطالب لنفسها بزيادة فى المرتب إذا بها فجأة تضيق الخناق على المديرة مطالبة إياها بضرورة أن تحصل زميلة لها على حقوقها . إن تحليل مثل هذه المواقف يكشف عن أن هـذه العملية الدفاعية ترجع بأصلها إلى صراع طفلى ضد السلطة الأبوية فيما يتصل بشكل من أشكال الإشباع الغريزى . فالحفزات العدوانية ضد الأم ، والتى تظل محرمة طالما كان الأمر يتصل بإشباعها عند المريضة نفسها ، يرخى لها

---

(١) ['Kiebetze, deneakein Spiel zu hoch ist.']

العنان عندما تكون بشكل ظاهر هى حفزات شخص آخر. وأعظم الأمثلة التى نألفها تجسيدا لهذا النوع من الأشخاص هو رجل البر الذى يتطوع لجمع التبرعات ، فيطالب بأقصى حماسة وعدوانية مجموعة من الناس بأن تقدم النقود ليعطيها لمجموعة أخرى . وربما يكون أكثر أمثلة هذا النوع تطرفا ذلك السفاح الذى يقتل الظالم باسم المظلومين . ويكون الموضوع الذى تتجه ضده العدوانية المتحررة هو دائما أبدا ممثل السلطة : تلك التى فرضت على الشخص فى الطفولة أن يتنازل عن غريزته .

وثمة عوامل مختلفة تضطلع بتحديد ذلك الموضوع الذى يتم اختياره ، والذى يكون لصالحه التنازل عن الحفزات الغريزية . وربما يكون إدراك الحفزة المحرمة عند شخص آخر كافيا بحيث يوحى للأنا بأن هاهنا فرصة للإسقاط . ففى حالة المريضة التى شاركت فى التصرف فى مخلفات أم زوجها ، كانت القرابة البعيدة للشخصية البديلة ضمانا يؤكد براءة الرغبة ، هذه التى كانت ، عند المريضة نفسها ، تمثل حفزاتها المحارمية . وفى معظم الحالات كان البديل يوما هو موضوع الحسد . فالمربية الإيثارية ، فى المثال الأول الذى قدمته ، نقلت أخاييلها الطموحة على أصدقائها من الرجال ، ونقلت رغباتها اللبيدية على صديقاتها من النساء . فالأصدقاء من الرجال كانوا ورثة حبها لأبيها وأخيها الأكبر ، وهما اللذان كانا موضع حسد القضيب عندها ، بينما صديقاتها من النساء كن يمثلن تلك الشقيقة التى كانت قد نقلت عليها ذلك الحسد فى مرحلة متأخرة من طفولتها ، فى صورة حسد لجمالها . شعرت المريضة بأن كونها بنتا يحول بينها وبين تحقيق مطامحها ، وبأنها لم تكن فى نفس الوقت حتى بنتا جميلة بحيث تجتذب الرجال حقا إلى حبها . وفى خيبة أملها هذه مع نفسها نقلت رغباتها على موضوعات كانت تشعر أنها أكثر صلاحية منها لتحقيق تلك الرغبات . فأصدقاؤها من الرجال كان عليهم بشكل بديلى أن يحققوا لها فى مجال الحياة المهنية ما

كان يستحيل عليها هى نفسها أن تحققه،وكان على الفتيات اللواتى يفضلنها جمالا أن يحققن لها رغباتها فى مجال الحياة العشقية . لقد كان تنازلها الإيثارى وسيلة للتغلب على وجيعتها النرجسية .

وهذا التنازل عن الرغبات الغريزية لصالح موضوع أكثر صلاحية لتحقيقها غالبا ما يضطلع بتحديد علاقة الفتاة برجل تنتقية بحيث يمثلها — وذلك على حساب أية علاقة موضوعاتية[1] بمعنى الكلمة . واستنادا إلى هذه العلاقة « الإيثارية » تتوقع الفتاة من الرجل أن يحقق عنهاالمشاريع التى تعتقد أنها هى نفسها معوقة بسبب جنسها عن أن تنهض بها : من قبيل ذلك أنها تريده أن يحيا حياة طالب العلم ، أو أن يتخذ مهنة بعينها أو أن يصبح شخصية مشهورة أو ثرية بدلا منها ، فى مثل هذه الحالات يمكن للأثرة والإيثار أن ينصهرا معا بفسب جدمتباينة . فنحن نعرف أن الآباء أحيانا ما يعهدون إلى أطفالهم بمشاريع حياتهم الخاصة ، وذلك بطريقة تنطوى فى نفس الوقت علىالإيثـــار والأثرة . كل شيء يبدو وكأنهم يأملون عن طريق الطفل ، هذا الذى يعتبرونه أكثر صلاحية منهم لهذا الغرض ، فى أن ينتزعوا من الحياة تحقيق تلك المطامح التى عجزوا هم أنفسهم عن تحقيقها . وربما تكون العلاقة الإيثارية الخالصة التى تربط الأم بابنها راجعة فى معظمها إلى تنازل من هذا القبيل عن رغباتها إلى ذلك الموضوع (الابن) ، هذا الذى هو بحكم جنسه « أكثر صلاحية »لتحقيقها . فنجاح رجل فى الحياة يمضى فى واقع الأمر بعيدا فى تعويض نساء أسرته عن تنازلهن عن مطامحهن الخاصة .

---

(١) [object-relation ، فى مقابل العلاقة النرجسية narcissistic — هامش الترجمة العربية .]

إن أكثر الدراسات ارهافا وإسهابا عن هذا « التنازل الايثارى » تطالعنا فى مسرحية ادمون روستان «سيرانو دى برجراك». بطل المسرحية شخصية تاريخية . نبيل فرنسى من القرن السابع عشر ، شاعر وضابط فى الحرس ، اشتهر بفكره وشجاعته ، ولكن كانت تعوقه عن مغازلة النساء أنف قبيحة بشكل غريب · وقع فى حب ابنة عمه الفاتنة ، روكسان ، ولكن بالنظر إلى أنه كان على وعى بقبحه سرعان ما تخلى عن كل أمل فى أن يكسب حبها . وبدلا من أن يستخدم مهارته الفائقة فى المنازلة بالسيف لإبعاد كل منافس ، فإنه « تنازل » عن كل تطلعاته فى حبها لصالح رجل أوسم منه . أما وقد قام بهذا « التنازل » فقد كرس قوته وشجاعته وعقله لخدمة هذا العاشق السعيد الحظ ، باذلا كل ما فى وسعه ليعينه على تحقيق رغبته ، وذروة المسرحية مشهد فى الليل ، تحت شرفة الفاتنة التى كان يعشقها الرجلان . راح سيرانو يهمس فى أذن منافسه بالكلمات التى تعينه على أن يكسب قلبها . وبعد ذلك أخذ مكان العاشق فى الظلام ليتحدث بدلا منه ، وقد أنسته حماسة غزله أنه ليس المغازل الحقيقى ، فلم يتنبه إلى ذلك إلا فى اللحظة الأخيرة . ففى اللحظة التى حظى فيها بالقبول طلب كريستيان ليدها ، اندفع العاشق الوسيم إلى الشرفة ليعانق حبيبته ، وعندئذ تنبه سيرانو فعاد إلى موقفه السابق . ويصبح سيرانو أكثر فأكثر تفانيا فى خدمة منافسه ، ففى المعركة يحاول أن ينقذ حياة كريستيان بأكثر مما يحرص على حياته · وعندما انتزع منه الموت آخر الأمر تلك الشخصية البديلة ، انتابه الشعور بأنه ليس من حقه أن يطارح روكسان غرامه ، أما أن الشاعر يصور فى « إيثار » سيرانو شيئا أكثر من مجرد مغامرة غرامية غريبة فذلك ما يتضح من تلك الموازاة التى يرسمها بين حياة سيرانو العشقية وحظه كشاعر · فتماماً كما كان كريستيان يغازل روكسان بأشعار سيرانو وخطاباته ، كذلك كان الكتاب من أمثال كورنى وموليير وسويفت يأخذون مشاهد بأسرها من أعماله غير المعروفة ،

رافعين بذلك من شهرتهم . وفى المسرحية يرضى سيرانو بحظه هذا . فهو على استعداد لأن يعير كلماته إلى كريستيان الأكثر منه وسامة ، بقدرما هو على استعداد لأن يعيرها إلى موليير الأكثر منه عبقرية . فقصوره الشخصى الذى يجعله فى ظنه جديرا بالازدراء ، يجعله فى نفس الوقت يشعر بأن الآخرين الذين يفضلونه هم أكثر صلاحيـــة منه لتحقيق رغباته الأخيولية .

وبوسعنا فى خاتمة هذا الحديث أن نقف لحظة بالدراسة عند مفهوم « التنازل الإيثارى » وذلك من زاوية أخرى هى على التحديد زاوية صلة هذا التنازل الإيثارى بالخوف من الموت فأى شخص قام بدرجة جد كبيرة بإسقاط حفزاته الغريزية على أناس آخرين لا يعرف شيئاً عن هذا الخوف من الموت . ففى لحظة الخطر لا تكون الأنا عنده مهتمة فى واقع الأمر بحياته الخاصة . إنه يعيش بدلا من ذلك اهتماما مسرفاً بحياة موضوعات حبه . وتكشف الملاحظة عن أن هذه الموضوعات ، التى تعد سلامتها أمراً جد حيوى بالنسبة إليه ، هى شخصيات بديلة كان قد نقل إليها رغباته الغريزية . مثال ذلك ، المربية الشابة التى أوردت حالتها ؛ فقد كانت تعانى حصرا جد شديد على سلامة صديقاتها أثناء حملهن وعنـــد قيامهن بالولادة. ومثال آخر يتضح من هذه العجالة التى قدمتها ، فسيرانو يهتم بسلامة كريستيان فى الحرب أكثر بكثير مما يهتم بسلامته الخاصة . ومن الخطأ أن نفترض أن الأمر هنا يتعلق بمنافسة مكبوحة تتفجر فى صورة رغبة فى الموت ، وعندئذ تنطرد . فالتحليل يكشف عن أن الحصر وعن أن تغيب الحصر كليهما يرجعان بالحرى إلى شعور الشخص بأن حياته الخاصة لا تستحق منه أن يعيشها أو أن يحافظ عليها إلا بقدر ما تنطوى هذه الحياة على فرص لإشباع غرائزه . فعندما يتنازل عن حفزاته لصالح أناس آخرين تصبح حياة هؤلاء الآخرين أثمن عنده من حياته . فموت

شخصية بديلة يعنى – تماما كما كان يعنى موت كريستيان بالنسبة إلى سيرانو – تحطم كل أمل فى إشباعها .

كان فقط بعد التحليل أن اكتشفت المربية الشابة ، عندما أتفق لها أن مرضت ، أن فكرة الموت أليمة بالنسبة إليها . لقد أثار دهشتها ما تبينته من أنها ترغب بشدة فى أن تعيش حياة طويلة بحيث تتمكن من أن تؤثث بيتها الجديد ، ومن أن تجتاز امتحانا يضمن لها الترقية فى مهنتها . كان بيتها والامتحان يعنيان ، وإن يكن ذلك فى شكل من الإعلاء ، تحقيق رغباتها الغريزية ، هذه التى مكن التحليل مريضتنا من أن تربطها من جديد بحياتها الخاصة[1] .

---

(١) ثمة شبه واضح بين موقف « التنازل الإيثارى » والشروط التى تحدد الجنسية المثلية عند الذكور . فالمثلى الجنسية شخص تحول بمطلبه عن أمه إلى أخ أصغر كان من قبل موضعاً لحسده . صحيح أنه يشرع بنفسه فى إشباع هذا المطلب بأن يتخذ إتجاهاً أمومياً ، أى بأن يستمتع بالجانبين الإيجابى والسلبى كليهما من العلاقة بين الأم والابن . وليس من اليسير أن تحدد مدى ما تسهم به هذه العملية فى الأشكال المختلفة التى يتخذها التنازل الإيثارى الذى تحدثت عنه . فسيرانو والمربية الشابة الإيثارية لا بد وأنهما كليهما قد استمدا لذة من هـذا الميكانيزم ، حتى قبل أن يتمكنا من أن يستمتعا بشكل بديلى بنجاحات الشخصية البديلة عنهما . فالتشاؤهما بالعطاء والمعاونة يكشف عن أن التنازل فى ذاته إشباع غريزى . وكما فى عملية التوحد بالمعتدى ، السلبية تتحول إلى إيجابية ، والوجهة النرجسية يعوض عنه إحساس القوة المرتبط بدور رجل البر ، بينما المعاناة السلبية للاحباط يعوض عنها الإشباع الإيجابى للسعادة على الآخرين .

أما ما إن كان هناك شىء هو حقاً علاقة إيثارية بمعنى الكلمة مع الأقران ، بحيث لا يلعب فيها الإشباع الغريزى عند الفرد أى دور على الإطلاق ، حتى وإن يكن فى شكل من النقل والاعلاء ، فتلك مسـألة ما تزال مفتوحة للبحث . ومن المؤكد على أية حال أن الإسقاط والتوحد ليسا هى الوسيلتان الوحيدتان للبلوغ إلى اتجاه يتسم بكل مظاهر الإيثار ، فثمة على سبيل المثال وسيلة أخرى ميسورة للبلوغ إلى نفس الهدف ، ألا وهى الأشكال المختلفة المازوشية .

د . دفاع يبعث عليه الخوف من قوة الغرائز
(مع توضيح بظواهر البلوغ)

الفصل الحادي عشر

الأنا والهي عند البلوغ

بين كل مراحل الحياة البشرية التى تكون فيها العمليات الغريزية ذات أهمية عظمى بلا جدال ، كانت مرحلة البلوغ وما تزال تجتذب دائما أعظم الانتباه . ومنذ وقت طويل وحتى الآن كانت الظواهر النفسية التى تعلن مقدم النضج الجنسى موضوعا للدراسة السيكولوجية . فق الكتابات غير التحليلية نلتق بكثرة من الأوصاف التى تستلفت الانتباه عن التغيرات التى تطرأ على الشخصية خلال هذه السنوات ، وعن الاضطراب الذى ينال الاتزان النفسى، وقبل كل شىء عن التناقضات التى تستحيل على الفهم والمصالحة والتى تظهر عندئذ فى الحياة النفسية . فالمراهقون هم بشكل مسرف أنانيون ، يعتبرون أنفسهم مركزا للكون وموضوعا وحيدا جديرا بالاهتمام ؛ ولكنهم مع ذلك لا يكونون قط فى أى وقت من حياتهم اللاحقة قادرين على مثل ما هم عليه فى هذه المرحلة من التفانى والتضحية بالذات . إنهم يقيمون علاقات من الحب أعظم ما تكون تأججا ولكنهم يقطعونها بنفس الفجائية التى أقاموها بها . وهم من ناحية يلقون بأنفسهم متحمسين فى حياة الجماعة ، ولكن لديهم من ناحيـــة أخرى تحرق غلاب للانعزال . إنهم يتأرجحون بين الإذعان الأعمى لقائد ينتقونه بأنفسهم والتمرد المتحدى ضد أية سلطة وكل سلطة . إنهم محبون لذواتهم وتهيمن المادة على تفكيرهم ، ولكنهم فى نفس الوقت مفعمون بالمثالية الشامخة . وهم زاهدون ولكنهم ينغمسون فجاة فى ممارسات غريزية أعظم ما تكون بدائية . أحيانا ما يكون سلوكهم تجاه الآخرين فظا متهورا ، ولكنهم هم أنفسهم يضيقون بشكل مسرف بأى شىء يمس

مشاعرهم . تتأرجح أمزجتهم بين التفاؤل الطروب والتشـــاؤم الحالك أحيانا ما يعملون بحماسة لا تعرف الـكلل ، ولـكنهم فى أحيان أخرى يـكونون خاملين متبلدين ..

وعلم النفس التقليدى يسعى إلى تفسير هذه الظواهر بطريقتين جد مختلفتين . فبحسب إحدى النظريتين يرجع هذا الجيشان فى الحياة النفسية فيما يحتمل إلى تغيرات كيمائية ، بمعنى أن هذا الجيشان هو نتيجة مباشرة لبدء الغدد الجنسية فى العمل أما النظرية الأخرى فترفض فكرة أى ارتباط من هذا القبيل بين البدنى والنفسى . فبحسب هذه النظرية ، فإن الثورة التى تحدث فى المجال النفسى تعتبر ببساطة علامة على أن الفرد قد بلغ إلى النضج النفسى ، تماما كما أن التغيرات البدنية المزامنة لها تعتبر علامة على أن الفرد قد بلغ إلى النضج البدنى . وتنبه هذه النظرية إلى أن تزامن العمليات النفسية والعمليات البدنية ليس دليلا على أن أحد الصنفين سبب للآخر . وهـكذا فإن النظرية الثانية تذهب إلى أن النمو النفسى مستقل تماما عن العمليات الغدية والغريزية . ولـكن ثمة نقطة وحيدة يلتقى عندها هذان التياران الفـكريان من علم النفس : فهما يتفقان على أن ليست فقط الظواهر البدنية من البلوغ بل أيضا الظواهر النفسية هى أعظم ما تـكون أهمية فى نمو الفرد ، وأنها تشكل البداية والأصل للحياة الجنسية ، وللقدرة على الحب ، وللشخصية بكليتها .

وعلى العكس من علم النفس التقليدى ، فإن التحليل النفسى لم يكشف حتى الآن إلا عن ميل ضئيل بشكل واضح للتركيز على المشكلات النفسية للبلوغ ، وذلك على الرغم من أنه فى مناسبات أخرى كثيرا جدا ما اتخذ من التناقضات فى الحياة النفسية نقطة بداية لأبحاثه . فلو استثنينا مؤلفات قليلة تم فيها إرساء أساس لدراسة البلوغ [١] ، يمكننا القول بأن كتاب

(١) Freud, Drei Abhandlungen Zur Sexualtheorie.
(فرويد ثلاث مقالات فى نظرية الجنس [الترجمة العربية ، دار المعارف])

التحليل النفسى قد أهملوا بالحرى هذه المرحلة ، مكرسين انتباهاً أعظم للمراحل الأخرى من النمو . والسبب واضح . فالتحليل النفسى لا يتفق مع الرأى القائل بأن الحياة الجنسية للكائنات البشرية تبدأ عن البلوغ . فبحسب التحليل النفسى ثمة بدايتان للحياة الجنسية . فهى تبدأ للمرة الأولى فى السنة الأولى من الحياة . ففى المرحلة الجنسية الطفليـــة الباكرة ، وليس فى البلوغ ، تتم الخطوات الفاصلة فى النمو ، وتتتابع المراحل الهامة من قبل الإنسالية من الانتظام الجنسى ، وتزدهر وتعمل مختلف الغرائز الجزئية ، وتتحدد للفرد سويته أو لا سويته ، وقدرته أو عدم قدرته على الحب . ونحن فى التحليل النفسى نتوقع من دراستنا لهذه المرحلة الباكرة أن تمدنا بمعرفة أصل وتطور الجنسية ، وهى المعرفة التى يفتش عنها علم النفس التقليدى من دراسته للبلوغ . إن البلوغ ليس غير مجرد مرحلة من مراحل تطور الحياة البشرية إنه « التلخيص » الأول لمرحلة الجنسية الطفلية ؛ وفى فترة متأخرة من الحياة يحدث « تلخيص » ثان فى سن اليأس . وكل واحدة من هذه المراحل الجنسية هى تجديد وإحياء للمرحلة التى سبقتها . وبالإضافة إلى ذلك بطبيعة الحال فإن كل واحدة منها تضيف شيئاً من عندها للحياة الجنسية البشرية . وبالنظر إلى أن النضج الجنسى البدنى يتحقق فى البلوغ فإن الإنسانيـــة تحتل الصدارة فى هذه المرحلة ، وتهيمن النزعات الإنسانية على الغرائز الجزئية قبل الإنسالية . وفى سن اليأس ، عندما تأخذ الوظائف الجنسية البدنية فى التلاشى ، تتأجج للمرة الأخيرة الحفزات الإنسالية ، وتعود الحفزات قبل الإنسالية فتحتل المسرح من جديد .

Ernest Jones, 'Einige Probleme desjugendlichen Alters', ■ Imago IV, 1923.

. Bernfeld,'Ubereine typische Form der mannlichen Pubertat',ibid

وحتى الآن كانت كتابات التحليل النفسى تهتم أساساً بالتشابهات بين هذه المراحل الثلاث من الجنسية المضطرمة فى الحياة البشرية . فهى تتشابه فيما بينها إلى أبعد حد من حيث العلاقات الكمية بين قوة الأنا وقوة الغرائز . ففى كل مرحلة منها ـ فى المرحلة الطفلية الباكرة وفى البلوغ وفى سن اليأس — فإن « هو » قوية نسبياً تجابه « أنا » ضعيفة نسبياً . ومن هنا يمكن القول بأنها مراحل يكون فيها الهو عات وتكون الأنا واهنة . وبالإضافة إلى ذلك يوجد تشابه كيفى قوى بين هذه المراحل الثلاث يتصل بأحد طرفى العلاقة : الأنا والهو . فالهو عند الإنسان يظل على حاله إلى حد بعيد طوال الحياة كلها . صحيح أن الحفزات الغريزية تنفتح للتحور عندما تدخل فى صدام مع الأنا ومع مطالب العالم الخارجى . ولكن داخل الأنا ذاتها لا يحدث تغير أو يحدث تغير لا يذكر ، اللهم إلا هذا التقدم الذى يتم من الأهداف الغريزية قبل الإنسالية إلى الأهداف الانسالية . أما الرغبات الجنسية التى تكون دائماً — عند يلقى الليبيدو أى تعزز — على استعداد لأن تنبثق خارجة من الكبت ، وأما شحنات الموضوعات والأخاييل المرتبطة بها فلا تتغير إلا قليلا أثناء الطفولة والبلوغ والحياة الراشدة وسن اليأس . ومن هنا نتبين أن التشابهات الكيفية بين المراحل الثلاث من الحياة البشرية ، وهى المراحل التى يتزايد فيها الليبيدو ، إنما ترجع إلى الثبات النسبى للهو .

وحتى الآن فإن كتاب التحليل النفسى قد أولوا اهتماما أقل إلى الاختلافات بين هذه المراحل الثلاث . وهذه الاختلافات ترجع إلى الطرف الثانى من العلاقة بين الهو والأنا ، بمعنى أنها ترجع على التحديد إلى القدرة الهائلة للأنا البشرية على التحور . فثبات الهو يتصدى له تغير الأنا . دعنا نأخذ على سبيل المثال الأنا فى الطفولة والأنا فى البلوغ . فالأنا فى هذه الفترة وفى تلك تتباين من حيث المدى والمضمون ، كما تتباين من حيث معارفها وقدراتها ، ومن حيث علاقاتها الثانوية وضروب

حصرها. وبالتالى فإن الأنا فى صراعاتها مع الغرائز تستخدم ميكانيزمات دفاعية مختلفة فى المراحل الثلاث المختلفة . وقد يكون لنا أن نتوقع أن دراسة أكثر تفصيلا لهذه الاختلافات بين الطفولة الباكرة والبلوغ سوف تلقى ضوءاً على تكون الأنا ، تماما كما أن دراسة التشابهات بين هذه المراحل سبق أن ألقت الضوء على الحياة الغريزية .

وفى دراسة الأنا ، كما هو الشأن فى دراســـة العمليات الغريزية ، لا يمكن فهم التطور اللاحق إلا استنادا إلى التطور السابق فلا بد لنا من أن ندرك طبيعة موقف الأنا فى الطفولة الباكرة ، إن كان لنا أن نبلغ إلى فهم الاضطرابات التى تتعرض لها هذه الأنا فى البلوغ . فعند صغار الأطفال يكون للصراع بين الأنا والهو شروطه الخاصة . فطالب الإشباع الغريزى ، وهى النابعة من الرغبات المميزة للمراحـــل الفمية الشرجية القضيبية ، تكون ملحة بدرجة غير عادية ، كما تكون الوجدانات والأخاييل المرتبطة بالعقدة الأوديبية وعقده الخصاء عارمة الحيوية ، والأنا التى تجابه كل ذلك ليست إلا فى سبيلها إلى التكوين ، ومن ثم ما تزال ضعيفة وغير مكتملة . ومع ذلك فإن الطفل الصغير ليس بكائن جامح الغريزة ، لا ولا هو ، فى الظروف العادية ، على وعى بضغط القلق الغريزى فى داخله . ففى العالم الخارجى ، أى فى التأثيرات التربوية المسلطة على الطفل الصغير ، تجد أناه الضعيفة حليفا ضد حياته الغريزية . فليس من موقف يكون فيه على الأنا أن تقيس قوتها الواهية ضد الحفزات الغريزية الأكثر قوة بكثير ، هذه التى لو تركت الأنا وحيده فى مواجهتها لما كان هناك مفر من أن تستسلم مذعنه لها . فالمجتمع لا يكاد يترك فسحة من الوقت لأنا الطفل حتى تصبح على وعى برغباتها ، أو حتى تتبين قوتها أو ضعفها بالقياس إلى غرائزها فاتجاه الطفل من غرائزه[1] تمليـــه

---

(١) [فى النص الإنجليزى : « فاتجاه الطفل من الأنا . . . » وبديهى أن هذا المعنى لا يستقيم فى ذاته ، ولا مع السياق ، فهو ولا شك خطأ مطبعى — هامش الترجمة العربية] .

ببساطة وعود الآخرين وتهديداتهم ، أى يمليه أمل الطفل فى الحب أو توقعه للعقوبة . ..

تحت مثل هذه التأثيرات الخارجية،وفى خلال سنوات قليلة،يكتسب صغار الأطفال قدرة جد هائلة على التحكم فى حياتهم الغريزية ، ولكن من المستحيل أن نحدد فى هذا الإنجاز مدى ما يرجع إلى الأنا عندهم ومدى ما يرجع إلى الضغط المباشر للقوى الخارجية . فإذا ما حدث فى موقف الصراع هذا أن وضعت أنا الطفل نفسها فى جانب التأثيرات الخارجية قيل إن الطفل « طيب » . أما إذا اتخذت هذه الأنا جانب الهو مناضلة ضد تقييدات الإشباع الغريزى التى تفرضها التربية عليها قيل إن الطفل « شرير » . والعلم الذى كرس نفسه للدراسة التفصيلية لهذا التأرجح من جانب الأنا الطفلية مابين الهو والعالم الخارجى هو علم التربية. فهذا العلم يبحث عن الوسائل التى تجعل التحالف بين القوى التربوية وأنا الطفل وثيقاً إلى أقصى حد ، والتى تجعل نضالهما معا للسيطرة على الغريزة ناجحا إلى أقصى حد .

ولكن عند صغار الأطفال يوجد أيضا صراع نفسى داخلى لا تستطيع التربية أن تبلغ إليه فالعالم الخارجى لا يلبث أن يقيم ممثلا له فى نفس الطفل ، وذلك فى شكل حصر موضوعى . وحدوث مثل هذا الحصر الموضوعى لا ينهض بذاته دليلا على تكون منظمة أعلى — الضمير أو الأنا العليا — فى داخل الأنا ، ولكنه يعتبر طليعة لتلك المنظمة. فالحصر الموضوعى هو توقع للمعاناة التى يمكن أن تنزل بالطفل كعقوبة من جانب العالم الخارجى ، فهو ضرب من « نذير الألم » يحكم سلوك الأنا بغض النظر عما إن كانت العقوبة المتوقعة تتحقق دائما أولا تتحقق . وهذا الحصر الموضوعى تكون شدته فى تناسب مع ما ينطوى عليه من خطورة

أو تهديد سلوك هؤلاء الذين يتعامل معهم الطفل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذا الحصر الموضوعى تزداد شدته بانقلاب العمليات الغريزية ضد الذات ، وهو غالبا ما يأتلف مع الحصر المتولد فى الخيال والذى لا يحفل بالتغيرات الموضوعية ، بحيث تغدو علاقته بالواقع واهية أكثر فأكثر . وفى نفوس صغار الأطفال ، من المؤكد أن المطالب الغريزية الملحة تدخل فى صراع مع الحصر الموضوعى الشديد ، وأن أعراض العصاب الطفلى هى محاولات لحل هذا الصراع . إن دراسة ووصف هذه الصراعات الداخلية تمثل محل نزاع بين العلماء : فالبعض يدعون أنها تدخل فى اختصاص التربية ، بينما نحن المحللين النفسيين على ثقة من أنها تدخل ضمن مجال نظرية الأعصبة

وثمة خاصية أخرى مميزة لموقف الأنا عند صغار الأطفال ، وهى خاصية لا تعود أبداً إلى الظهور فى الحياة اللاحقة . ففى كل المواقف الدفاعية اللاحقة يكون المتصارعان كلاهما حاضرين : فغريزة تجابه أنا جامدة بدرجة أو أخرى ويتحتم عليها أن تنتهى معهما إلى حل . أما عند صغار الأطفال فإن الأنا ليست غير نتاج الصراع ذاته ، فهذا الجانب من الأنا الذى سيكون عليه ، طوال الحياة كلها ، أن يضطلع بمهمة السيطرة على الغرائز إنما يبرز إلى الوجود فى هذه الفترة الباكرة تحت الضغط المزدوج للمطالب الغريزية للهو وللحصر الموضوعى الذين يرجع إلى مصدر خارجى . ويمكن القول بأن الأنا مصنوعة على المقاس »[1] بمعنى أنها مهيأة على خير نحو للإبقاء على التوازن بين القوتين : إلحاح الغريزة والضغط من الخارج . وإننا لنعتبر أن هذه الفترة الطفلية الأولى

---

(١) إن الطرائق التربوية التى تمد غايتها فى العصرية يمكن وصفها على أنها محاولة لجعل العالم « على مقاس » الطفل .

قد بلغت نهايتها عندما يكون هذا الجانب من تكوين الأنا قد بلغ مستوى بعينه . فإن الأنا تكون قد احتلت الموقع الذى تريد احتلاله فى حربها ضد الهو . إنها تكون قد بتت فى مقدار ما تريد أن تتشبث به من إشباع أو من تنازل عن الغريزة وذلك فى حلها لصراعاتها المختلفة . إنها تكون قد عودت نفسها على « حد » بعينه من التأجيل فى إشباعها لرغباتها . وتكون الوسائل الدفاعية التى تفضلها ممهورة بخاتم الحصر الموضوعى . ويمكن القول بأن « أسلوبا من التعايش » قد قام بين الهو والأنا ، وهو أسلوب منذ الآن فصاعدا ، يلتزم به كلاهما .

وفى خلال سنوات قليلة يتبدل الموقف فمرحلة السكمون تبدأ بإنحدار — فسيولوجى التحديد — فى قوة الغرائز ، وتنعقد هدنة فى الحرب الدفاعية التى تشنها الأنا . فالأنا لديها الآن فسحة من الوقت كيما تكرس نفسها لمهام أخرى ، وتكتسب الجديد من المضامين والمعارف والقدرات وتصبح الأنا فى نفس الوقت أقوى فى علاقتها مع العالم الخارجى إنها أمامه أقل عجزاً وإذعانا ؛ فلم تعد تنظر إلى ذلك العالم الخارجى بحسبانه مطلق القدرة تماما بالدرجة التى كان يبدو عليها حتى الآن . إن اتجاه الأنا من الموضوعات الخارجية يتغير بكليته على نحو تدريجى بقدر ما تتخطى الموقف الأوديبى . فالتبعية التامة إزاء الأبوين تتوقف ، ويشرع التوحد يحل محل الحب الموضوعاتى . ويمضى أكثر فأكثر استدماج الطفل لما يتشبث به أبواه ومعلموه من مبادىء رغباتهم ومطالبهم ومثلهم العليا . فهو فى حياته الداخلية لا يعود بعد يستشعر العالم الخارجى فى صورة حصر موضوعى ليس غير . ذلك أنه أقام داخل الأنا عنده منظمة دائمة ، تجسد متطلبات المحيطين به ، وهى ما نسميه الأنا العليا . وفى نفس الوقت مع هذا التطور يحدث تغير فى الحصر الطفلى . فالخوف من العالم الخارجى يشرع يتراءى أقل حجما ، مخليا مكانه بالتدريج للخوف من الممثلين الجدد للسلطة القديمة ، ونعنى حصر الأنا العليا أى حصر الضمير وشعور

الإثم . ومعنى هذا أن الأنا فى فترة الكمون قد كسبت حليفا جديداً فى نضالها من أجل السيطرة على العمليات الغريزية . فحصر الضمير يحرك الدفاع ضد الغريزة فى فترة الكمون ، تماما كما كان يحركه الحصر الموضوعى فى المرحلة الطفلية الباكرة . وكما سبق ، فليس من اليسير أيضاً أن نحدد هنا فى هذه السيطرة على الغريزة — وهى السيطرة التى تحققت خلال فترة الكمون — مدى ما يرجع منها إلى الأنا ذاتها ، ومدى ما يرجع منها إلى التأثير القوى للأنا العليا .

ولكن فترة التقاط الانفاس التى أتاحتها مرحلة الكمون لا تستمر طويلا . فالنضال بين الخصمين المتصارعين ، الأنا والهو ما يكاد ، ينتهى إلى هذه الهدنة المؤقتة حتى تغيير بشكل جذرى بنود الاتفاق بتدعيم أحد المتصارعين . فالعملية الفسيولوجية التى تميز بلوغ النضج الجنسى البدنى تكون مصحوبة باستثاره للعمليات الغريزية ، تتبدى فى المجال النفسى فى صورة تدفق لليبيدو . فالعلاقة التى كانت قائمة بين قوتى الأنا والهو تتحطم ، والاتزان النفسى الذى كان قد تحقق فى عناء يبطل ، مما يترتب عليه أن تضطرم من جديد الصراعات الداخلية بين المنظمتين .

. . .

فى البداية ليس هناك إلا أقل القليل مما يمكن قوله عن الهو . فالفترة الفاصلة بين الكمون والبلوغ — والتى تسمى بفتره ماقبل البلوغ — ليست غير إعداد للنضج الجنسى البدنى . فحتى الآن ما من تغير كيفى قد طرأ على الحياة الغريزية ، ولكن كمية الطاقة الغريزية قد زادت . وهذه الزيادة ليست قاصرة على الحياة الجنسية . فهناك مزيد من الليبيدو تحت تصرف الهو ، يشحن بطاقاته وبغير تمييز أية حفزة من حفزات الهو تكون فى المتناول . فالحفزات العدوانية تزداد شدتها إلى حد الجموح التام ، والجوع يغدو نهماً ، و « شقاوة » مرحلة الكمون تتحول إلى

السلوك الاجرامى للمراهقة . والاهتمامات الفمية والشرجيه التى طال انطمارها تطفو عل السطح من جديد . فعادات النظافة . والتى كان اكتسابها مضنيا أثناء مرحلة الكمون ، تخلى مكانها للتلذذ بالقذارة والفوضى ؛ وبدلا من التواضع والشفقة تبرز نزعات الاستعراضية والوحشية والقسوة ضد الحيوانات . والتكوينات المضادة التى بدت وكأنها قد استقرت راسخة فى بنية الأنا توشك أن تتحطم إرباً . وفى نفس الوقت تعود إلى الشعور نزعات قديمة كانت قد اختفت ، فالرغبات الأوديبية تتحقق فى صورة أخاييل وأحلام يقظة ، حيث لا تعانى غير تحريف ضئيل ؛ وتغدو من جديد أفكار الخصاء عند الصبيان وأفكار حسد القضيب عند البنات محور الاهتمام . وفى هذه القوى الغازية لا يوجد من العناصر الجديدة إلا أقل القليل . فانقضاضها يقتصر على أن يجلب إلى السطح من جديد ذلك المضمون المألوف للجنسية الطفلية الباكرة عند صغار الاطفال .

ولكن الجنسية الطفلية التى تنبعث إلى الحياة من جديد على هذا النحو ، لا تعود تصطدم الآن بالظروف السابقة ، فالأنا فى المرحلة الطفلية الباكرة كانت غير مكتملة النمو ، غير محددة ، شديدة الخضوع والطواعية لتأثير الهو ؛ أما فى مرحلة ماقبل البلوغ فإن الأنا على العكس تكون جامدة وراسخة بشكل وطيد . إنها الآن على وعى بذاتها . كانت الأنا الطفلية قادرة على أن تتمرد بشكل فجائى ضد العالم الخارجى وعلى أن تتحالف مع الهو للحصول على الإشباع الغريزى ، ولكن الأنا عند المراهق ، إن هى فعلت ذلك ، تجد نفسها داخلة فى صراعات مع الأنا العليا . فعلاقتها التى استقرت وثيقة مع الهو من ناحية ومع الأنا العليا من ناحية أخرى — مما نسميه « الخلق » — من شأنها أن تجعل هذه الأنا صلبة لا تستسلم . فليس بوسعها أن تخدم إلا غرضا

واحداً : أن تحافظ على « الخلق » الذى تكون فى فترة الكمون ، وأن تقيم من جديد العلاقة السابقة بين قواها وقوى الهو ، وأن تجيب على الإلحاح الأشد للمطالب الغريزية بجهود مضاعفة للدفاع عن نفسها . وفى نضالها هذا للإبقاء على كيانها بمنأى عن التغيير، تكون الأنا مدفوعة أيضا بالقلق الموضوعى وقلق الضمير ، وتستخدم فى غير مفاضلة كل أساليب الدفاع التى سبق لها دواما أن لجأت إليها فى الطفولة ومرحلة الكمون . إنها تلجأ إلى كبت الغرائز ، ونقلها ، وإنكارها ، وقلبها لضدها ،وإدارتها ضدالذات؛وهى تستحدث فوبيات[هابات] وأعراضا هستيرية وتكبل الحصر عن طريق التفكير والسلوك القهريين . وإذا ماتفحصنا هذا النضال من أجل التفوق بين الأنا والهو ، فإننا نتبين أن كل هذه الظواهر المزعجة فى فترة ماقبل البلوغ تمثل بشكل عام مراحل مختلفة فى هذا الصراع . فالنشاط المتزايد للتخييل ، وزلات الانغماس فى الإشباع الجنسى قبل التناسلى (أى الإنحراف الجنسى) والسلوك العدوانى أو الإجرامى ، كلها تمثل انتصارات جزئية للهو؛ بينما الأشكال المختلفة من الحصر ، وظهور سمات الزهد ،واشتداد الأعراض العصابية والكفوف العصابية ، كلها تشير إلى دفاع أكثر عرامة . أى تعبر عن انتصارات جزئية للأنا .

وبالبلوغ إلى النضج الجنسى البدنى ، أى إلى بداية البلوغ بمعنى الكلمة، يحدث مزيد من التغير ، يكون فى هذه المرة من طبيعية كيفية . فحتى الآن كان تزايد الطاقة الغريزية من طبيعة عامة وغير متمايزة ، ولكن الآن يحدث تغير (على أى حال فى حالة الذكور) ، فالحفزات التناسلية تصبح أشد أنشحانا بالطاقة ويعنى هذا فى المجال النفسى انسحاب الطاقة الليبدية من الحفزات قبل التناسلية وتركزها فى المشاعر التناسلية وفى الأهداف والأفكار الموضوعاتية . وبذلك تكتسب التناسلية أهمية

نفسية متزايدة ، بينما تتراجع النزعات قبل التناسلية إلى خلفية المسرح .
والنتيجة الأولى هي تحسن ظاهر في الموقف .

والأشخاص المسئولون عن تربية المراهق، والذين كان يقلقهم ويحيرهم الطابع قبل التناسلي لحياته الغريزية في فترة ما قبل البلوغ ، يلاحظون الآن في تخفف أن كل هذا الجيشان من الغلظة والعدوانية والانحراف الجنسي قد تلاشى كما يتلاشى الكابوس . والتناسلية المذكرة التي تجيء في أعقاب تلك الفترة تلقى اتجاها أكثر تسامحا وترحيبا، حتى حين تنتهك حدود العرف الاجتماعي . ولكن هذا البرء التلقائي الفسيولوجي من النزعات قبل التناسلية، وهو النتيجة الطبيعية التي تلزم عن النمو العادي في البلوغ، هو إلى حد كبير برء خادع . صحيح أنه يمكن أن يكون هناك تعويض مفيد ، فيما عدا فقط تلك الحالات التي كانت تتميز حتى الآن بتثبيات قبل تناسلية قاطعة تماما . مثال ذلك ، الصبي الذي كان اتجاهه سلبيا وانثويا سوف يقفز فجأة إلى اتجاه إيجابي رجلي عندما تنتقل الطاقة الليبيدية إلى إلى عضوه التناسلي . ولكن ذلك لا يعني أن حصر الخصاء وأن الصرعات التي تمخضت عن اتجاهه الأنثوي قد انفضت أو تلاشت ، كل ما هنا لك أنها احتجبت تحت ذلك الاشتداد الوقتي للطاقة التناسليـــة . فضغط الغرائز العظيم الشدة في البلوغ لا يلبث أن يهبط إلى مستواه العادي في الحياة الراشدة ، وعندئذ يحتمل أن يعود ذلك الحصر وتلك الصراعات إلى الظهور، وعلى حالها دون تغيير ، فتشيع من جديد الاضطراب في رجولته يصدق ذلك على التثبيتات الغمية والشرجية ، والتي تصبح إلى حين أقل أهمية أثناء تزايد الليبدو في البلوغ ؛ ولكنها تظل مع ذلك في الأعماق تحظى دائما بكل ما كان لها من أهمية فالجاذبية القديمة ، والمولدة للمرض لهذه التكوينات قبل التناسلية سوف تحظى في الحياة اللاحقة بنفس ما كان

لها من شدة وكذلك لا يمكن أن يكون هناك تأثير تعويضى أثناء البلوغ عندما تكون الاهتمامات القضيبية بأكثر من الفمية والشرجية، قد تحققت لها بالفعل الهيمنة فى الطفولة وفى فترة ما قبل البلوغ — أى عند الصبيان من أصحاب النزعة إلى الاستعراضية الذكرية . فى مثل هذه الحالات فإن تزايد الليبدو التناسلى فى البلوغ ليس فقط لا يخفف من الاضطراب بل يزيد منه الواقع . لا يحدث برء تلقائى من الانحراف الجنسى الطفلى : بل على العكس يحدث تزايد مزعج إلى أقصى حـــد للحالة المرضية . فالنزعات القضيبية تتعاظم إلى حد تغدو معه الذكورة التناسلية عنـــد المريض مسرفة بشكل مرضى وممتنعة على التحكم .

وهذا التقييم لسوية أو لا سوية الأهداف الغريزية الخاصة يستند على أية حال إلى جهاز للقيم خاص بالحياة الراشدة ، فلا تربطه علاقة على الإطلاق ، أو لا تربطه إلا علاقة ضئيلة ، بأنا المراهق . فالصراع الدفاعى الداخلى يستمر دون ما انتباه كبير إلى هذه القيم . فإن اتجاه الأنا من الهو فى المراهقة يتحدد أساساً بالاعتبارات الكمية لا الكيفية . فنقطة الخلاف بينهما ليست هى إشباع أو احباط هذه الرغبة الغريزية أو تلك ، بل هى طبيعة البنية النفسية فى الطفولة والكمون ، فى وحدتها الكلية وبصورة عامة وهناك نهايتان قصويتان يمكن أن ينتهى إليهما الصراع . فإما أن الهو التى غدت الآن قوية تتغلب على الأنا ، وفى هذه الحالة لا يكون هناك أى أثر متخلف من « الخلق » السابق الذى كان قد تكون عند الفرد ، ويكون الدخول إلى الحياة الراشدة متميزا بصخب من الإشباع الغريزى غير المكفوف وإما أن تنتصر الأنا على الهو ، وفى هذه الحالة يكون « خلق » الفرد الذى تكون أثناء الكمون قد بسط نفوذه بصورة دائمة ونهائية . وعندما يحدث ذلك تنحصر حفزات الهو عند المراهق ضمن الحدود الضيقة المرسومة للحياة الغريزية عند الطفل .

فما من استخدام يكون ممكنا لليبيدو المتزايد ، ويتحتم أن يكون هناك إنفاق مستمر للطاقة فى الشحنات المضادة وميكانيزمات الدفاع والأغراض كيما يكبح هذا الليبدو . وبالإضافة إلى ما ينجم عن ذلك من « تكسيح » للحياة الغريزية ، فكون الأنا المظفرة قد أصبحت مثبتة بشكل جامد من شانه أن يصيب الفـــرد بأذى دائم . فمنظمات الأنا التى قاومت اجتياحه البلوغ دون أن تستسلم ، عادة ما تظل طوال الحياة كلها عنيدة صامدة لا تنفتح للتعديل الذى يتطلبه الواقع المتغير .

ويبدو من الطبيعى أن نفترض أن انتهاء الصراع إلى هذه النهاية أو تلك من النهايتين القصويتين ، أو إلى حل سعيد فى صورة إتفاق جديد بين هاتين المنظمتين النفسيتين ، بل وأن نفتـــرض أكثر من ذلك أن المراحل الكثيرة المختلفة التى يجتازها هذا الصراع ، كلها تتحدد بعامل كمى هو على التحديد هذه التغيرات فى الشدة المطلقة للغرائز . ولكن هذا التفسير البسيط تنقصة الملاحظة التحليلية للعمليات التى تحدث فى فى الأفراد أثنـــاء البلوغ . فليس من الصحيح بالطبع ، عندما تصبح الغرائز أقوى لأسباب فسيولوجية ، أن يكون الفرد بدرجة أكبر تحت رحمتها ، أو — من ناحية أخرى — عندما تصبح الغرائز أضعف ، أن تزداد هيمنة تلك الظواهر النفسية التى تلعب فيها الأنا والأنا العليادوراً أكبر من دور الهو . فاننا نعرف من دراستنا للأعراض العصـــابية والحالات ما قبل الطمث أن الأنا تكون مكرهة ، فى كل مرة تكون فيها مطالب الغريزة أكثر إلحاحا ، على أن تضاعف من أنشطتها الدفاعية ونعرف من ناحية أخرى أنه فى كل مرة تكون فيها المطالب الغريزية أقل إلحاحا ، يتناقص الحظر المرتبط بها ، فيتناقص بذلك ما تستشعره الأنا من حصر موضوعى وحصر الضمير وحصر الغريزة ، وفيما عدا الحالات التى تكون فيها الأنا قد اجتاحها الهو تماما ، فإننا نلتقى بعكس العلاقة

المفترضة . فاية زيادة فى ضغط المطالب الغريزية تيبس مقاومة الأناضد الغريزة المعنية وتزيد من شدة الأعراض والكفوف (الخ) القائمة على هذه المقاومة ، بينما عندما تصبح مطالب الغريزة أقل إلحاحا تصبح الأنا أكثر استسلاما وأكثر أستعدادا لأن تتيح الإشباع . ومعنى هذا أن الشدة المطلقة للغرائز أثناء البلوغ (والتى لا يمكن على أية حال قياسها أو تقييمها كلا على حدة) لا تمدنا بأى تشخيص استباقى عن النتيجة النهائية للبلوغ . فالعوامل التى تحدد هذه النتيجة هى نسبية : أولا ، شـــدة حفزات الهو والتى تشرطها العمليات الفسيولوجية فى البلوغ ، وثانيا . تسامح الأنا أو عدم تسامحها إزاء الغريزة ، الأمر الذى يتوقف على « الخلق » الذى تكون أثناء فترة الكمون ؛ وثالثا — وهذا هو العامل الكيفى الذى يبت فى مصير الصراع الكمى — طبيعة وفاعلية ميكانيزمات الدفاع التى تكون تحت تصرف الأنا ، والتى تتباين بتباين الجبلة عند فرد فرد ، أى أستعداد الفرد للهستيريا أو للعصاب القهرى ، وبتباين المسار الذى سلكه نموه .

الفصل الثانى عشر

الحصر الغريزى أثناء البلوغ

كان من الواضح دائماً أن مراحل الحياة البشرية التى تحدث أثناءها زيادة فى الليبيـــدو ، تنطوى على فائدة كبرى للدراسة التحليلية للهو . فبالنظر إلى الطاقة الليبيدية التى تزايدت، فإن الرغبات والأخاييل والعمليات الغريزية — التى لاتكون فى مراحل أخرى بارزة الملاحظة أو تكون قابعة فى اللاشعور — تنبثق فى الشعور ، متخطية عند الضرورة العوائق التى يقيمها الكبت فى طريقها ، فتصبح متاحة للملاحظة وهى تشق طريقها إلى العراء .

ومن المفيد بنفس الدرجة أن نركز انتباهنا على هذه المراحل من تزايد الليبيدو عندما نضطلع بدراسة الأنا . وكما رأينا فإن الأثر غير المباشر لتزايد شدة الحفزات الغريزية هو مضاعفة الفرد لجهوده كيما يسيطر على الغرائز . فالاتجاهات العامة فى الأنا ، والتى تكون بالكاد ، فى أوقات هدوء الحياة الغريزية ، متاحة للملاحظة ، تصبح محددة بشكل أوضح ؛ أما ميكانيزمات الأنا التى تكون بارزة بشكل واضح فى فترة الكمون أو فى الحياة الراشدة فإنها يمكن أن تصبح من المغالاة بحيث تحدث تشويها مرضيا فى « الخلق » . ومن بين الاتجاهات المتباينة التى يمكن أن تتخذها الأنا إزاء الحياة الغريزية ، ثمة اتجاهان على وجه الخصوص ، عندما يتاح لهما على هذا النحو أن يبرزا فى البلوغ ، يشدان انتباه الملاحظ بقوتها الجديدة ، ويفسران بعض الغرائب النمطية المميزة لهذه المرحلة . وإنى اقصد بذلك الزهد والعقلانية فى المراهقة .

الزهد أثناء البلوغ :

فى تناوب مع الإفراطات والتفجرات الغريزية من الهــــو ، ومع اتجاهات أخرى مواتية للغرائز بشكل واضح ، يوجد أحياناً فى المراهقة عداء ضد الغرائز يتخطى بكثير فى شدته أى شىء من قبيل الكبت مما اعتدنا أن نراه فى الظروف العادية أو فى حالات العصاب الخطيرة بدرجة أو أخرى . فهذا العداء ، على النحو الذى يتبدى عليه وفى اتساع مداه ، لا يقترب من أعراض المرض العصابى الخطير بقدر مايقترب من زهد المتطرفين من المتدينين . ففى العصاب نتبين دائما وجود ارتباط بين كنت غريزة وطبيعة أو نوع هذه الغريزة المكبوتة . وهكذا فإن الهستيريين يكبتون حفزاتهم التناسلية المرتبطة بالرغبات الموضوعاتية للعقدة الاوديبية ، ولكنهم بدرجة أو أخرى متسامحون أو لامبالون فى أتجاههم من الرغبات الغزيزية الأخرى ، من قبيل الحفزات الشرجية والعدوانية . والعصابيون القهريون يكبتون رغباتهم الشرجية السادية ، هذه التى تغدو ، نتيجة للنكوص ، محور جنسيتهم ؛ ولكنهم متسامحون فى إتجاههم من الإشباع الفمى ، ولا ينطوون على أى ارتياب خاص من أية حفزات استعراضية يمكن أن تكون لديهم ، طالما كانت هذه الحفزات لا ترتبط بشكل مباشر بمحور عصابهم . كذلك فى السوداوية (الملانخوليا) فإن النزعات الفمية هى التى يتم بوجه خاص استبعادها ؛ بينما مرضى الفوبيا (الرهاب) يكبتون الحفزات المرتبطة بعقدة الخصاء . فما من واحدة من هذه الحالات يوجد فيها « استبعاد فى غير تمييز » للغرائز ؛ وإننا لنتبين دائما ، عند تحليلنا لهذه الحالات ، وجود ارتباط محدد بين نوع الغريزة المكبوتة ودوافع المريض إلى استبعادها من الشعور .

ولكننا نلتقى بصورة متباينة عندما نقوم ، فى تحليلنا للمراهقين ، بتقصى استبعادهم لغرائزهم . ومن الصحيح هنا أيضاً أن نقطة البدء فى

هذه العملية توجد فى تلك المراكز من الحياة الغريزية التى تعانى تحريما خاصا ، وذلك من قبيل الأخاييل المحارمية لفترة ماقبل البلوغ ، أو الميل المتزايد إلى الأنشطة البدنية الإستمنائية التى تتيح الإفراغ لمثل هذه الرغبات . ولكن ابتداء من هذه النقطة تمتد العملية فى غير تمييز بدرجة أو أخرى لتشمل الحياة كلها . وكما سبق أن نبهت ، فإن المراهقين لا يشغلهم إشباع أو إحباط هذه الرغبة الغريزية أو تلك ، بقدر مايشغلهم الإشباع الغريزى أو الإحباط الغريزى فى حد ذاته . فالمراهقون الذين يجتازون هذا الضرب من المرحلة الزاهدة الذى أعنيه يخافون فيما يبدو من كم غرائزهم بأكثر مما يخافون من نوع هذه الغرائز . إنهم يرتابون فى المتعة بشكل عام ، ومن ثم فإن خطتهم الأكثر أمنا تنحصر ببساطة على مايبدو فى أن يجابهوا الرغبات الأكثر إلحاحا بتحريمات أكثر صرامة . ففى كل مرة تقول الغريزة : « سأفعل » ، تجيب الأنا : « لن تفعلى » ، وذلك على نحو يشبه كثيرا طريقة الصارمين من الآباء فى التدريب الباكر لصغار الأطفال هذا الإرتياب لدى المراهق إزاء الغريزة ينطوى على ميل خطر نحو الانتشار ، فهو قد يبدأ نشاطه نحو الغريزة بالمعنى الدقيق ثم يمتد ليشمل الحاجات الجسمية المادية . فكلنا ولاشك قد التقينا بمراهقين يستبعدون فى صرامة أية حفزات جنسية المذاق ، ويتجنبون جماعات سنهم ، ويرفضون الاشتراك فى أى ترويح ، ويأبون -- على نحو بيوريتانى تماما -- أن تكون لهم أية صلة بالمسرح أو الموسيقى أو الرقص . وبوسعنا أن نفهم الارتباط القائم بين الامتناع عن الملابس الأنيقة الجذابة وتحريم الجنسية . ولكننا نبدأ نتحير عندما يمتد الامتناع إلى أشياء عديمة الضرر وضرورية ؛ من قبيل ذلك مثلا عندما ينكر المراهق على نفسه أكثر الوسائل شيوعا للوقاية من البرد ، أو عندما يقوم على تعذيب بدنه بكل وسيلة ممكنة معرضا صحته لمخاطر لاداعى لها ، أو عندما يمتنع ليس فقط عن ضروب بعينها من المتعة الفمية

بل يقوم «من حيث المبدأ» بتخفيض طعامه اليومى إلى حد أدنى ، أو عندما يكره نفسه ، وقد نعم بالنوم العميق لليال طوال ، على أن يستيقظ مبكراً ، أو عندما يحجم عن أن يضحك أو يبتسم ، أو عندما يقوم فى الحالات القصوية بتأجيل التبرز والتبول إلى أقصى وقت ممكن ، استنادا إلى أن المرء لاينبغى أن يسمح فى التو بارضاء كل مايعرض من حاجاته البدنية .

ولكن ماتزال هناك نقطة أخرى يختلف فيها استبعاد الغريزة هذا أثناء البلوغ عن الكبت العادى . ففى العصاب اعتدنا أن نرى أنه كلما انكبت إشباع غريزى بعينه يظهر بديل عن هذا الإشباع . ففى الهستيريا يتم ذلك بالتبدين ، أى أن الإثارة الجنسية تجد إفراغا فى مناطق أو عمليات بدنية أخرى غدت مشبقة (مصطبغة بالجنسية) وفى العصاب القهرى توجد لذة بديلة فى المستوى الذى بلغ إليه النكوص ؛ بينما فى الفوبيات يوجد على الأقل ضرب من الكسب الثانوى . أو ، بعبارة أخرى ، إن الأشكال المحرمة من الإشباع تحل محلها أشكال أخرى من المتعة ، بفضل عملية من النقل أو التكوين المضاد ؛ فإننا نعرف أن الأعراض العصابية الحقة ، من قبيل النوبات الهستيرية واللازمات والأفعال القهرية والاجترار القهرى للأفكار ، تمثل مصالحات تتحق فيها المطالب الغريزية للهو بصور لاتقل فاعلية عن تحقق أوامر الأنا والأنا العليا .

ولكن فى ذلك النوع من استبعاد الغريزة المميز للمراهقة لايوجد منفذ لمثل هذا الإشباع البديل : فالميكانيزم هنا ، على مايبدو ، مختلف . فبدلا من التكوينات — المصالحات (التى تناظر الأعراض العصابية) ، والعمليات المألوفة من النقل والنكوص والانقلاب ضد الذات ، نكاد نجد دائما أبداً تأرجحا من الزهد إلى الإفراط الغريزى ، بحيث ينغمس المراهق فجأة فى كل ماكان من قبل يعتبره محرما ، فى غير مااعتبار لأى نوع من القيود الخارجية . وبالنظر إلى الطابع الضد — الاجتماعى لهذه الإفراطات

الغريزية فى المراهقة ، فإنها لا تلقى الترحيب ؛ ومع ذلك فإنها تمثل من وجهة نظر التحليل النفسى ضربا من البرء التلقائى المؤقت من حالة الزهد وحين لا يتحقق مثل هذا البرء ، وتكون الأنا، بطريقة يصعب تفسيرها، من القوة بحيث تمضى فى استبعادها للغريزة دون أى زيغ ، فإن النتيجة التى تترتب على ذلك هى شلل الأنشطة الحيــــوية للفرد — ضرب من الكتانونيا (التخشب) لا يمكن عندئذ اعتباره ظاهرة عادية من ظواهر البلوغ ، بل ينبغى اعتباره إصابة ذهانية .

وهنا يبرز التساؤل عما إن كنا على حق فى الواقع فى تمييزنا بين استبعاد الغريزة أثناء البلوغ وبين عملية الكبت المألوفة . إن الأساس الذى يستند إليه مثل هذا التمييز النظرى هو أنه فى حالة المراهقين تبدأ العملية بخوف من كم الغريزة لا بخوف من نوعية حفزة بعينها ، وتنتهى لا إلى إشباعات بديلة وتكوينات ـ مصالحات بل إلى تجاور أو تتابع غير متوقع الاستبعاد الغريزى والإفراط الغريزى ، أو تنتهى بعبارة أصح إلى تناوبهما . ولكننا من ناحية أخرى نعرف أنه فى الكبت العصابى العادى تكون كمية الطاقة التى انشحنت بها الغريزة ، والتى يتحتم كبتها ، عاملا هاماً ، وأنه فى العصاب القهرى يكون من المألوف تماما أن يتعاقب التحريم والانغماس . ومع ذلك فإن انطباعنا ما يزال بأننا فى زهد المراهقة نكون إزاء عملية أكثر بدائية وأقل تعقيداً بالقياس إلى الكبت بمعنى الكلمة ؛ وربما تمثل العملية الأولى حالة خاصة ، أو بالحرى مرحلة تمهيدية ، من الكبت .

ومنذ وقت طويل كانت الدراسة التحليلية للأعصبة توحى بوجود استعداد فى الطبيعة البشرية لاستبعاد غرائز بعينها ، وبصفة خاصة الغرائز الجنسية ، وذلك فى غير تمييز ، وفى استقلال عن الخبرة الفردية .

وهذا الاستعداد هو فيما يبدو ميراث سلالى ، ضرب من الرواسب التى تراكمت من أفعال الكبت التى مارستها أجيال كثيرة ، فاقتصر الأفراد على مواصلتها دون أن تنبع منهم. وكيما يصف بلويلر هذا الاتجاه المزدوج عند الجنس البشرى إزاء الحياة الجنسية - نفور جبلى مع رغبة متأججة - ابتدع مصطلح التناقض العاطفى [ثنائية الوجدان] .

وأثناء فترات الحياة الأكثر هدوءا لا يكون العداء الأولى من جانب الأنا ضد الغريزة - وهو ما نسميه خوفها من قوة الغرائز - شيئاً أكثر من مجرد تصور نظرى . وإننا لنفترض أن هذا العداء هو دائماً أبداً أساس الحصر الغريزى ؛ ولكن الأمر ، بالنسبة للقائم بالملاحظة ، يشوبه الغموض بسبب الظواهر الأكثر بروزا واستلفاتا ، هذه التى تنبعث عن الحصر الموضوعى وحصر الضمير ، والتى تتولد من صدمات تعرض لها الفرد .

ومن المحتمل أن التزايد فى كم الغريزة أثناء البلوغ وفى مراحل أخرى من الحياة - عندما تكون هناك زيادة مفاجئة فى الطاقة الغريزية - هو الذى يزيد من شدة هذا العداء الأولى إلى درجة ليصبح معها ميكانيزما دفاعيا نوعيا ونشطا . فلو كان ذلك كذلك فإنه يتحتم تفسير زهد المراهقة لا على أنه سلسلة من أنشطة الكبت ، ترجع إلى نوعية الغريزة ، بل على أنه ببساطة مظهر للعداء الفطرى بين الأنا والغرائز ، وهو عداء أولى وبدائى يعمل فى غير تمييز .

العقلانية اثناء البلوغ :

لقد بلغنا إلى النتيجة التى مؤداها أنه فى الفترات التى تتميز بازدياد فى الليبيدو يمكن للاتجاهات العامة فى الأنا أن تتحول إلى اساليب محددة

للدفاع . فإذا صحت هذه النتيجة فإنها يمكن أن تفسر لنا تغيرات أخرى تعترى الأنا أثناء البلوغ .

إننا نعرف أن غالبية التحورات أثناء هذه الفترة تحدث فى الحياة الغريزية والوجدانية ، كما نعرف أيضاً أن الأنا تعانى دائماً تغيراً ثانويا عندما تشتبك بشكل مباشر فى محاولة السيطرة على الغرائز والوحدانات. ولكن هذا لا يستنفد بحال كل إمكانيات التغير عند المراهق. فمع تزايد الطاقة الغريزية يصبح المراهق كائنا غريزيا ؛ هذا طبيعى ولا يحتاج إلى مزيد من التفسير . كما أن المراهق يصبح أكثر أخلاقية وزهدا ؛ وتفسير ذلك أن هناك صراعا يحتدم بين الأنا والهو عنده . ولكن المراهق بالإضافة إلى ذلك يصبح أكثر ذكاء ، وتصبح اهتماماته العقلية أكثر حدة . وفى البداية لا يكون بوسعنا أن نتبين كيف أن هذا التقدم فى النمو العقلى يرتبط بالتقدم فى النمو الغريزى وبالزيادة فى قدرة منظمات الأنا على أن تقاوم الهجمات الأكثر وحشية التى تشن ضدها .

كان ينبغى أن نتوقع بصورة عامة أن تكون عواصف الغريزة أو الوجدان فى علاقة عكسية مع النشاط العقلى للفرد . وحتى فى الحالات العادية من التجربة العشقية تميل قدرات الفرد العقلية إلى التضاؤل وتقل عن المألوف إمكانيته فى التعويل على عقله . وكلما كانت رغبته فى إشباع حفزاته الغريزية أكثر تأججا قل ميله ، كقاعدة عامة ، إلى أن يسلط عقله على هذه الحفزات وإلى أن يتفحص بالمنطق أسسها .

ولكن يبدو للنظرة الأولى أن الحالة فى المراهقة هى نقيض ذلك . فهناك طراز من المراهقين لا يكون تفجرهم الفجائى فى النمو العقلى أقل استلفاتا للملاحظة وإثارة للدهشة من نموهم السريع فى الاتجاهات الأخرى.

ونحن نعرف كيف أن كل الاهتمام عند الصبيان أثناء فترة الكمون غالبا ما يتركز على أشياء يكون لها وجود موضوعى بالفعل . فبعض الصبيان يولعون بالقراءة عن الكشوف والمغامرات ، أو بدراسة الأعداد والنسب أو بالتهام أوصاف الحيوانات والأشياء الغريبة ، بينما يحصر البعض الآخر انتباههم فى الآلات من أبسطها إلى أكثرها تعقيدا والنقطة التى عادة ما يشترك فيها هذان النوعان هو أن الشىء الذى يجتذب اهتمامهم يتحتم أن يكون شيئا عيانيا ، وليس من نتاج الخيال كتلك الحكايات عن الجن والقصص الخرافية عن الحيوانات ، وهى التى يكون الاستمتاع بها فى الطفولة الباكرة ، بل إنه شىء له وجود مادى بالفعل . وعندما تبدأ فترة ما قبل البلوغ ، فإن نزوع الاهتمامات العيانية لفترة الكمون إلى أن تتخلى عن مكانها للتجريدات يصبح أكثر فأكثر بروزاً . فالمراهقون ، وعلى الأخص من الطراز الذى وصفه برنفلد Bernfeld على أنه يتميز « ببلوغ يطول مداه » ، تكون لديهم رغبة لا ترتوى للتفكير فى الأمور المجردة ، ولتقليبها فى أذهانهم ، وللتحدث عنها . وكثرة من صداقـــات المراهقين تستند فى قيامها واستمرارها إلى هذه الرغبة فى أن يتأملوا ويناقشوا معا مثل هذه الأمور . ما اوسع مدى هذه الاهتمامات المجردة والمشكلات التى يحاول هؤلاء المراهقون حلها . إنهم يتجادلون فى العلاقة العشقية الحرة أو الزواج والحياة الأسرية ، وفى الأعمال الحرة أو التقيد بالوظيفة ، وفى التجوال أو الاستقرار ، أو يتناقشون فى مشكلات فلسفية من قبيل الإيمان بالدين أو التحرر الفكرى ، أو فى النظريات السياسية المختلفة من قبيل الثورة فى مقابل الإذعان للسلطة . أو فى الصداقة بكل أشكالها . وإذا ما حصلنا ، كما يحدث أحيانا فى التحليل ، على تقرير أمين عن المناقشات بين المراهقين ، أو إذا ما تفحصنـــا — كما يفعل كثيرون ممن يدرسون البلوغ — مذكراتهم اليومية والملاحظات التى يدونونها ، فإننا لا ندهش فقط من تدفقهم الفكرى فى تحرريته واتساع مداه بل أيضا

من درجة ما يكشفون عنه من تعاطف وفهم ، ومن تفوقهم الظاهر على مفكرين أكثر نضجا ، بل وأحيانا من الحكمة التى يظهرونها فى تناولهم لأكثر المشاكل عسراً .

ولكننا نراجع رأينا عندما نتحول عن تفحص هذه العمليات العقلية عند المراهق فى حد ذاتها كيما نتبين كيفية التئامها فى اللوحة العامة لحياته إننا نفاجأ إذ نتبين أن هذا الإيجاز العقلى الرفيع لا يؤثر إلا قليلا أو لا يؤثر على الإطلاق فى سلوكه الواقعى . فتعاطفه النفـــاذ إلى العمليات العقلية عند الآخرين لا يمنعه من أن يكشف عن أبشع انعدام للاعتبار بالنسبة لأقرب الناس إليه . ونظرته السامية إلى الحب وإلى التزامات العاشق لا تقلل من خياناته وفظاظاته ، هذه التى يتكرر اقترافه لها فى مختلف علاقاته الغرامية . وفهمه لبنية المجتمع ، واهتمامه بهذه البنية — وهما غالبا ما يفوقان بكثير ماهما عليه عند الأكبر سنا — كلاهما لا يعينانه اقل عون على أن يجد مكانه الحقيقى فى الحياة الاجتماعية ؛ وكذلك فإن تشعب اهتماماته لا يثنيه عن أن يتركز بكليته فى أمر واحد — هو انشغاله بشخصيته .

وإننا لنتبين ، وخاصة عندما نشرع أثنـــاء التحليل فى تفحص هذه الاهتمامات العقلية ، أننا هاهنا أمام شىء مختلف تمامـــا عن العقلانية بالمعنى المألوف للمصطلح . فلا ينبغى ان نفترض بأن المراهق يمعن الفكر فى مختلف مواقف الحب أو فى انتقاء المهنة كيما يستخلص من ذلك الخط الصحيح لسلوكه ، على نحو مايفعل الراشد، أو على نحو ما يفعل الصبى فى فترة الكمون حين يدرس آلة كيما يبلغ إلى فكها إلى أجزائها وإلى إعادة تركيبها من جديد . فعقلانية المراهقة لاتزيد فيما يبدو على أن تقوم مقام أحلام اليقظة . فحتى الأخاييل الطموحة فى فترة ماقبل البلوغ

لا يكون القصد منها أن تترجم إلى واقع . فعندما يتخيل يافع أنه فاتح عظيم فإن ذلك لا يجعله يشعر بأى التزام بأن يقدم الدليل على شجاعته أو على قوة احتماله فى الحياة الواقعية . كذلك فإن المراهق بكل وضوح يستمد إشباعا من مجرد عملية التفكير أو التأمل أو المناقشة . أما سلوكه فتحدده عوامل أخرى ؛ فهو لا يتأثر بالضرورة بالنتائج التى تنتهى إليها هذه « اللعبة الرياضية » العقلية .

ولكن ماتزال هناك نقطة أخرى تستلفت انتباهنا عندما نقوم بتحليل العمليات العقلية عند المراهق . فتفحصها عن كثب يكشف عن أن المسائل التى تشغل اهتمامه بشكل أساسى هى نفس المسائل التى أثارت الصراعات بين المنظمات النفسية المختلفة فنقطة الجدل مرة أخرى ، هى كيف يمكن أن تنعقد الصلة بين الجانب الغريزى من الطبيعة البشرية وبقية جوانب الحياة ، كيف يمكن البت فى أمر ممارسة الحفزات الغريزية أو التنازل عنها ، فى الحرية أو التقييد ، فى التمرد على السلطة أو الإذعان لها . وكما رأينا فإن الزهد ، بتحريمه التام للغريزة ، لا يحقق عادة ما يأمله المراهق . وبالنظر إلى أن الخطر ماثل دائماً ، فيتحتم على المراهق أن يبتدع كثرة من الوسائل للتغلب عليه . فالتأمل الفكرى فى الصراع الغريزى ـ أى صبغة بالعقلانية ـ يمكن أن يبدو وسيلة ملائمة . هنا الهرب من الغريزة فى الزهد يخلى مكانه لعودة إلى الغريزة ولكن هذا الإبدال لا يتحقق إلا فى الفكر ؛ فالعودة إلى الغريزة يكون فى شكل عملية عقلية . ومن هنا فإن المناقشات والتأملات العقلية المجردة التى يسعد بها المراهقون ليست بمحاولات حقة لحل المشكلات التى يفرضها الواقع . فنشاطهم العقلى هو بالحرى علامة على شعور محتدم بالعمليات الغريزية وترجمة إلى الفكر المجرد لما يدركونه . ففلسفة الحياة التى يقيمون صرحها ـ وربما تمثل فى العالم الخارجى حاجتهم إلى الثورة ـ هى فى الواقع استجابتهم لشعورهم

بالمطالب الغريزية الجديدة للهو ، وهى المطالب التى تهدد بقلب حياتهم كلها رأساً على عقب . ومثلهم العليا عن الصداقة والإخلاص إلى الأبد هى ببساطة مجرد رد فعل عكسى الإنزعاج الأنا عندهم ، عندما تشعر بالتلاشى السريع لعلاقاتها الموضوعاتية الجديدة المشبوبة[1] . وحنينهم إلى الإرشاد والمعونة فى تلك المعركة ـ التى لا أمل منها فى الغالب ـ ضد غرائزهم القوية يمكن أن يتحول إلى مجادلات عبقرية حول عدم قدرة الإنسان على أن يبلغ إلى قزارات سياسية فى استقلال عن الآخرين . وهكذا نتبين أن العمليات الغريزية تترجم بلغة العقل . أما أن الانتباه يتركز على هذا النحو فى الغرائز فذلك يرجع إلى ماهنالك من محاولة ـ على مستوى نفسى مختلف ـ لكبح هذه الغرائز والسيطرة عليها .

إن ربط الوجدانات والعمليات الغريزية بأفكار الكلمات يعتبر ، من زاوية ميتاسيكولوجيا[2] التحليل النفسى ، أول خطوة يتحتم على الفرد أن يخطوها فى نموه . فمن هذه الزاوية يعتبر التفكير « عملية تجريبية يستخدم فيها أقل مايمكن من كميات الغريزة » . وهذه العملية من الصبغ بالعقلانية للحياة الغريزية ، هذه المحاولة لكبح العمليات الغريزية بربطها بأفكار يمكن معالجتها فى الشعور ، هى واحدة من أعظم اكتسابات الأنا البشرية عمومية وتبكيراً وضرورة . ومن ثم فنحن لانعتبرها نشاطاً للأنا بل واحداً من عناصرها المكونة التى لاغنى عنها .

---

(١) إلى مدينة لمارحيت ريبوفيتس ، من بودابست ، بالرأى القائل بأن ازوع المراهقين إلى التفكير الاجترارى فى معنى الحياة والموت هو رد فعل عكسى للانشطة التدميرية داخل أنفسهم

(٢) المقصود هو وجهات النظر التفسيرية الثلاث : الدينامية والطوبوغرافية والاقتصادية هامش الترجمة العربية .

ومرة أخرى يتولد فينا الانطباع بأن الظواهر التى يتضمنها هنا مفهوم « الصبغ بالعقلانية فى البلوغ » إنما تمثل ببساطة زيادة فى شدة اتجاه من الإتجاهات العامة للأنا ، وذلك تحت تأثير الظروف الخاصة بالزيادة المفاجئة فى الليبيدو . فالزيادة فى كمية الليبيدو هى وحدها التى تشد الانتباه إلى وظيفة من وظائف الأنا ، تضطلع بها فى أوقات أخرى بطبيعة الحال فى صمت ، وعن غير قصد إن جاز القول . فإذا صح ذلك فانه يعنى أن ازدياد شدة العقلانية أثناء المراهقة — بل وربما أيضاً ذلك التقدم جد البارز فى الفهم العقلى للعمليات النفسية والذى يخصص دائماً ذو المرض الذهانى - ليس ببساطة إلا جزءاً من المحاولة العادية للانا للسيطرة على الغرائز عن طريق التفكير .

وبوسعنا ، فيما اعتقد ، أن نسجل هنا كشفا ثانويا تأدى بنا إليه هذا الخط الفكرى . فلو صح أن الزيادة فى الطاقة الليبيدية تتمخض دائماً أبداً بشكل آلى عن هذه النتيجة ، وهى أن تجعل الأنا تضاعف من جهودها للسيطرة عقلانيا على العمليات الغريزية ، لكان فى ذلك مايفسر تلك الواقعة التى مؤداها أن الخطر الغريزى هو الذى يجعل الكائنات البشرية ذكية . ففى فترات الهدوء من الحياة الغريزية ، عندما لايكون هناك خطر ، يكون بوسع الفرد أن يسمح لنفسه بدرجة معينة من الغباء . وفى هذا الصدد يكون للقلق الغريزى ذلك الأثر المألوف للقلق الموضوعى . فالخطر الموضوعى والحرمانات الواقعية تدفع بالناس إلى أعمال عقلية فذة ومحاولات عبقرية لحل مشاكلهم ، بينما الأمن الموضوعى والوفرة الواقعية تميل بهم إلى أن يكونوا فى راحة أغبياء . فتركيز التفكير على العمليات الغريزية هو شبيه بذلك الشعور من التيقظ المحتدم الذى تبينت الأنا البشرية ضرورته لمواجهة الأخطار الموضوعية التى تحيط بها .

وحتى الآن كان هبوط الذكاء عند الصغار فى بداية مرحلة الكمون يتم تفسيره بطريقة مختلفة . فى الطفولة الباكرة ترتبط إنجازاتهم العقلية اللامعة ارتباطا وثيقا بتقصياتهم فى أسرار الجنس ؛ ولكن عندما يصبح هذا الموضوع شيئاً محرمـــاً (تابو) فإن التحريم والكف يمتدان إلى مجالات أخرى من التفكير . ومع اضطرام الجنسية من جديد فى فترة ما قبل البلوغ ، أى مع انهيار الكبت الجنسى للطفولة الباكرة ، لا يكون هناك ما يبعث على الدهشة فى أن تتوقد من جديد قدرات الفرد العقلية بكل قوتها السابقة .

ذلك هو التفسير المألوف الذى يمكن أن نضيف إليه الآن تفسيراً ثانياً . فربما يكون فى فترة الكمون أن الأطفال ليس فقط لا يجترئون على الانغماس فى التفكير المجرد ، بل أيضاً لا تكون بهم حاجة إلى ذلك. إن الطفولة الباكرة والبلوغ هما فترتان من الخطر الغريزى، و « الذكاء » الذى يميز هاتين الفترتين يعين الفرد — بشكل جزئى على الأقل — على أن يتغلب على هذا الخطر . أما فى فترة الكمون وفى الحياة الراشدة فإن الأنا تكون نسبيا قوية ، ويكون بوسعها دون إضرار بالفرد أن ترخى جهودها فى أن تصبغ بالعقلانية العمليات الغريزية . ولا ينبغى فى نفس الوقت أن نغفل ان هذه الإنجازات العقلية ، وخاصة أثناء البلوغ ، كائنة ما كانت لامعة وملفتة ، تظل إلى حد بعيد عقيمة . يصدق ذلك بمعنى ما حتى على الأعمال العقلية الفذة فى الطفولة الباكرة ، هذه التى نعجب بها ونمتدحها بدرجة عالية ، حسبنا أن نتذكر أن التقصيات الجنسية الطفلية ، والتى يعتبرها التحليل النفسى أوضح مظهر للنشاط العقلى عند الطفل ، نادراً ما تؤدى إلى معرفة بالوقائع الحقيقية للحياة الجنسية الراشدة . فهى تؤدى كقاعدة عامة إلى بناء النظريات الجنسية الطفلية ، التى لا تمثل الواقع ، بل تعكس العمليات الغريزية فى ذهن الطفل القائم بالملاحظة .

إن العمل العقلى الذى تنجزه الأنا أثناء فترة الكمون وفى الحياة الراشدة هو بمالا يقاس أكثر رصانة ، وأكثر جدارة بالتعويل عليه ،واهم من ذلك كله أوثق أرتباطا — بكثير — بالأفعال .

حب الموضوع والتوحد أثناء البلوغ :

ولنحاول الآن أن نتبين كيف للزهد والعقلانية المخصصين للبلوغ أن يلتئما ضمن مخططنا العام الهادى عن العمليات الدفاعية استنادا إلى الحصر والخطر . نتبين للوهلة الأولى أن هاتين الوسيلتين كلتيهما تندرجان تحت صنف الطراز الثالث للدفاع . فالخطر الذى يهدد الأنا ينحصر فى احتمال انغمارها بالغرائز ؛ وما تخافه الأنا قبل كل شىء هو كم الغريزة . ونحن نعتقد أن هذا الحصر ينشأ فى وقت جد باكر من نمـــو الفرد . فمن الناحية الزمنية ينتمى هذا الحصر إلى تلك الفترة التى تنسلخ الأنا أثناءها بالتدريج عن الهو اللاممتمايز والإجراءات الدفاعية التى تلجأ إليها الأنا مضطرة ارتعابا من قوة الغرائز تكون على نحو بحيث تبقى على هذا التمايز بين الأنا والهو ، وبحيث تضمن لمنظمة الأنا الحديثة التكوين أن تستمر فى البقاء . والمهمة التى يكرس الزهد نفسه لها هى أن يبقى على الهو ضمن حدود لا يتخطاها ، وذلك ببساطة بما يفرضه من تحريمات ؛ أمـــا مهمة العقلانية فهى أن تربط العمليات الغريزية ربطا وثيقا بمضمونات فكرية ، ومن ثم تجعل هذه العمليات متاحة للشعور وقابلة للتحكم فيها .

والآن عندما يرتد الفرد ، بالزيادة المفاجئة فى الليبدو ، إلى هذا هذا المستوى البدائى من الأرتعاب من قوة الغرائز ، يتحتم على بقية العمليات الغريزية وعمليات الأنا أن تتأثر بذلك . وفيما يلى سوف انتقى

من بين الخصائص الغريبة العديدة للبلوغ اثنتين من أعظمها أهمية، موضحة الصلة التى تربطها بتلك العملية من « كبت الأنا » .

إن أكثر الظواهر استلفاتا فى حياة المراهقين ترتبط فى جذورها بعلاقاتهم بالموضوعات . فها هنا يكون الصراع بين نزعتين متضادتين أوضح ما يمكن . وقد سبق أن رأينا أن الكبت الذى تحركه الخصومة العامة ضد الغريزة ينتقى لهجمته الأولى الأخاييل المحارمية لفترة ما قبل البلوغ . فالتشكك والزهد من جانب الأنا يتجهان بشكل أساسى صدما عند الفرد من تثبيت على كل موضوعات حبه الطفلية . ونتيجة ذلك هى، من ناحية ، ميل المراهق إلى أن يعزل نفسه ؛ ومنذ ذلك الوقت فصاعدا يعيش مع أعضاء أسرته وكأنه بين غرباء . ولكن علاقته بموضوعات حبه الخارجية ليست هى وحدها التى تجتذب إليها الخصومة الفدرية فى الأنا ضد الغريزة ، بل إن علاقته بالأنا العليا عنده تتأثر كذلك . فبقدر ما تكون الأنا العليا فى هذه الفترة ما تزال بعد مشحونة بالطاقة اللبيدية المستمدة من العلاقه بالأبوين ، فإن هذه الأنا العليا نفسها تعتبر موضوعا محارميا مريبا ، وتغدو ضحية للنتائج المترتبة على الزهد . وهكذا تعزل الأنا نفسها عن الأنا العليا أيضاً . وبالنسبة إلى المراهقين يكون هذا الكبت الجزئى للأنا العليا ، بمعنى الانعزال عن (أى استبعاد) جانب من مضموناتها ، واحداً من أعظم متاعب المراهقة . والنتيجة الأساسية لقطع العلاقة بين الأنا والأنا العليا هى ازدياد الخطر المهدد من جانب الغرائز . فالمراهق ينزع إلى أن يكون لا اجتماعيا . وقبل أن تحدث هذه القطعية ، فإن حصر الضمير وشعور الإثم ، وهما اللذان ينشآن من العلاقة بين الأنا والأنا العليا ، كانا أقوى حليفين للأنا فى نضالها ضد الغرائز . وعند بدء البلوغ غالبا ما يكون هنالك ما يدل على وجود محاولة عابرة لتحقيق شحن زائد لكل مضمونات الأنا العليا . وربما كان فى ذلك ما

يفسر هذا الذى يسمى « المثالية » فى المراهقة . وهكذا نجدنا أمـــام الموقف التالى : إن الزهد ، الذى يرجع هو نفسه إلى تزايد الخطر الغريزى يؤدى فى الواقع إلى قطع العلاقة مع الأنا العليا ، ومن ثم يؤدى إلى تعطيل الإجراءات الدفاعية التى يحركها حصر الأنا العليا ، مما يترتب عليه أن تردد الانا ، بل وبشكل أعنف ، إلى مستوى الحصر الغريزى الصرف وإلى الميكانيزمات الدفاعية البدائية المميزة لهذا المستوى

ومع ذلك فإن هذا الانعزال بالنفس ، وهذا الارتداد عن موضوعات الحب ، ليسا بالنزعتين الوحيدتين اللتين تلعبان دوراً فى علاقة المراهقين بالموضوعات . فكثرة من التعلقات الجديدة تأخذ مكان تلك التثبيتات المكبوتة ، ونعنى التثبيتات على موضوعات الحب الطفليه . فأحيانا ما يصبح المراهق متعلقا بمراهقين من سنة ، وفى هذه الحالة تتخذ العلاقة صورة صداقة مشبوبة أو علاقة عشقية بالفعل ؛ وأحيانا ما يكون التعلق بشخص أكبر سنا ، يتخذه المراهق قائدا له ويكون بشكل واضح بديلا عن الموضوعات الابوية المهجورة . وعلاقات الحب هذه ،ما استمرت ، تكون مشبوبة ومستبعدة لما عداها ، ولكنها قصيرة الامد . فالاشخاص يكون انتقاؤهم كموضوعات ، ثم يكون هجرهم دونما اعتبار لمشاعرهم ثم يكون انتقاء آخرين فى مكانهم . والموضوعات المهجورة يكون نسيانها سريعا وتاما ، ولكن شكل العلاقة معهم يكون الاحتفاظ به فى كل تفصيلاته الدقيقة ، وعادة ما يكون تكراره ، فى حرفية تكاد توحى بعصاب قهرى ، فى العلاقة مع الموضوعات الجديدة .

وبالإضافة إلى هذه الخاصية اللافية من عدم الوفاء لموضوع الحب ، فإننا نلاحظ خاصية غريبة أخرى فى العلاقة بالموضوع أثناء البلوغ . فالمراهق لا يستهدف امتلاك الموضوع بالمعنى البدنى المألوف للكلمة ،

بقدر مايستهدف مماثلة نفسه إلى أقصى حد ممكن مع الشخص الذى يكون عندئذ محوراً لحبه .

وهذه التبدلية عند المراهقين مسألة شائعة . فهم فى شكل الكتابة ، وطرائقهم فى الحديث ، وأساليبهم فى تصفيف الشعر ، وفى ملابسهم . وفى كل شكل من عاداتهم ، يكونون أكثر مرونة بكثير منهم فى أية فترة أخرى من الحياة . وغالباً ماتكفى نظرة واحدة إلى مراهق لنتعرف على الصديق الذى يكبره ويحظى بإعجابه . ولكن قدرة المراهقين على التبدل تذهب حتى إلى ماهو أبعد من ذلك . ففلسفتهم فى الحياة ، ومعتقدهم الدينى ، ومذهبهم السياسى ، كلها تتبدل كلما انتقلوا من أنموذج إلى آخر . ولكن كائنة ما كانت كثرة تبدلاتهم فإنهم يكونون دائماً أبداً على نفس الدرجة من الاقتناع الثابت والمشبوب بصحة الآراء التى تبنوها بكل هذا الشغف . وهم من هذه الزاوية يشبهون ذلك الطراز من المرضى الذى وصفته هيلينا دويتش، فى دراسة كلينيكية على سيكولوجية الراشدين، على أنه يقع على الحدود بين العصاب والذهان[1] . إنها تسميهم أشخاصاً من طراز « كأن » 'als ob' Typus ، وذلك لأنهم فى كل علاقة جديدة مع موضوع يعيشون « كأنهم » حقاً يعيشون حيواتهم الخاصة ، ويعبرون عن مشاعرهم وآرائهم ووجهات نظرهم الخاصة .

فى حالة فتاة مراهقة قمت بتحليلها ، يتضح بشكل خاص هذا الميكانيزم الذى تستند إليه عمليات التبدل هذه . فخلال عام واحد تبدلت على هذا النحو مرات عديدة من صداقة إلى أخرى ، من الفتيات إلى الفتيان ،

---

(١) Helere Deutsch: 'über einen Typus der Pseudoaffektivität Ktivität ('Als ob'). Inter Zeit. Für Psycheanalysc, Bd, XX, 1934, S. 323 ff.

ومن الفتيان إلى النساء الأكبر سنا . وفى كل مرة لم تكن فقط تصبح لامبالية إزاء موضوع حبها الذى هجرته ، بل كانت تستشعر إزاءه كراهية عنيفة وغريبة - تقترب من الاحتقار - وتشعر بأن أى لقاء مع هذا الموضوع ، بالصدفة كان أو محتوما ، شىء لايكاد يحتمل . وبعد قدر كبير من العمل التحليلى تبينافى النهاية أن هذه المشاعر عندها تجاه أصدقائها السابقين لم تكن مشاعرها على الإطلاق . ففى كل مرة بدلت موضوع حبها كانت تجد نفسها مضطرة إلى أن تشكل سلوكها وآراءها على شاكلة صديقها الجديد ، فى كل أمر من الأمور يتصل بحياتها الداخلية أو الخارجية على السواء . وهكذا فإنها لم تكن عندئذ تعيش وجدانات خاصة بها ، بل الوجـــدانات التى لصديق اللحظة . وكراهيتها للأشخاص الذين كانت تحبهم من قبل لم تكن كراهية خاصة بها. فبعملية من التعاطف النفاذ كان بوسعها أو تبلغ إلى أن تشاطر صديقها الجديد مشاعره . وهكذا كانت تعبر عن الغيرة التى كانت تتخيل أن صديقها يعيشها إزاء أى شخص حظى يوما بحبها ، أو كانت تعبر عن احتقاره هو (لااحتقارها هى) لكل منافس ممكن .

والموقف النفسى فى هذا الطور ، وفى أطوار مماثلة من البلوغ ، يمكن وصفه بكل بساطة : فهذه التثبيتات العشقية المشبوبة والسريعة الزوال ليست بعلاقات موضوعاتية على الإطلاق ، بالمعنى الذى نستخدم به المصطلح فى حديثنا عن الراشدين . إنها توحدات من نوع أكثر مايكون بدائية ، من قبيل مانلتقى به فى دراستنا للنمو الطفلى الباكر ، وقبل أن يوجد أى حب موضوعاتى . وهكذا فإن التقلبية المميزة للبلوغ لاتدل على أى تغير داخلى فى حب المراهق أو اقتناعاته ، بل تدل بالحرى على فقدان للشخصية نتيجة تغير فى التوحد .

إن العمليات التى كشف عنها تحليلنا لفتاة فى الخامسة عشرة ربما كان بوسعها أن تلقى بعض الضوء على الدور الذى تلعبه هذه النزعة إلى التوحد . كانت مريضتى جميلة وجذابة بشكل غير عادى ، وكان لها بالفعل دورها فى وسطها الإجتماعى . ولكنها كانت على الرغم من ذلك تضنيها غيرة مسعورة من أخت لها كانت ماتزال طفلة . وعند البلوغ تخلت المريضة عن كل اهتماماتها السابقة ، وراحت تحركها منذ ذلك الوقت رغبة وحيدة هى أن تكسب إعجاب وحب الفتيان والرجال من أصدقائها . وقعت بشكل عنيف فى حب فتى ، عن بعد ، يكبرها بعض الشىء ، كانت قد اعتادت أن تلتقى به أحيانا فى الحفلات والمراقص . فى ذلك الوقت كتبت إلى خطابا عبرت فيه عن شكوكها وهمومها بخصوص هذا الحب .

كتبت تقول : « اخبرينى من فضلك كيف أتصرف عندما ألقاه . أيتحتم على أن أكون جادة أم مرحة ؟ اتراه يحبنى أكثر إن اظهرت له أننى ذكية أو إذا تظاهرت بالغباء ؟ هل تنصحيننى ان اقضى الوقت كله فى الحديث عنه ام ينبغى على ان اتحدث ايضاً عن نفسى؟ . . » وعندما جاءت المريضة بعد ذلك لترانى ، اجبتها على اسئلتها شفاهية . أوحيت لها بأنه ربما لا يكون ضروريا فى الواقع ان تضع تخطيطاً مسبقاً لسلوكها . فعندما يحين الوقت . ألا يكون بوسعها ان تكون ببساطة على ماهى عليه ، فتتصرف بحسب مشاعرها ؟ اكدت لى انها لن تفعل ذلك الإطلاق ، والقت على محاضرة طويلة فى ضرورة ان يكيف المرء نفسه لتفضيلات الآخرين ورغباتهم . واردفت بأنه بهذه الطريقة فقط يكون بوسعك ان تجعلى الآخرين يحبونك ؛ ومالم تبلغ إلى ان يحبها هذا الفتى فلن يكون بوسعها ببساطة ان تستمر فى الحياة .

وبعد ذلك بوقت قصير روت لى هذه المريضة أخيولة تصور فيها شيئاً شبيها بنهاية العالم . وتساءلت هى : ماذا يمكن أن يحدث لو مات كل الناس ؟ وراحت تسرد كل اصدقائها وأقاربها ، حتى انتهت آخر الأمر إلى أن تتخيل نفسها وحيدة تماما على الأرض. كان صوتها ، وكانت توكيداتها وكانت الطريقة التى تصف بها كل التفاصيل تكشف عن أن هذه الأخيولة لم تكن غير تحقيق لرغبـــة . كانت تستمتع وهى تحكيها ، فلم تثر عندها أى حصر .

عند هذه النقطة ذكرتها برغبتها المشبوبة فى أن تظفر بالحب . فمجرد تفكيرها فى أن واحداً من اصدقائها يمكن أن لا يحبها وأن تفقد بذلك حبه كان كافيا ، فى اليوم السابق ليس غير ، لأن يغرقها فى اليأس . ولكن من سيكون هناك ليحبها لو أنها كانت الكائن الوحيد الذى يبقى على الأرض من الجنس البشرى ؟ استبعدت فى هدوء تذكرنى لها بهمومها فى اليوم السابق . قالت : « فى هذه الحالة سأحب نفسى » ، وكأنها فى نهاية الأمر قد تخلصت من كل ضروب حصرها ، وتنهدت فى عمق متخففة.

هذه الملاحظة التحايلية الصغيرة عن حالة مريضة بعينها ، تعبر فيما اعتقد عن شىء مميز لبعض العلاقات الموضوعاتية أثناء البلوغ . فقطع العلاقات السابقة ، والخصومة ضد الغرائز ، والزهد ، كلها تتمخص عن « تجريد من الليبدو » للعالم الخارجى . إن المراهق يتهدده خطر أن يسحب من المحيطين به « ليبيدو الموضوعات » كيما يركزه على نفسه ؛ وتماما كما نكص داخل الأنا فمن الممكن أن ينكص فى حياته الليبيدية من حب الموضوع إلى النرجسية . إنه يحاول الإفلات من هذا الخطر بجهود مستميتة لعقد الصلة من جديد مع الموضوعات الخارجية ، حتى وإن لم يكن ذلك ممكنا إلا من خلال نرجسيته ، أى من خلال سلسلة

من التوحدات . وبحسب هذا الرأى تمثل العلاقات المشبوبة مع الموضوعات فى المراهقة محاولات للبرء — وذلك وجه آخر للشبه بين المراهقين والذهانيين الذين يوشك مرضهم أن يدخل فى طور من أطوار استفحاله .

فى حديثى عن البلوغ كثيرا ما قارنت بين الخصائص الغريبة لهذه المرحلة وبين ظواهر المرض الخطير (وإن كانت هذه المقارنة لا تدعى بلوغ الكمال) بحيث ربما يكون على أن أقول كلمة عن سوية ولا سوية العمليات التى تحدث أثناء هذه المرحلة .

سبق أن رأينا أن أساس المقارنة بين البلوغ وبداية أحد الأطوار المستفحلة فى المرض الذهانى هو ذلك الأثر الذى ننسبه إلى التغيرات الكمية فى الطاقة . فى كلتا الحالتين يعمل ازدياد الطاقة الليبيدية على الزيادة من الخطر الغريزى ، متأديا بالأنا إلى أن تضاعف من جهودها للدفاع عن نفسها بكل وسيلة ممكنة . لقد اتضح دائما فى التحليل النفسى أنه ، بسبب هذه العمليات الكمية ، يمكن لأية مرحلة من مراحل الحياة البشرية يتزايد أثناءها الليبيدو أن تكون نقطة البدء لمرض عصابى أو ذهانى .

وبصفة ثانوية فإن البلوغ ومثل هذه الاستفحالات الذهانية يتشابهان من حيث ظهور تلك الاتجاهات الدفاعية البدائية التى نربطها بارتعاب الأنا من قوة الغرائز — وهو حصر يمضى بعيدا وراء أى حصر موضوعى أو حصر ضمير .

إن الانطباع الذى يتولد لدينا عن سوية أو لا سوية العمليات أثناء البلوغ عند أى فرد ربما يتوقف على ما إن كانت الهيمنة لواحدة أو أخرى من الخصائص التى سبق أن ذكرتها أو لعديد منها فى نفس الوقت. فالمراهق الزاهد يعطينا الانطباع بأنه سوى طالما كان عقله يعمل فى حرية، وطالما كان له عدد من العلاقات الصحية مع الموضوعات . وينطبق شرط مماثل

على المراهقين من الطراز الذى يصبغ بالعقلانية عملياته الغريزية ، وعلى المراهقين من الطراز المثالى ، كما ينطبق على اولئك الذين ينتقلون فجأة من صداقة مشبوبة إلى أخرى . ولكن إذا كان إتجاه الزهد يتسم بالجمود ، وإذا كانت عملية الصبغ بالعقلانية تجتاح مجال الحياة العقلية كلها ، وكانت العلاقات مع الآخرين لا تقوم إلا على التوحدات المتغيرة ليس غير ، فسوف يكون من العسير عندئذ على المعلم أو المحلل أن يبت ، استنادا إلى الملاحظة ، فى مدى ما يمكن اعتباره مرحلة عابرة من النمو السوى ومدى ما يمكن اعتباره بالفعل ظواهر باثولوجية .

خاتمة

لقد حاولت فى الفصول السابقة تصنيف الميكانيزمات الدفاعية المختلفة تبعا لمواقف الحصر النوعية التى تحرك للعمل هذه الميكانيزمات ، كما أننى دللت على ملاحظاتى بعدد من الأمثلة الكلينيكية . وبقدر ما تتقدم معارفنا عن النشاط اللاشعورى للأنا فربما يعدو ممكنا إقامة تصنيف أكثر دقة بكثير . فما يزال هناك قدر هائل من الغموض عن العلاقة التاريخية بين الخبرات النمطية فى نمو الفرد وبين ظهور أساليب بعينها من الدفاع . إن الأمثلة التى قدمتها توحى بأن المواقف النمطية التى تلجأ فيها الأنا إلى ميكانيزم الإنكار هى المواقف المرتبطة بأفكار الخصاء وفقدان موضوعات الحب . ومن ناحية أخرى فإن التنازل الإيثارى عن الحفزات الغريزية يبدو ، تحت شروط بعينها ، وسيلة نوعية للتغلب على الهوان النرجسى .

وفى الوضع الحالى من معارفنا يمكننا أن نتحدث الآن بدرجة أكبر من اليقين عن التوازيات بين إجراءات الأنا الدفاعية ضد الخطر الخارجى وإجراءاتها ضد الخطر الداخلى . فالكبت يستبعد المشتقات الغريزية ، تماما كما أن الإنكار يستبعد المثيرات الخارجية والتكوين المضاد يؤمن الأنا ضد عودة الحفزات المكبوتة من الداخل ، بينما عن طريق الأخاييل التى ينقلب فيها لضده الموقف الواقعى يتم تدعيم الإنكار ضد الاجتياح من الخارج . وكف الحفزات الغريزية يناظر التقييدات التى تفرضها الأنا على نفسها تجنبا « للألم » من مصادر خارجية . والصبغ بالعقلانية للعمليات الغريزية كإجراء وقائى ضد الخطر من الداخل يماثل التيقظ الشعورى المتصل من جانب الأنا للأخطار من الخارج . وكل الإجراءات الدفاعية

الأخرى — من قبيل القلب للضد والانقلاب ضد الذات — التى تستتبع تعديلا فى العمليات الغريزية لها ما يناظرها فى محاولات الأنا للتغلب على الخطر الخارجى بالتدخل الإيجابى تغييرا للظروف البيئية المحيطة . ليس بوسعى أن استطرد هنا فيما يتصل بهذا الجانب الأخير من نشاطات الأنا.

وهذه المقارنة بين العمليات المتوازية تثير تساؤلا : من أين تستمد الأنا شكل ميكانيزماتها الدفاعية ؟ هل الصراع مع القوى الخارجية يتشكل بحسب الصراع مع الغرائز ؟ أم العكس هو الصحيح ، بمعنى هل الإجراءات المتبعة فى الصراع الخارجى هى الأنموذج الأصلى للميكانيزمات الدفاعية المختلفة ؟ إن البت بين هذين الفرضين المتناوبين يكاد يستحيل أن يكون قاطعا فالأنا الطفلية تعانى الهجوم من المثيرات الغريزية والخارجية فى نفس الوقت ، فإن كان لها أن تحافظ على وجودها فيتحتم عليها أن تدافع عن نفسها فى نفس الوقت ضد الجانبين . والأنا فى صراعها ضد الأنواع المختلفة من المثيرات التى يتحتم عليها أن تسيطر عليها ، ربما تقوم بتكييف أسلحتها لتجيب على حاجتها الخاصة ، مسلحة نفسها حينا ضد خطر من الداخل وحينا ضد خطر من الخارج .

فإلى أى حد تتبع الأنا قوانينها الخاصة فى دفاعها ضد الغرائز ، وإلى أى حد تتأثر فى ذلك بطابع الغرائز ذاتها ، ربما أمكن إلقاء بعض الضوء على هذه المشكلة بمقارنتها بعملية مماثلة هى التحريف فى الحلم . فأفكار الحلم الكامنة تترجم إلى المضمون الصريح للحلم بأمر من الرقيب ، الذى هو يمثل الأنا أثناء النوم . ولكن « عمل الحلم » ذاته لا تقوم به الأنا . فالتكثيف والنقل وأساليب التعبير العجيبة الكثيرة التى تحدث فى الأحلام ، كلها عمليات خاصة بالهو ، وتستخدم فقط لغرض التحريف . وبنفس الطريقة فإن الإجراءات الدفاعية المختلفة ليست بكليتها من عمل الأنا . فبقدر ما تتعدل العمليات الغريزية ذاتها ، يجرى استخدام الخصائص

النوعية للغريزة . ومن قبيل ذلك ، إن تهيؤ مثل هذه العمليات للنقل من شأنه أن يعين ميكانيزم الإعلاء ، هذا الذى تحقق به الأنا ماتستهدفه من صرف للحفزات الغريزية عن هدفها الجنسى الصرف إلى أهداف يعتبرها المجتمع أسمى . وكذلك فى تأمين الكبوتات عن طريق التكوين المضاد فإن الأنا تفيد من قابلية الغريزة للانقلاب للضد ويمكننا أن نفترض أن الدفاع لا يصمد للهجوم إلا إذا تشيد على هذا الأساس المزدوج ـ من ناحية على الأنا ومن ناحية أخرى على الطبيعة الأساسية للعمليات الغريزية .

ولكننا حتى حين نسلم بأن الأنا ليست مطلقة اليد تماماً فى ابتداع الميكانيزمات الدفاعية التى تستخدمها ، فإن دراستنا لهذه الميكانيزمات تدهشنا بعظم ما تنجزه هذه الأنا . فوجود الأعراض العصابية فى حد ذاته يدل على أن الأنا قد اندحرت ؛ وكل عودة للحفزات المكبوتة تكشف ، بما يترتب عليها من تكوين مصالح ، عن أن خطة الدفاع قد اخفقت ، وعن أن الأنا قد اندحرت . ولكن الأنا تكون مظفرة عندما تحقق إجراءاتها الدفاعية غرضها، أى عندما تمكنها هذه الإجراءات من أن تحد من نمو الحصر و « الألم » ، ومن ثم تتمكن الأنا من تحوير الغرائز بحيث يتوفر ، حتى فى الظروف الصعبة ، نوع ما من الإشباع ، فتقيم الأنا بذلك أكثر العلاقات الممكنة تناغما بين الهو والأنا العليا وقوى العالم الخارجى .



محتويات الكتاب

اقرأ للدكتور مخيمر

استاذ الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس

١ - سيكلولوجية الموضه - الأنجلو - ١٩٦٥

٢ - شائعات معركة يونيو ١٩٦٧ - الانجلو - ١٩٦٧

٣ - نحو نظرية ثورية فى التربية - الانجلو - ١٩٦٨

٤ - تناول جديد للمراهقة - الانجلو - ١٩٦٩

٥ - نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى - الانجلو ١٩٦١

٦ - المدخل إلى الصحة النفسية - الانجلو - ١٩٧٢

٧ - الانماط الانفعالية للمكفوفين - الانجلو - ١٩٦١

٨ - تاريخ تأهيل المكفوفين - الانجلو - ١٩٦٠

٩ - المجال الفيزيائى والمهنى لمكفوفين - الانجلو - ١٩٦٠

١٠ - العمى « رعاية المكفوفين » للاب كارول - مؤسسة فرانكلين - سنة ١٩٦٩

١١ - فى مجال الحياة الوجدانية الاجتماعية للمكفوفين - تحت الطبع .

اقرأ للدكتور مخيمر والأستاذ عبده ميخائيل رزق

مؤلفات

١ ـ سيكلوجية الشخصية ـ الانجلو ـ ١٩٦٨

٢ ـ المدخل إلى علم النفس الإجتماعى ـ الانجلو ـ ١٩٦١

٣ ـ المدخل إلى سيكلوجية التعلم ـ الانجلو ـ ١٩٧١

٤ ـ فى الاشتراكية العربيـــة ، ماركس يدحض الماركسية ـ الدار القومية ـ ١٩٦٤

٥ ـ دراسات فى القومية مع هيكل نظرية تفسيرية ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٦٢



مترجمات

١ - علم نفس الجشطلت لبول جيوم - سلسلة الألف كتاب - سجل العرب - ١٩٦٣

٢ - وحدة علم النفس - لدانييل لاجاش - الانجلو - الطبعة الثانية ١٩٦٥

٣ - سيكلوجية الاشاعة - لاولبورت ويوستمان - دار المعارف - ١٩٦٤

٤ - علم الاجتماع عند ماركس الشاب ، لجريفيف - الانجلو - ١٩٦٤

٥ - الدعاية السياسية ، لدومنياك - الانجلو - ١٩٦٠

٦ - سيكلوجية المرأة . لماري بونابارت - الانجلو - الطبعة الثانية ١٩٦٩

٧ - سيكلوجية الشخصية ، لتوتسكات - الانجلو - الطبعة الثانية ١٩٦٣

٨ - نظرية التحليل النفسي فى العصاب - اوتو فينخل - ثلاثة اجزاء الانجلو ١٩٦٩

٩ - التحليل النفسي لخمس حالات - الانجلو - الجزء الأول ١٩٧٢

رقم الإيداع ٤٠٤٦ لسنة ١٩٧٢

مكتبة الأنجلو المصرية

